



مطبعة خان بکتنہ لاہور

# عَلَى إِمَامِ الْأُمَمِ

تأليف

أحمد حسن الباقوري

مكتبة مصير  
٣ شارع كاسل سترن - انجمن

دار مصور للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## إهداء الكتاب

إلى رحاب أبي الحسنين إمام الأئمة على بن أبي طالب ، ثم إلى كل مسلم  
يعتز بأبطال الجهاد في سبيل الله ، أهدى هذا الكتاب .  
ومما تقرُّ به أعين هؤلاء وتشرح له صدورهم ، أن أجمل لهم سيرة  
الإمام — كرم الله وجهه — في قصيدة كنا نتغنى بها في الثلاثينيات ، ونحن  
ندرس علوم البلاغة والأدب على أيدي صفوة من شيوخ الأزهر وأساتذة  
الأدب العربي .

وكان قد نظم هذه القصيدة العضاء الشيخ محمد عبد المطلب الأستاذ  
بمدرسة دار العلوم .

ولعل مما يسعد الأدباء والمتأدبين أن يعرفوا أن هذه القصيدة سماها  
ناظمها « علوية عبد المطلب » ، على مثال « عمرية حافظ » وأنها لا تكاد  
توجد إلا عند أقرباء الشاعر العربي الصميم ، قرابة عرق أو قرابة علم  
وأدب .

وقد كنت أؤثر أن أخرج للناس هذه القصيدة مصحوبة بشرح ضاف  
لحقائقها ومجازاتها ، ثم مزدانة بسيرة الشيخ الجليل في علمه الواسع وأدبه  
الرفيع وسيرته العطرة في وفاته لعرقه العربي وثقافته الإسلامية ، وعزوفه عما  
كان يهيم به أمثاله من التزلف إلى كل ذي جاه على شدة حاجته إلى معونة  
أولئك الذين يستطيعون المنح والمنع حين تعنو لهم الوجوه وتتخاضع  
لسلطانهم الرقاب ، ولكن أبي الله إلا أن يزدان بها صدر هذا الكتاب الذي  
أرجو أن يكون خالصاً لله وسبيلاً إلى السعادة بمرضاة آل البيت النبوي  
الكريم ، والله من وراء القصد وهو — سبحانه — حسبا ونعم الوكيل .

وإليك هذه القصيدة التي هي معوان — أى معوان — على الإمام  
بسيرة الإمام رضى الله عنه وأرضاه :

تَبَصَّرْ هَلْ تَرَى إِلَّا عَلِيًّا	إِذَا ذُكِرَ الْهَدَى — ذَاكَ الْغُلَامَا
غَلَامٌ آتَى الْإِسْلَامَ دِينًا	وَلَمَّا يَغْدُ أَنْ بَلَغَ الْفُطَامَا
إِذِ الرُّوحُ الْأَمِينُ أَتَى بِدِينِ	يَرُدُّ إِلَى هُدَى الْحَقِّ الْأَنَامَا
فَكَهَّلَ فِي جِهَالَتِهِ تَوَلَّى	وَشَبَّخَ فِي ضَلَالَتِهِ تَعَامَى
وَأَخَّرُ لَا يَبِينُ لَهُ جَوَابُ	أَطَاعَ الصَّمْتَ وَاجْتَنَبَ الْكَلَامَا
وَلَجَّتْ فِي عَمَانَتِهَا قَرِينُ	تَصَارَحَهُ الْعِدَاوَةُ وَالْخِصَامَا
وَجَاسَتْ بَيْنَ أَضْلَعِهَا قُلُوبُ	عَلَى الْإِسْلَامِ تَلْتَهَبُ احْتِدَامَا
فَمَا فَعَلَ الْفَتَى وَالشَّرُّ تَغْلَى	مَرَّاجِلُهُ وَتَهْتَزُّمُ اهْتِرَامَا
مَضَى كَالسَّيْفِ لَمْ يَعْقِدْ إِزَارًا	عَلَى رِيبٍ وَلَمْ يَشُدَّ حَزَامَا
يَرُوحُ عَلَى مَجَامِعِهِمْ وَيَغْدُو	كَشِيلِ اللَّيْلِ يَعْتَرِّمُ اعْتِرَامَا
صَغِيرُ الْمَنْ يَخْطُرُ فِي إِبَاءِ	فَلَا ضِمَامٌ يَخَافُ وَلَا مَلَامَا
وَمَا زَالَتْ بِهِ الْأَيَّامُ تَرْقَى	عَلَى دَرَجِ النَّهْيِ عَامَا فَعَامَا
وَقَدْ جَمَعَ الْجَبَا وَالِدِينَ فِيهِ	خَلَّاتُكَ تَجْمَعُ الْخَيْرَ الْعِظَامَا
وَلَنْ يَنْسَى النَّبِيُّ لَهُ صَنِيعًا	عَشِيَّةً وَدَعَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَا
وَفِي أُمِّ الْقُرَى خَلَّ أَخَاهُ	تَسْجَى فِي حَظِيرَتِهِ وَنَامَا
وَلَمْ يَأْبَهُ عَلَى الْمَنَاسِيَا	وَلَمْ تُقْلِقْ بِجَفْنِيهِ مَنَامَا
تَخْلَفُ عَنْهُ كَيْ يَقْضَى حَقُوقًا	عَلَى خَيْرِ الْوَرَى كَانَتْ لَزَامَا
وَمَا صَهَرَ النَّبِيُّ إِذَا تَنَادَوْا	كَمَنْ يَدْعُو رَيْعَةً أَوْ هِشَامَا
وَمَنْ تُهْدَى الْبَتُولُ لَهُ عُرُوسًا	بَنَى فِي النَّجْمِ بَيْتًا لَا يُسَامَى

بأمر الله زفوها إليه	عشية راح يخطبها وساماً
كأننى بالملائك إذ تدلت	بصحن البيت تزدحم ازدحاماً
فلو كشف الحجاب رأيت فيه	جنود الله تنتظم انتظاماً
أطافوا بالحظيرة في جلال	صفوفها حول فاطمة قياماً
تفيض على منصتها وقاراً	وتكسو حسن طلعتها وساماً
فلا يخزن خديجة أن تولت	ولم تبلغ بجلوتها مراماً
تولأها الذى ولى أباهـ	رسالته وزوجها الإماماً
قرآن زاده الإسلام يُمنأ	وشمل زاده الحب الشاماً
فإن تك خير من عقدت إزاراً	وأكرم من تلثمت اللثامى
فما شغلته عن خوض المنايا	إذا التظمت زواجرها التطاماً
فسائل عنه فى أحد العوالى	وقد خلكت العجاج بها وآما
وسائل يوم خير عن على	تجد فيها مآثره جساماً
إذ الرايات فى جهد عليها	تعاصى الفتح وانهم انبهاماً

\*\*\*

دع الحوميات عنك فنى المغازى	ومن سل السيوف بها وشاماً
وسل أهل السلام تجد علياً	أمام الناس يتلر السلاماً
حوى علم النبوة فى فؤاد	طما بالعلم زغاراً فظاماً
سقاء الحق أفواق المعانى	وهيمه به حباً فهاماً
وزوده اليقين به فكانت	أفاويق اليقين له قواماً
فكم أجرى على المحراب دمعاً	لخوف الله ينجم انسجاماً
إذا ما قام فى المحراب قامت	له زمر الملائكة احتراماً

صلاة الليل يجعلها سُحُوراً  
 رأينا في الكهولة منه شيخاً  
 فما للدهر لم يعرف حقوقاً  
 ألا بُت يد بالفسد ثارت  
 لو ان السيف كان له خيارٌ  
 ولكن القضاء جرى برزءٍ  
 فبعداً لابن مُلجَم يوم يأتي  
 به فجع المدينة والمصلّى  
 ولولا الغدر لم يرفع جينسا  
 نعى الناعى أبا حسن فمالت  
 بروحى غُرّة يجرى عليها  
 جين زاده بالموت نوراً  
 بنفسى إذ يجود بخير نفس  
 مضى زَيْنُ الصَّحَابَةِ فى سبيل  
 إلى دار السلام مضى على

إذا ما فى الغداة نوى الصياما  
 هوى المجد اشتمالاً واعتمادا  
 له شيخاً ولم يُنكر ظلاما  
 تَمُدُّ إلى أبى حسن حُماما  
 لعُرد عنه وانثلم انثلاما  
 له انحلت عرى الصبر انفصاما  
 يجر بردغة الخيل اللجاما  
 وزلزل بطن مكّة والمقاما  
 لهيبته ولا نظرا أساما  
 رواسى الأرض تندك انهداما  
 دم أزكى من المسك اشتماما  
 لقاء الله فأتلقَ ابتساما  
 تخاف على الحنيفة أن تُضاما  
 إلى ملأ بجيرته استهاما  
 وجاور فى منازلها السلاما

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمدا يستبقى لأهل الإيمان أفاويق النعماء ،  
ويستدفع عنهم أهوايل البلاء .

والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد عبد الله ورسوله خاتم الأنبياء  
 والمرسلين ، صلى الله عليه وآله وصحبه وعلى جميع إخوته من الأنبياء  
 والمرسلين .

رغبت إلى — أعزك الله — أن أخرج للناس عن الإمام على — كرم الله  
 وجهه — كتابا ينجمهم الغالين<sup>(١)</sup> فيه ، ويزدري القالين<sup>(٢)</sup> له ، ويذكر  
 أولئك وهؤلاء بما يرويه الثقات عن رسول الله من قوله لعلى يلفته إلى قابل  
 تكتفه شدائد لا يصبر على لأوائها إلا المجاهدون الصادقون :  
 « يهلك فيك يا على اثنان : محب غال ، ومبغض قال » .

وما كان رسول الله صلوات الله عليه ليرمى بالكلام على عواهنه ، فإذا قد  
 أنذر بالهلاك الغلاة والقلاة فقد كان حقا على المسلم أن ينصح لإخوته من  
 أهل الإسلام ، بلزوم القصد ، وإيثار التوسط بين الإفراط والتفريط أداء  
 للأمانة التي وضعها الله تعالى في أعناق القادرين وأمرهم بأدائها ، أمرا  
 لا يحتمل التأويل : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا  
 حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا  
 بصيرا »<sup>(٣)</sup> .

(١) الغالين : من جانروا حد الاعتدال في حب الإمام على كرم الله وجهه .

(٢) القالين : من أبغضوا — أشد البغض — عليا كره الله وجهه .

(٣) النساء ٥٨



ولست أكرمك — حفظك الله — أننى ظللت أمدا طويلا ، نهى حيرة  
تؤرق ليلى وتزعج نهارى ، خشية أن أكون سلكت طريقا خفى المعالم  
واحتملت أمانة ثقيلة التبعات .

ولكننى استعنت الله — ضارعا إليه — جل شأؤه أن يقيمنا على حاق  
الطريق ، عائدِينَ به من العجب بما نحسن ، ومن التكلف لما لا نحسن ،  
وهو سبحانه أعظم مأمول وأكرم مسئول ، يده الخير وهو على كل شيء  
قدير .

---

## إمام الأئمة « كرم الله وجهه »

أحسب أنك متطلع إلى معرفة البواعث على تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم الشريف « على إمام الأئمة » .

فإذا كنت حريصا على ذلك ، فاعلم — أعزك الله — أن ها هنا أمرين لا بد من وقتين حيالهما وسوف يقضيان بك إلى اجتلاء هذه الدواعي شامخة المعالم خافقة الأعلام .

وأولى الوقتين ، حول اختصاص الإمام من بين الصحابة بكلمة « كرم الله وجهه » ، حتى إنك لو سمعت هذه الكلمة مترددة في حديث مجلس أو مستعلنة في صحائف كتاب ، لانصرف ذهنك إلى الإمام على بن أبي طالب دون سواه من عباد الله أجمعين .. ذلك أن الإمام بحكم نشأته في بيت النبوة — لم يسجد لصنم قط ، ومن حق الوجه المصون من ذل السجود للأصنام أن يقرن اسمه بتكريم وجهه ، إما إخبارا عنه وإما دعاء له . وربما زكى هذا المعنى في نفسك أن تتمثل شخصه الكريم وقد اعتنق الإسلام وسنه لم تجاوز عشرة أعوام ، ثم صلى مع رسول الله في بيته وفي غير بيته كما يروى ذلك الحافظ النسائي عن أسد بن وداعة أن رجلا يدعى « عفيفا » قال : جئت في الجاهلية إلى مكة أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها ، فأثيت العباس بن عبد المطلب فجلست عنده حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلفت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت ، إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم قام مستقبلا القبلة ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلف الشاب والغلام ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة . فقلت : يا عباس ،

أمر عظيم . قال العباس : أمر عظيم ، أتدري من هذا الشاب ؟ إنه ابن أخي محمد بن عبد الله . أتدري من هذا العلام ؟ إنه علي ابن أخي أبي طالب . أتدري من هذه المرأة ؟ إنها خديجة بنت خويلد زوجة محمد ، وقد أخبرني محمد أن ربه رب السماء والأرض ، وأنه أمره بهذا الدين الذي هو عليه ، ولا — والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين سوى هؤلاء الثلاثة . فإذا قد صح بهذه الأخبار الموثوقة أن الإمام لم يسجد لصنم بل كان يعبد الله راكعا ساجدا ، فقد صح ما ذهبت إليه الأمة الإسلامية سلفا وخلفا من أن الإمام أحق أصحاب رسول الله بتكريم وجهه كلما تحدث عنه متحدث في ناد أو كتب عنه كاتب في صحيفة أو مجلة أو كتاب .

هذا .. وأما الوقفة الثانية ، فإنها تنظر إلى اعتباره — كرم الله وجهه — إمام الأئمة . وجملة القول في هذا المعنى أن أهل الدين في الأرض ، ذات الطول والعرض ، معنيون بدرس سيرته وأهل بيته ، وقد أجمعوا على نسبة الفضل إليه نسبة تستند إلى أوثق وثائق التاريخ . فإذا نظر الناظر إلى منزلته بين أهل الإسلام فإنه سيجده شيخ أئمة المسلمين على اختلاف المذاهب والمشارب ، فهم يتحاذرونه تجاذب المعتز به ، ويتنافسون في الأخذ به والاعتزاء إليه مهما اختلفت بهم طرائق التفكير في آفاق العلوم والفنون .

## سمات الرجال مفاتيح تراجمهم

غير خفى على البصراء باللغة العربية الشريفة أن سمات الشيء كاشفة عنه ودالة عليه ، وغير خفى أيضا على البصراء تراجم الرجال أن السمات تنتظم الأنساب والصفات ، فكلاهما معوان على تجلية الموصوف تجلية لا لیس فيها ولا غموض . ومن هنا نرى كتاب السيرة النبوية الشريفة يبدعون بسرد نسب رسول الله ، ثم يتبعون بسبه الزكى صفة خلقه الشريف وخلقهم العظيم ، فإذا هو ملء العيون حلالة وملء القلوب مودة . وكأنهم يرون شخصه الشريف بغير حجاب فى قيامه وقعوده ، وركوعه وسجوده ، وحديثه إلى أصحابه واستماعه إليهم ، وما إلى ذلك من كل ما يحرص على العلم به أوليائه وأعدائه على سواء .

ولست تقول غير مقول إذا ذكرت أن الذين كتبوا سيرة رسول الله على هذا النحو الشريف من سرد نسبه والإمام بصفته ، إنما أثروا القدوة به فى حديث له إلى أصحابه يصف فيه لهم موسى وعيسى وإبراهيم عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام .. ذلك أنه قال لأصحابه : « لقد أريت ليلة أسرى بى — موسى — فإذا هو ضرب من الرجال أسمر كأنه من أزد شعوة ، ورأيت عيسى بن مريم فإذا رجل أبيض مطن كأنه السيف وكأنما خرج من ديماس ، ورأيت إبراهيم فإذا أشبه الناس به صاحبكم ، يعى بعسه صلى الله عليه وسلم .

## شرف النبوة من شرف الأبوة

غير ذى حاجة إلى بيان أن الإمام كرم الله وجهه له فى شرف العروبة موضع كريم ، ولله من أدب الإسلام حظ عظيم . ولست ترتاب — رحمك الله — فى أنه إذا اجتمع أدب الإسلام إلى شرف العروبة فذلك هى الغاية التى يكون الظاهر بها ملكاً يمشى على قدمين فى دنيا الناس . وقد يتجههم بعض المنتسبين إلى العلم هذه الكلمة التى تضىء على الأمة العربية فى جاهليتها شرفاً يقابل أدب الإسلام . وربما استند هذا البعض إلى أن تلك الأمة كانت أسيرة للخرافات والأوهام ، فهم فى مجال العقائد عدة أصنام ، وفى مجال السلوك أسرى أوهام .. يأكلون الميتة والدم ، ويقتلون أولادهم من الفقر أو خشية الفقر ، ويدسون بناتهم تحت التراب أحياء دون أن تصرفهم عن هذه القسوة عاطفة من أبوة ، أو نازعة من إنسانية ، إلى رذائل كثيرة لا يحصرها العد ، ولا يطمع فى تحليلها بيان .

فكيف يسوغ للمنصف أن يسوى بين الأمة العربية فى صورتها هذه وبينها فى صورتها التى يقول الله تعالى فيها ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

وأحسب أنك — غفر الله لك — قد غلوت فى مقاتلك هذه غلوا تعديت به حدود الاعتدال ، وكدت تلتحق — من حيث لا تريد — بالشعوبيين الذين يتعصبون على الأمة العربية لقومياتهم الجاهلية ، وإلا فإن ها هنا أمرين يردان عليك رأيك الظلوم .

أحدهما : أن الرذائل الاجتماعية فى الأمة العربية الجاهلية إنما هى فضائل تطرفت فانتقلت إلى رذائل .

وثانيهما: أن في تدبر القرآن والتأمل في السيرة واستعراض أقوال السلف .  
الصالح ، ما يعلو بالأمة العربية الجاهلية إلى أفق رفيع من مكارم الأخلاق .  
واليك ما يشير إليه القرآن لمن يتدبرونه ، ثم ما تشير إليه السيرة ، ثم  
ما تضمنته أقوال السلف الصالح مما يضع الأمة العربية الجاهلية موضع  
تشریف وتكريم .

فأما القرآن ، فعول الله من سورة الزخرف : ﴿ فَاسْتَمِعْ بِالَّذِي أَوْحَى  
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ  
تُسْأَلُونَ ﴾ (١) . ثم انضم إلى هذه الآية من سورة الزخرف الآية من سورة  
الأنبياء : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقد تسأل — أعزك الله — عما انتظمته الآيات مما تقوم به الحجة على  
أن للعرب في الجاهلية أخلاقا شريفة يورثها الآباء والأجداد .. الأبناء  
والأحفاد .

وجواب سؤالك هذا مرتبط بكلمة « الذكر » في الآيتين ، ذلك أن  
الذكر يشير إلى الشرف وحسن الأدب بين العالمين على ما يقول شارح  
القاموس : إن الذكر يجيء بمعنى الشرف ، وبه فسر قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ  
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (٣) . يعني أن القرآن شرف لك يا محمد ولقومك من  
العرب . وكذلك ورد الذكر في القرآن كما في قوله تعالى خطابا لرسوله  
صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ .  
الَّذِي أَثْقَصَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٤) السورة . فإن المراد برفع  
ذكره تشريفة وإعلاء صيته في العالمين بخير ما يقترن به بعد الصيت ونهاية  
الشأن . وما كان الله تعالى ليرفع من ذكر خسيس قط .

(٢) الأنبياء ١٠

(١) الزخرف ٤٣

(٤) المشرح ١ — ٦

(٣) الزخرف ٤٤

هنا ما يتعلق بالقرآن الكريم من تشریف الله لتلك الأمة المجيدة ، وأما ما يتعلق بالسنة الشريفة فحديث يرويه الإمام السهيلي في روضه ، خلاصته أن رسول الله كان يعرض نفسه على القبائل في أسواق العرب ، وذات يوم خرج إلى منى ومعه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما . واستعرض أبو بكر مجالس القوم فإذا مجلس عليه السكينة والوقار ، فتقدم فسلم ثم قال : ممن القوم ؟ .. قالوا : من شيبان بن ثعلبة . فقال أبو بكر لرسول الله : بأبى أنت وأمى ، هؤلاء غرر فى قومهم ، وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك ، وكان مفروق قد غلب على القوم جمالا ولسانا وكانت له غديرتان<sup>(١)</sup> تسقطان على ترييته<sup>(٢)</sup> ، وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر فسأله : كيف العدد فيكم ؟ فأجابه مفروق : إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة . فسأله أبو بكر أيضا : كيف المنعة فيكم ؟ .

فأجابه : علينا الجهد ولكل قوم جد<sup>(٣)</sup> . فسأله أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ . فأجابه : إنا لأشد ما نكون غضبا حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإننا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا<sup>(٤)</sup> مرة ويديل علينا أخرى ، ولعلك أخو قريش . فقال أبو بكر : أؤكد بلغكم أنه رسول الله ، ها هو ذا . قال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم توجه بالخطاب إلى رسول الله : ما الذى تدعو إليه يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله فقال — صلوات الله عليه : ( أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، ثم أدعوكم إلى أن تؤمنوا وتؤمنوا ، فإن قريشا ظاهرت على أمر الله

(١) غديرتان .

(٢) عظمتى صدره . ترقوته .

(٣) الحظ والصيب .

(٤) بنصرنا .





حارثة صاحب الحرب ، فقال المشي : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش والحواب هو جواب هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا إياك في مجلس جلسته إلينا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف . ونحن نزلنا بين أنهار كسرى ومياه العرب ، وإنما نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا ، وإن الأمر الذي تدعو إليه — يا أخا قريش — هو — مما تكرهه الملوك . فإن .. أحببت أن تؤيِّلَكَ وننصرَكَ مما يلي مياه العرب ، فعلنا . فقال رسول الله ﷺ — : « ما أسأتم في الرد بل أفصحتم بالصدق ، ولكن دين الله لا ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه . ثم نهض صلوات الله عليه فأخذ بيد أبي بكر قائلا : ( أية أخلاق في الجاهلية هذه الأخلاق ، ما أشرفها ! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم ) .

هذا وأما المأثور عن الأسلاف الموثوقين فكلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث يقول : « إني لأعلم متى تهلك العرب : إذا سافه من ترك الجاهلية فلم يأخذ بأخلاقها ، وسافه من أدركه الإسلام فلم يقضه<sup>(١)</sup> الورع » .. فقد عدل أبو حفص عمر خلق الجاهلية بورع الإسلام ، وذلك تكريم لأخلاق العرب في الجاهلية لا تخفى معالمة على البصراء بحر الكلام .

وخليق بك بعد هذا الذي ذكرنا لك أن تضع نصب عينيك أمرين لا ندحة لك عن تمثلهما في مجال الحديث عن الإمام كرم الله وجهه : **أحدهما** : أن للأمة العربية في جاهليتها أخلاقا شريفة لا يجهلها إلا جهول ولا يجحدها إلا جحود . **وثانيهما** : أن أوفر الناس حظا من تلك

(١) الرقذ : الصرب على مواضع يشتد عليها وهي المرقن وطرف المنكب والركبة والكعب ، وربما تحورت العرب بهذه الكلمة فقالت وقذته العبادة ووقذته كلمة سمعها من صديقه .

الأخلاق الشريفة هم سادة الأمم وكبرائها وأهل الأحساب فيها ، وهؤلاء في الأمة العربية هم الذين ينتهون بهاشم في قريش ويتدثون بكنانة في ولد إسماعيل ، على ما جاء ذلك في الحديث النبوي الشريف : ( إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار من خيار ) .

وليس يغيب عنك أن الإمام هو ابن عم رسول الله فكل شرف في رسول الله — ﷺ — من هذا الجانب — هو شرف للإمام على كرم الله وجهه ، وما من شك في أن الأبناء والأحفاد يرثون عن الأجداد والآباء صفاتهم الخلقية والنفسية ، كما يرثون عنهم أوصافهم الجسمانية الظاهرة .  
وبتمثلك هذه المعاني وفقهك إياها يبدو لك على غاية الوضوح أن الإمام — كرم الله وجهه — له في شرف العروبة مقام كريم وله من أدب الإسلام حظٌ عظيم .

وإذ قد أفضى بنا تداعي المعاني إلى هذه المرحلة من الحديث ، فإن من الحق الذي لا يمل الاقتضاء ، أن نذكر لك نسب الإمام كرم الله وجهه من قبل أبيه وأمه ، وسوف يفضى بك النظر الصحيح إلى الإيمان البصير بأن البيت الهاشمي الذي نشأ فيه هو أشرف بيوتات قريش ، وأن قريشا سليله ورع ديني عريق ، وجسّ حضارى دقيق . فأما الورع الديني العريق فمرده إلى قامون الوراثة الذي لا يختلف الناس عليه ، إذ كان له سند صحيح يؤيده العلم ولا ينكره الدين .

وأما الجسّ الحضارى الدقيق فمرده إلى الأب الأعلى إبراهيم الذي تزوج بهاجر فأولدها إسماعيل بن إبراهيم . وليس يخفى على أهل العلم أن إبراهيم سليل حضارة بابلية عريقة ، وأن هاجر سليل حضارة مصرية أعرق ، وستة ( ٧٢ — على إمام الأمة )

الحياة جارية على أن الوارث أبوه يورث أولاده ، فإذا قد ورثت قريش عن إبراهيم وهاجر الوجدان الدينى العريق والحس الحضارى الدقيق ، فليس بمستكر أن تورث قريش سلالتها من الرجال والنساء ذلك الوجدان الدينى وذلك الحس الحضارى .

وكذلك جمع الله تعالى لعلى رضى الله عنه بين الوجدان الدينى العريق والحس الحضارى الدقيق ، إذ كان أبو طالب وسطا فى بنى هاشم غير مجهول القدر ، ولا مجحود الفضل فى كفالته محمدا وحماته إياه رسولا يبلغ رسالة الله إلى العالمين ، تحقيقا لدعوة أبوه إبراهيم وإسماعيل فى قول الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْتِخِمْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

## نسب الإمام كرم الله وجهه

أسلفنا لك أن الأمة العربية سليلة أبوين نشأتها يبتان عريقتان في الحضارة والدين وهما : إبراهيم وهاجر عليهما السلام .  
ولئن كان إبراهيم العربي الكلداني قد نشأته حضارة عريقة في وادي دجلة والفرات ، لقد نشأت هاجر العربية المصرية حضارة آيين عراقية في وادي النيل .

ولعلك لا تزال تذكر أن الوراثة قانون تلقاه أهل العلم والمعرفة ، بالإذعان له والنزول على حكمه في الأوصاف الجسمانية الظاهرة والأوصاف الوجدانية الباطنة على سواء . وقد كان طبعيا أن تترث الأمة العربية عن أبويها إبراهيم وهاجر ما كانا يمتازان به من الوجدان الديني العريق والحس الحضاري الدقيق .

وإن من الحق علينا لك أن نذكرك — أعزك الله — بأن الإمام كرم الله وجهه ، قد ورث عن أبويه الأذنين أي طالب وفاطمة ما يؤيد وراثته عن أبويه الأعلين إبراهيم وهاجر — رضى الله عنهم أجمعين .

وأحسب أنك تطمح إلى الإمام بسيرة أي طالب والد الإمام ، ثم إلى الإمام بسيرة فاطمة أمه عليهما رحمة الله .

---

## أبو طالب والد الإمام

هو شيخ بنى هاشم أبو طالب بن عبد المطلب العم الشقيق لرسول الله ﷺ ، وقد كفل ابن أخيه محمداً بوصية من أبيه عبد المطلب بن هاشم فأنفذ الرجل وصلة أبيه في كفالة محمد ورعايته صغيراً ، ثم في حياضته ملازماً له في الحل والترحال ، ثم في تزويجه بمخديجة بنت خويلد وإصنافها من ماله الخاص . فلما اختارت عناية الله محمداً — ﷺ — رسولا إلى العالمين ، كان أبو طالب نصيراً له ينافع عنه أعداءه ويشجعه على إبلاغ رسالة ربه ، بأدلا في سبيل حمايته والانتصار له والاعتزاز به ما لا يذله إلا مثل أبي طالب في اعتزازه بحسبه وعزوفه عما يشين أصحاب المروءات . وقد أعد الرجل من نفسه عزيمة صادقة صارمة تستجيب للملهوف وتغيث المستغيث إذا فزع إليه كل من أرهقته مطالب العيش وأثقلت كاهله هموم الحياة . ولقد كان وجود أبي طالب في نصرة رسول الله ضرورة من ضرورات الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، إذ كان سندا للدعوة المحمدية لا بد منه لقيامها ومضيا إلى غايتها بين جهل الجاهلين وترصص المترصين . ذلك أن من سنن الاجتماع البشري ألا ينتصر رجل ولا مبدأ ولا دين ما لم يستند إلى عصية مهية يخشاها العدو ويعظمون إليها الصديق .. وما كان لكبار المسم إذا كثر ما لهم وعظم جاههم أن يحطوا عن كواهلهم الشعور بأثقال التكاليف التي تخرضهم على الانتصار للمبادئ السليمة والمذاهب القويمة .. ذلك بأنهم لو فعلوا هذا لتركوا

الجهد كله لسواد الناس والمستضعفين منهم ، فعبزت الدعوات عن بلوغ غايتها من إصلاح شئون المجتمع الإنساني ، وذلك هو الخسران المبين .

ولست تجهل أن أحرار العقول يرون في الانتصار للخير والحق والجمال انتصاراً لأنفسهم ، من حيث كانوا مسغولين مثل الناس أو قبل الناس ، لأنهم أقدر على الدفاع وأقوى على الإغانة وأصبر على المكاره والخطوب . وأبو طالب لم يفقه أن يعرف للواجب الذى نيط به حقه عليه ، ولم يثقله العبء الذى ألقاه هو على نفسه بحكم المروءة العربية أو بحكم الانتصار للبيت الهاشمي الكريم ، فراح ينتصر لرسول الله ويؤيده ويخاصم الناس جميعاً فيه . لم تأخذه العزة بالإثم كما أخذت غيره من الكبراء الذين ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

ومما يستلفت انتباه الناظر في سيرة أئى طالب ، ما ذكره صاحب السيرة الحلية من أن أبا طالب كان كأبيه عبد المطلب ، فكلاهما حرم على نفسه الخمر في الجاهلية على شدة إيثار العرب لها وحجم إياها وتغنيهم بها في حَمَلها شاربها على الشجاعة والجود ، اللذين هما من أعظم مكارم الأخلاق . والذى يمثّل علياً في نشأته هذه ، لا يرتاب في أنه كرم الله وجهه قد ورث عن أبيه أئى طالب أشرف ما يرث الولد الكريم عن الوالد العظيم .

وقد تسأل — أعزك الله — عن السبب الذى دعا أبا طالب إلى حماية محمد ودفاعه عنه . أكان ذلك استجابة لنداء عصية قبلية ، أم كان

استجابة لنداء فطرة سوية تأنف من عبادة الأصنام ، وسائر ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها من وأد البنات وقتل الأولاد وما إلى ذلك مما لا يليق بالكبار ؟ .

وجواب سؤالك هذا — في مبلغ علمي — يقتضينا وقفة حول مذاهب العرب الدينية في جاهليتهم . وخلاصة هذه الوقفة أن العرب كانوا ذوى مذاهب دهنية شتى :

فمنهم من كانوا يعبدون الأصنام زاعمين أنها شركاء لله ، بذلك على ذلك صيغة التولية التي آثروها لأنفسهم وفيها يقولون :

« لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك . إلا شريكا تملكه وما ملك » .

ومنهم من كانوا يعبدون الأصنام دون أن يجعلوها آلهة ، وإنما يعبدونها لكي تقربهم إلى الله وتمهد بين أيديهم السبل إلى الظفر بمرضاته عز وجل .

يدلك على ذلك المعنى الآتي من سورة الزمر ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

ومنهم من كانوا يعتقدون التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد ، فيزعمون — كما في اللسان — أن روح الميت يصير طائرا يسمونه الصدى ، ويعتقدون أنه يصبح صياحا يتشاءمون به وربما زعموا أن الناقة

إذا سمعت صوت الصدى فرمت براكبها فدفقت عنقه . وفي هذا المعنى يذكرون أن توبة بن الحُمَيْر كان مفتونا بليلي الأخيلية ، فلما مات مرت ليل على قبره راكبة ناقها فسلمت عليه ، فخرج إليها من قبره طائر يصيح صياحا أفرع الناقة فرمت بليلي فدفقت عنقها . وكان ذلك تصديقا لشعر توبة فيها :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت على ودوني جندل وصفائح  
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا<sup>(١)</sup> إليها صدى من جانب القبر صائح  
فقد نفى الإسلام زقاء الصدى فيما نفى من أوابد العرب في  
الجاهلية . وجاء الحديث الشريف يقول : ( لا هامة ولا صفر ) ..  
فالهاماة هي البومة التي يتشائم الناس بها ، أو هي ذلك الطائر المزعوم  
الذي يخرج من رأس الميت .

وعبر العرب في الجاهلية المتأهلون أهل الورع والتحرج من القبائح ،  
وهم كثيرون لا يعرف منهم أسماء ذات شأن في دنيا الفضل والفضلاء  
إلا عبد المطلب بن هاشم وابناه : عبد الله ، والد سيدنا رسول الله  
— ﷺ — ، وأبو طالب ، والد الإمام علي كرم الله وجهه .

وغنى عن البيان أن فضائل أبي طالب تنتظم معاني شريفة تقوم على  
تخرجه من القبائح ، وانتصاره لرسول الله في مواجهة مشركي قريش  
مواجهة تجعله يفقد وجاهته فيهم ويخسر منزلته الرقيقة بينهم ، وربما  
كلفته بذل حياته دفاعا عن محمد وانتصارا له بما يمكنه من الدعوة إلى  
الإسلام ، الذي لم يكن له في قريش نصير .

(١) زقا : صاح .



والذى يتأمل هذه الحقائق على ضوء المقاييس الاجتماعية الموروثة ، لا يسهه أن يرى أبا طالب رجلا مشركا كسائر المشركين . ذلك أن الإنسان يحكم الفطرة الإنسانية لا ينزل عن منصبه أو جباهه أو حياته ، إلا إذا كان له عن كل ذلك عوضٌ يكافئ الوجاهة والثروة والحياة . ولذلك رأى بعض أهل العلم أن أبا طالب — في بذله هذا الذل الشريف من أجل رسول الله — لا يمكن أن يكون كسائر الآحاد في قريش ، فأوحى إليهم قياسهم الأشباه والنظائر أن يعتبروا أبا طالب مؤمنا في أعماق نفسه بدعوة ابن أخيه ، وإن كتم إيمانه فأصبح مثله كمثل سائر المشركين .

وربما احتجوا لرأيهم هذا بأن ملة أئى العرب إبراهيم كانت قد بقيت منها بقايا أخذ بها كبار المم وأهل العزائم ولم تكن ملة إبراهيم إلا قائمة على التوحيد ، فإذا انضم إلى ذلك ، أن كتمان الإيمان من شأنه أن يخفف من عداوة قريش لأئى طالب ، فإن ذلك قد يدعو بعض أهل العلم إلى اعتبار أئى طالب مؤمنا بالدعوة المحمدية وإنما كتم إيمانه لكي تمنهد له السبيل إلى حماية محمد فى دعوته إلى الله ، وإلا فإن من أهل العصية فى قريش ؛ عبد الرحمن بن عوف وقد عالن القوم بإسلامه ولكنه لم يؤن عن رسول الله شيئا ، بل لم يؤن عن نفسه شيئا .

وباجتماع هذه المعانى مضموما بعضها إلى بعض ، رأى بعض الباحثين ، أن أبا طالب كان مؤمنا يكتم إيمانه لكي يتمكن هذا الكتمان من حماية محمد عليه الصلاة والسلام .

غير أن هؤلاء السادة — فى تصورهم أبا طالب مؤمنا — قد ركبوا طريق العاطفة التى نأت بهم عن تدبر الآية الشريفة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُهْدَى مِنْ أُحْبِبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

فقد روى الإمام مسلم حول هذه الآية عن سعيد بن المسيّب عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب ، جاءه رسول الله ﷺ — فوجد عنده أبا جهل وأحد بنى المغيرة ، فقال رسول الله : ( يا عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ) . فقال أبو جهل والمغيرة : أترغب يا أبا طالب عن ملة عبد المطلب ؟ . ولم يزل رسول الله ﷺ — يردد كلمته لأبى طالب حتى قال — آخر ما كلمهم — : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

يقول أهل العلم هؤلاء : إن أشراف العرب كانوا يكرهون سوء الأحداث من بعدهم ، وقد عاش أبو طالب بين قريش فلو أنه أعلن إسلامه لقال العرب المشركون بعد وفاته : إنه كان منافقا . والفاق أمر يغيض تذل به الجباه وتخاضع له الرقاب فلم يشأ أبو طالب أن يخلف من بعده حديثا يتقصه ويرميه بأسوأ أخلاق الإنسان الكبير . ولو أننا افترضنا أن أبا طالب كان مع رسول الله ﷺ — وحده دون صاحبيه المشركين ، لَمَا كان أمرا بعيدا عن المعقول المقبول ، أن يستجيب أبو طالب لدعوة محمد ، وأن يقول « لا إله إلا الله » . وهذه الفروض مهما تكن مقبولة أو غير مقبولة ، فإنها لا تتأبى على المعقول الذى يجرى مثله كثيرا فى دنيا الناس .

والذين يمثّلون أبا طالب — فى شدة حذبه على ابن أخيه ، ومصابرته الشدائد فى الانتصار له — لا يستعملون فرضا يتوسلون به إلى تقرير الإيمان لأبى طالب . والله تعالى أعلم بما كان وبما يكون وهو سبحانه حسبا ونعم الوكيل .

وليس ينبغى لك — حفظك الله — أن تشكر قيمة كتمان الإيمان فى تأييد الدعوة فتزعم أن أبا طالب لم يكن له أن يكتم إيمانه ، بل كان عليه أن يباهر به استادا إلى عصيته فى قومه . فإذا قد كتم إيمانه فذلك دليل على أنه كان كسائر

مشركى قومه يجحد رسالة الإسلام . ولئن كان قد انتصر لابن أخيه محمد ؛  
لقد كان ذلك الانتصار صادرا عن حمية جاهلية استجاب بها نداء العصبية  
القبيلة القرشية .

ونضرب لك مثلا ترى به أن أبا طالب كان عليه أن يكتم إيمانه بالرسالة  
المحمدية ابتغاء مصلحة تلكم الرسالة ، ونزولا على حكم المنطق الفطرى السليم  
الذى امتاز به عباقرة العرب وزعماء القبائل فى الجزيرة العربية ، التى نشأت  
أهلها على استجلاء أغوار النفس من وراء ستر رقيق . ذلك أن إسلام أبى  
طالب لم يكن ليفضّل إسلام عبد الرحمن بن عوف وأمثاله من ذوى العصيات  
القوية فى قريش ، فقد أعلن هؤلاء إسلامهم ولكنهم لم يُغْنُوا عن رسول الله  
شيئا .

فإذا تخيلت هذا المعنى رأيت أن أبا طالب الذى يكتم إيمانه ويدين بدين  
قومه ، هو أنفع لمحمد رسول الله من أبى طالب الذى يجاهر قومه باعتناقه  
الإسلام . وهذا هو الذى دعا بعض الباحثين إلى اعتبار أبى طالب من أهل  
الإيمان بالدعوة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

هنا .. وأما أمه رضى الله عنها فإنها فاطمة بنت أسد بن هاشم بن  
عيد مناف بن قصي ، وهى أول هاشمية وَلدت لهاشمى ، فقد وَلدت له طالبا  
وعقبلا وجعفرًا ثم عليا أصغر الأبناء .

وقد أسلمت رضى الله عنها بعد عشر من المسلمين ، وكان رسول الله  
يكرمها ويعظمها ويدعوها أُمى . وقد أوصت إليه حين حضرتها الوفاة  
فقبل وصيتها وألبسها قميصه كفنا لها وصلى عليها ، ثم نزل معها فى اللحد  
عرفانا ليدها عنده وفضلها عليه حين أواه عمه معها فى بيته ، وما كان  
صلوات الله عليه ليضيع عنده الجميل وهو الذى يقول : ( من صنع  
إليكم معروفًا فكافؤوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ) . وما كان رسول الله

ليأمر بالجميل دون أن يأتمر هو به ، وآية ذلك ما كان يحدث به الثقات من أن قريشا أصابتها — ذات عام — أزمة وقحط ، فدعا رسول الله حمزة والعباس ثم اقترح عليهما أن يحمل معهما ثقل أبي طالب في تلك السنة العجفاء ، ثم مضى ثلاثهم إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم . فرغب إليهم أن يتركوا له عقيلًا ويأخذوا من شاعوا بعد ذلك ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ محمد — صلى الله عليه وسلم — عليا ، فكان علي في حجر رسول الله منذ كان عمره ست سنين ، وكان ما يسدى إليه النبي من إحسانه إليه وشفقته عليه وبره وحسن تربيته ، مكافأة ومعارضة لصنيع أبي طالب حين مات عبد المطلب ، وجعل محمدا في حجر أبي طالب .

وليس يرتاب البصراء بشئون الاجتماع في أن الإمام رضى الله عنه قد جمع الله له بين شرفين لم يجتمعا لأحد سواه في دنيا العروبة ودنيا الإسلام ، فهو بحكم نسبه له في الأمة العربية المجيدة موضع كرم ، ثم هو بحكم نشأته الشريفة في بيت النبوة له حظ في مكارم الأخلاق عظيم . أما ، وقد بلغ بنا تداعى المعانى إلى هذه الغاية من الحديث ، فقد آن لنا أن نتجاوز الإجمال إلى تفصيل يكون معاوننا على توضيح مبهم ، أو تحلية غامض ، أو تكميل ما يحتاج إلى تكميل ، فذلك حق لمن يقرأ لنا لا يسوغ الإغضاء عنه ، ولا يليق المطل فيه .

وأول ما نبدا به من مناقبه كرم الله وجهه ، أن نلفت القارى على منزلته الشريفة في تاريخ الإسلام ، إلى أن فضائله قد بلغت من العظم والجلال وسعة الانتشار ملقا يسمح معه التصدى لحصرها ، فذلك غاية

لا يتغيها بصير بأقدار الرجال ، حريص على أمانة التاريخ .  
وما زالت الإحاطة بمناقب الكبار أمرا يتأنى على رائديه مهما خيل  
إلهم أنه — منهم — على طرف النام .

وشاهد الصديق على صحة هذا المعنى كلمة حق لأديب فيلسوف  
يخطب شريفا من بني العباس ، فيقول له : « لقد رأيتى فيما أتعاطى من  
وصف فضلك كاخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر ، فأيقنت أنى  
حيث انتهى فى القول منسوب إلى المعجز مقصر عن الغاية ، فانصرفت  
عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس  
بك ، علما لا يرق إليه غبار المعارك بين علو حاقده وولى حميم .

فهذه الكلمة — على جمال منابها وجلال معابها — لو كانت لها  
قدرة على أن تختار أحق الناس بها ، لما جاوزت الإمام إلى سواه من تعتز  
بهم الأمم ويشرف بالحدث عنهم التاريخ .

إن أحدا من أهل العلم لا يجهل منزلة الإمام فى كل ما تقتضيه  
الإمامة من معرفة واسعة وعلم غزير ، فهو رأس الفضائل  
وينوعها وسابق مضملاها ، فكل من نبغ فى علم أو معرفة فمنه  
أخذ وله اقتضى وعلى مثاله احتذى . وقد عرفت أن العلم الإلهى  
هو أشرف العلوم ، والذين تحدثوا فى هذا العلم حديث الأئمة إنما أخذوا  
عنه وانتهوا إليه . ومن شاء تفصيلا لهذا الإجمال ، فإن الأشاعرة من  
أهل السنة يهتمون إلى أنى الحسن على بن أنى بشر الأشعرى الذى هو  
تلميذ لأنى على الجبائى ، فإن أنت جاوزت علم الكلام القائم على النظر  
والاستدلال إلى علم الفقه القائم على سلوك المسلم فى العبادات

والمعاملات ، فإنك ستري الإمام كرم الله وجهه أصل هذا العلم وأساسه ، فكل فقيه في الإسلام مستفيد منه وعيال عليه . فأما أصحاب أبي حنيفة محمد وأبو يوسف فقد أخذوا عن أبي حنيفة ، والشافعي قرأ على محمد بن الحسن ففقهه راجع إلى أبي حنيفة ، والإمام أحمد بن حنبل قرأ على الشافعي راجع أيضا إلى أبي حنيفة ، ثم إن أبا حنيفة نفسه قرأ على جعفر الصادق ، وقرأ جعفر على أبيه محمد الباقر ، وقرأ الباقر على عليّ زين العابدين وهو ابن الحسين ، والحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين . ومالك بن أنس إمام المدينة المنورة قرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس ، وقرأ ابن عباس على الإمام علي . فالإمام رضي الله عنه شيخ الفقه السني : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، ثم هو أيضا شيخ فقهاء الشيعة .

وليس يخفى عليك أن ثمة رجالا أعظم منزلة وأرفع قدرا من هؤلاء الأئمة ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد كانوا يرجعون إلى الإمام رضي الله عنه يأخذون برأيه ، ثقة به واطمئنانا إلى علمه الذي أكرمه الله به في الإمام بشعون الدنيا وشعون الدين .

وليس يغيب عن البصراء بالتشريع الإسلامي ما يرويه الإمام ابن القيم عن مسروق من قوله : « شامت أصحاب محمد — ﷺ — فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة : عليّ ، عبد الله ، عمر ، زيد بن ثابت ، أبي الدرداء ، أبي بن كعب ، ثم شامت هؤلاء الستة فوجدت علمهم ينتهي إلى عليّ » .

وقد كان عمر يرجع إلى الإمام في كثير من المسائل التي تشكل عليه وعلى غيره من الصحابة ، حتى كان يقول : « لولا عليّ لهلك عمر » ..

ثم يقول : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو حسن . وقد نهى رضى الله عنه أن يفتى أحد في المسجد وعلى حاضر .

وبالتأمل في هذه المعاني يعرف أهل الإنصاف أن الفقه قد انتهى إليه ، حتى لقد كان يروى العامة والخاصة قول رسول الله ﷺ — : ( أقضاكم على ) . ومعروف أن القضاء هو الفقه ، فعلى إذن أفقههم أجمعين .. ولما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً دعا له : ( اللهم اهد قلبه وثبت لسانه ) . يقول الإمام كرم الله وجهه : إننى بعد هذه الدعوة من رسول الله ما شككت في قضاء بين اثنين قط .

وقبل أن نلج بك باب التفصيلات التشريعية ، نذكر لك ما قرره الثقات من أن أصحاب رسول الله ﷺ — كانوا أمام النص القرآنى طائفتين : طائفة تستصحب المصلحة مع النص ، وطائفة أخرى تنقيد بالنص ما امتهدت إليه سبيل .

وليس يخفى عليك اجتهاد أمير المؤمنين عمر في عام الرمادة ، فقد رأى رضى الله عنه أن يعفى السارق من قطع يده نظراً منه إلى أن في المجاعة التي تهدد كيان الأمة العربية كلها ما يسوغ له وقف العمل بالنص في الآية الشريفة : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وكذلك كان يرى منع أبى سفيان وسائر المؤلفات قلوبهم سهمهم الذى جعله الله لهم في الآية الشريفة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .. ولم يسع أبى بكر — رضى الله

عنه — إلا أن يكتب لهم بسهمهم ثم دفع بالكتاب إليهم وقد وجهه إلى عمر .  
فلما قرأ عمر الكتاب رمى به في وجه أبي سفيان وأصحابه قائلا لهم :  
« إنما كان ذلك في التأناة أول الإسلام قيل أن يقوى ويعز ، فأما الآن فإن  
قبلتم الإسلام وإلا فالسيف بيننا وبينكم » .

ولم يَسْخُ القوم أن يواجهوا عمر في هذا الموقف العصيب ، فتركوه إلى  
أبي بكر يشكونه إليه . وقد كان أبو بكر ممن يأخذون بالنص شأنه في ذلك  
شأن الإمام — كرم الله وجهه . فلما قابلهم أبو بكر قالوا له : « ما ندرى  
أيكما الخليفة أنت أم عمر ؟ .. فقال أبو بكر كلمته التي يرويها التاريخ  
خاشعا أمام الكبار من رجال الإسلام : « تسألون أينما الخليفة أنا أم عمر ؟  
ألا فاعلموا أن الخليفة عمر إن شاء » .

واليك صورة أخرى تستصح المصلحة في مقام التشريع ، خلاصتها  
أن الإمام له أن يقطع بعض الرعية من أرض بيت المال أرضا ذات خراج ، ثم  
يسقط الخراج عنهم بقطعهم على أن يجعل عليهم ضريبة يسيرة عوضا عن  
الخراج . وقد أخذ بهذا النظام كل من عمر وعثمان — رضى الله  
عنهما — فأقطع كل منهما من شاء ممن يعيشون في دولة الإسلام ، غير أن  
ثمة فرقا بين الذين أقطعهم عمر والذين أقطعهم عثمان . ذلك أن الذين  
أقطعهم عمر كانوا أهل غناء في الحرب وآثار مشهودة في الجهاد . وأما  
الذين أقطعهم عثمان فقد كانوا من ذوى قرباه وأهل مودته .. وهنا كان  
للإمام — كرم الله وجهه — موقف ذكره العلامة ابن أبي الحديد حيث  
قال : « إن الإمام خطب في اليوم التالي لبعثه بالمدينة فقال : « ألا إن كل  
قطعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فإنه مردود في بيت المال .  
ولو أنى وحدته قد تزوج به النساء وعرق في البلدان لرددته إلى حاله فإن الحق  
القديم لا يظلمه شيء وفي العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه



أضيق . ثم أمر بعد ذلك برد كل ما وجد في دار عثمان من مال وصلاح وإبل ، وكذلك أمر بأن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيشما وجدت ، ولكنه خشي أن تتحكم في القوم نزوة الانتقام فأمر بالكف عن جميع أموال عثمان التي وجدت في داره وغير داره ، شأن الكبار الذين يحرصون على الحق أن يشوبه الباطل فيوهن سلطانه ، ويترك الناس حيارى تصرفهم الأهواء وتحجبهم عن الحقائق الشبهات .

ومعروف عند أهل العلم أن أحكام الإمام وفتاويه انتشرت انتشارا واسعا ، يد أن الذين تشيعوا له — رضى الله عنه — أفسدوا كثيرا من علمه وتقولوا عليه ما لم يقل ولذلك انصرف أصحاب الحديث عن الثقة بكل ما ينقل عنه ، فهم لا يعتمدون من حديثه وفتاويه إلا ما كان من طريق أهل بيته أو من أصحاب عبد الله بن مسعود . وقد كان — كرم الله وجهه — يشكو عدم حملة العلم فيقول : « إن ها هنا لعلماء لو أصبت له حملة » .. ولعل من أبرر مزاياه — رضى الله عنه — أنه كان حريصا على معرفة أقدار الناس وإنزالهم منازلهم اللائقة بهم ، على ما تشهد لذلك فتواه في شأن بنات كسرى الثلاث اللاتي جىءن بهن أسيرات إلى المدينة المنورة في خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنهما فأمر بأن تعامل بنات كسرى معاملة أمثالهن في مثل هذه الحال . غير أن الإمام — كرم الله وجهه — توجه بالحديث إلى أمير المؤمنين يقول له : « إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة » .. فسأله عمر كيف الطريق إذن يا أبا الحسن ؟ .. فأجابته : « يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن » .. ولم يجد عمر بدا من الأخذ بهذا الرأي الحصيف ، فأخذهن على بقيمتهن ثم زوجهن أكفأهن من أبناء أمراء المؤمنين ، فزوج إحداهن محمد ابن أبي

بكر ، وزوج الثانية عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزوج الثالثة ولده الحسين .. وكان له منها ولده زين العابدين .

ولن يعقل غير معقول من يرى أن غلاة الشيعة من أهل فارس إنما حملهم على العلو في حب علي وفي بغض عمر ، هذا الموقف الذي يشتمل على تكريم بنات آخر أباطرة إيران .

وما زالت الشعوب الوفية لأمجادها ترى في تكريم ملوكها وأمرائها ورؤسائها تكريما لتاريخها كله .

---

## على وعلم الكلام

أسلفنا لك — حفظك الله — أن الإمام عليا تكاد تعترى إليه كل فرقة من فرق المسلمين وتتجاذبه كل طوائفهم ، فهو — كرم الله وجهه — إمام كل إمام في مختلف معارف أهل الإسلام ، سواء في ذلك ما يتصل بالعلم الإلهي — علم التوحيد — وما يتصل بعلوم الشريعة .

وقد وعدناك أن نفصل لك ما أجمعنا على أن نلتزم في ذلك ما يسانده برهان مما يرتضيه أسلافنا الصالحون ، والله ولي التوفيق .

إنه مما ينبغي التنبيه له والتنبيه إليه ، أن لأهل العلم أعرافا تختلف باختلاف علومهم ومعارفهم . فالكلمة « دابة » مثلا تدل — عند الإطلاق — على كل ما يدب على وجه الأرض من إنسان وحيوان ، غير أن العرف جعل هذه الكلمة خاصة بذوات الأربع . فغير سائغ أن تطلق على مخاطبة الإنسان جنسه مما يفيدهم فائدة يحس بالمتكلم أن يسكت عليها ولا يتطلع السامع إلى أكثر منها . فكل علم يؤدي إلى هذه الغاية فهو من علوم الكلام ، سواء في ذلك علم النحو ، وعلم اللغة ، وعلم البيان ، وعلم المعاني ، وعلم البديع . فكل علم من هذه العلوم يمكن أن يسمى علم الكلام لأنه يعين المتكلم على أن يبلغ غايته من إفادة السامع فائدة لا يتطلع إلى أكثر منها .

ولكن أهل النظر من الفلاسفة خصصوا علم الكلام بعلم التوحيد ، بحيث لو أطلق المتكلم هذه الكلمة لم يفهم أهل هذا العرف منها إلا علم التوحيد .

ولك بعد ذلك أن تسأل عن منزلة الإمام بين علماء الكلام ، أعى علماء التوحيد وتنزيه الباري سبحانه عما لا يليق بذاته العلية ؟ .. وجواب سؤالك

هذا أن بعض الذين كتبوا عن الإمام — كرم الله وجهه — يزعمون أن علم الكلام أو علم التوحيد إنما نقل عنه وإليه انتهى ، ومنه ابتداء .. ذلك أن المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر إنما هم تلاميذ على — كرم الله وجهه . لأن كبيرهم وأصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم هذا هو تلميذ أبيه محمد ، وأبوه تلميذ الإمام — كرم الله وجهه — فهو أصل المعتزلة .

وأما الأشعرية فإنك تعلم أنهم ينتمون إلى أبي الحسن على بن أبي بشر الأشعري ، وأبو بشر تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي هو أحد مشايخ المعتزلة ، فالأشعرية ينتمون إلى أستاذ المعتزلة وهو علي كرم الله وجهه .

ولعلك سائل بعد ذلك عن السبب الذي حمل أولئك الكاتبيين على اعتبار الإمام أستاذا لأهل الاعتزال . فإليك إجمال ما يقال في هذا المجال من أن المعتزلة يدهون إلى نفي صفات المعاني القديمة التي يثبتها الأشاعرة ، بقولهم إن لله تعالى صفات كثيرة تبتدىء بالصفة الذاتية وهي أنه تعالى واجب الوجود ، ثم تخرج بعد ذلك في المرتبة الثالثة صفات المعاني ، وهي صفات وجودية قديمة قائمة بذاته تقدست أسماؤه وحل ثناؤه .

وصفات المعاني هذه يثبتها الأشعرية لذات البارئ تعالى في الوقت الذي يفهمه أهل الاعتزال ، وحتهم في ذلك كلمة للإمام رواها عنه الشريف الرضي وفيها يقول الإمام — كرم الله وجهه : « أول الدين معرفة الله تعالى وكمال معرفته التصديق به . وكمال التصديق به توحيده . وكمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفي الصعات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد شابه ، ومن شابه فقد حراه ، ومن جزأه فقد جهله .

وبهذه الكلمة التى نسبها الشريف إلى الإمام تجتمع للناظر قضيتان كلاميتان خطيرتان كلتاهما تحتاج إلى وقفة تنقيا — فى حدود الإمكان — لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وعلى الله قصد السبيل :  
وأولى القضيتين نسبة الإمام إلى المعتزلة على أنه رأسهم ومعلمهم .  
وثانيتها نسبته إلى القول بنفى صفات المعانى عن ذاته العلية كما هو مذهب أهل التعطيل .

فأما نسبته إلى المعتزلة على أنه رأسهم ومعلمهم ، فذلك لغو من القول لا يسلك سبيله إلا ولئى جاهل أو عدو أحق ، وإلا فإن عليا — ربيب محمد وخريج بيت النبوة — لا يقع فى وهم عاقل أن يكون من أولئك الذين انحرف بهم الهوى عن سواء السبيل ، فاستحق بذلك فى زعم الزاعمين أن يكون من أهل الاعتزال أو شيئا من شيوعهم ومعلما من معلمهم .

وأما نسبته إلى أهل التعطيل الذين ينفون صفات المعانى عن الذات العلية ، فإنها نسبة أشد إغالا فى باب الجهالة وأبين عتوا فى معنى الضلالة ، ومهما حاول أصحاب هذا الزعم أن يحتجوا له بالكلمة التى رواها الشريف عن الإمام فإنها حجة داحضة ، لظهور أثر الصنعة فيها ظهورا يسيرا ما كان قد نشأ فى دولة بنى العباس من ثقافة اليونان وطرائق تفكيرهم إبان حياة الشريف الرضى غفر الله له ، وإلا فإن مسلما صحيح العقيدة لا ينفى عن الله ما وصف سبحانه به نفسه ، وما وصفه به أعرف الخلق بالله وأنصحهم للأمة محمد رسول الله وفيض رحمته للعالمين .

هذا وليس يخفى على البصراء بشئون الاجتماع فى عصر بنى العباس ، أن من أهل العلم من كان يؤلف الكلام يطلب به رفعة الجاه ونعمة الثراء عند الخلفاء والولاة وأعيان الدولة ، على نحو ما صنع أبو حيان فى اختلاقه

رسالة طويلة زعم أن أمير المؤمنين عمر حملها أبا عبيدة لتبليغها إلى الإمام على ، وفيها من دلائل الصنعة والتوغل في صوع الكلام ما يشهد بأنها صنعة أبي حيان في كتابه « المقايسات » . بل لقد وضع الواضعون أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ كما جاء ذلك في حديث رواه الراوى لأمر المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله ، وقد جاء في هذا الحديث أنه لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح . ويبان ذلك أن رسول الله ﷺ أباح للمسلم أن يسابق غيره من أصحاب الإبل ، أو من أصحاب الخيل على جعل معلوم محدد يظفر به من سبق . فلما ضعف الوازع الإسلامى فى النفوس لعب القوم بالحمام ، وكره بعض أهل العلم هذا اللون من السباق ، غير أن أحد المعروفين برواية الحديث أفتى بأنه لا بأس بالمسابقة بالحمام ، ثم أورد الحديث الذى جاء فى الخف والحافر فزاد فيه كلمة الجناح فأصبح الحديث يشتمل على هذه الصور الثلاث : صورة الاستيلاء على السبق من طريق المسابقة بالإبل أو طريق المسابقة بالخيل أو من طريق اللعب بالحمام . وفى هذا الباب يقول المؤرخون لهذا العصر إن أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر يذبح الحمام ، لأنه كذب به على رسول الله ﷺ .

وليس يخفى على المتأمل البصير أن الذين يكذبون على رسول الله ويختلقون عليه أحاديث لم يقلها ، ويختلقون خطبا على ألسنة الخلفاء الراشدين ، لا يصعب عليهم أن يختلقوا خطبة على لسان الإمام على ينتصرون بها لمذاهبهم ، ابتغاء الظفر برفعة الحاء والاستمتاع بنعمة الشراء . ولنا نكتمك حفظك الله أن قد وازنا بين أمرين : أحدهما أن نأخذ بالمذهب القائل إن عليا هو رأس المعتزلة ومعلمهم . وثانيهما أن نؤثر على هذا المذهب مذهبا ألقى بنشأة الإمام فى حضانة بيت النبوة بوجهه إلى ضراط الله المستقيم فى العقائد والعبادات والمعاملات .

غير أن الكلمة التي رواها الشريف الرضى عن الإمام تنتظم عبارات تدل صراحة على مذهب الاعتزال وهى — فى الوقت نفسه — أشبه بكلامه كرم الله وجهه من حيث جودة الصوغ ودقة النسيج وفحولة الأسلوب . وأنت إذا وضعت هذه الأمور موضع الاعتبار ، فإنك لا تجد بدا من أحد أمرين تأخذ بحكمه وتنزل على مقتضاه : فإما أن تزعم مع الزاعمين أنه — رضى الله عنه — رأس المعتزلة كما تشير إلى ذلك تلك الكلمة المروية عنه ، وإما أن تنأى به عن هذا الزعم عرفانا بقدره ورعاية لشرف نشأته .

وفى هذا الحال لا ندحة لك عن اليقين بأن الخطبة المروية عنه محتلفة من لدن فقيه بروح العصر ، بصير بحر الكلام .. فهذا هو ما نؤمن به وندين الله تعالى عليه ، فإن كنا قد أصبنا فى ذلك فالحمد لله ، وإن كنا قد أخطأنا فلنسا أول من أخطأ الطريق إلى الصواب ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

## على فوق شبهات المعتزلة

لا ريب في أن الفلسفة اليونانية كان لها أبلغ الأثر في الفكر العربي ، بعد أن اتسعت مجالات الفتوح الإسلامية ووجد العرب أنفسهم في بحر متلاطم .  
الأمواح من مختلف الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمصرية . وقد أخذ علماء العرب — فيما أخذوا عن ثقافات المغلوبين جانباً من فلسفة العدم الإلهي ، الذي كان يتمثل في مذهب أهل الاعتزال خفي المعالم مختلط الأعلام ياقض أشد المواقضة السماحة والبساطة التي أسبغها التراث الإسلامي على العقيدة الإسلامية فيما وراء المادة ، من شتى العوالم التي لا وسيلة إلى الإلزام بها إلا من طريق علوم القرآن الكريم .

وقد كان من أوضح ذلك وأيسره سيلاً مذهب أهل الاعتزال في ضوره الأخير ، فقد كان هذا المذهب ينتظم جانبيين حقيقيين لا يسع المعتزلي أن يتعاضى عنهما كليهما إذا أراد أن يكون مشاراً إليه في الفن من فون أهل الكلام .

وأخذ الجانبيين يتعلق بفلسفة السلوك الإنساني في الحياة الدنيا من حيث كان الإنسان مسؤولاً عن عمله لأنه مختار في الحصول عليه وسلوك الطريق إليه ، غير معلوب عيه إذا لم يردده ولا محجوز عه حين يريد . ومن هذا الجانب يطلق أهل العلم على المعتزلة أنهم أهل العدل ، لأن الإنسان في رأيهم ومذهبهم قادر على أن يخلق أفعاله الاختيارية بقدرة أودعها الله تعالى فيه . وما دام هو الخالق لأفعال نفسه مختاراً غير مكره فإن من **أعدل العدل** أن يكون مستحقاً لنواب إذا أحسن ، وللعقاب إذا أساء .



وأما الجانب الثانى فإنه يتعلق بفلسفة العلم الإلهى من حيث كان الله جل ثناؤه أزليا لا أول لوجوده ، أبديا لا نهاية لبقائه ، ومن حيث كان قديما لا يشاركه فى صفته هذه سواء . ومن هذا الجانب تكون صفته اللاتفة بجلاله أنه هو الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

والذين يتأملون فى هذين الجانبين القائم عليهما مذهب المعتزلة .. الجانب السلوكى والجانب الإلهى ، لا جرم أنهم لا ينكرون على الإمام كرم الله وجهه أن يكون إماما لأهل الاعتزال فى جانب السلوك الإنسانى فى دنيا الناس ، من حيث كان هذا الجانب قائما على تحرى العدل . والإمام كرم الله وجهه سيد من سادات أهل العدل الذين يعتزون به أكرم الاعتزاز ، ويحرضون عليه أشد التحريض .

وأما الذين يتأملون فى الجانب الإلهى تأمل البصراء بأقدار الرجال وما يلقى بهم وما لا يلقى ، فإنهم ينكرون أشد الإنكار أن يكون الإمام كرم الله وجهه ممن يسبغ هذا لعامة الناس ، فضلا عن أن يكون هو نفسه إماما له أو معلما من معلميه .

ومهما حاول قصار النظر أن يدنوا كلمات للإمام تشير إلى إمامته لهذا المذهب ، فإن ذلك — فى مبلغ العلم — إما مفترى عليه انتصارا لمذهب فاسد ، أو تأييدا لبهتان خبيث .

وربما ذكر لك بعض أدعياء العلم كلمة منسوبة إلى الإمام تتضمن نفى الصفات عن ذاته العلية ، زاعمة أنه — سبحانه — قادر بذاته ، مريد بذاته ، سميع بذاته ، فليس له إرادة زائدة عن الذات ، وليس له صفة من صفات الكمال زائدة على ذاته العلية جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه .

واليك — رحمك الله — هذه الكلمات التي قد يستخدمها المفرضون للتدليل على أن الإمام كرم الله وجهه إمام لأهل الاعتزال ، فذلك قوله — كرم الله وجهه — حسب رواية الرضى غفر الله له : « إن كمال التصديق بالله تعالى توحيده والإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفس الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الحق فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله » . راجع ما ذكره الرضى . ونتهز بك هذه السانحة لنروى لك ما ذكره أئمة علماء التوحيد مما يبطل رأى المعتزلة في هذا الجانب الذى لا يليق بالمؤمن الحق أن ينسب إلى رب العالمين .

قال الإمام الحجة أبو جعفر الأزدى : إن الله تعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال .. صفات الذات ، وصفات الفعل . ولا يجوز للمسلم أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته صفات كمال ، وفقد هذه الصفات صفة نقص فلا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بصفة .

ولقد كان أئمة السنة لا يطلقون على صفات الله أنها غيره ولا أنها ليست غيره .

وقد يقول قائل : إن الصفة لا عين الموصوف ولا غير الموصوف . وهذا القول له معنى صحيح وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التى يفرضها الذهن وليست غير الموصوف ، بل الموصوف بصفاته شيء واحد .

فإذا قلت : أعود بالله . فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال الثابتة التى لا تقل الانفصال بوجه من الوجوه .

وإذا قلت : أعوذ بعزة الله . فقد عدت بصفة من صفاته تعالى . وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات ، فإن كلمة ذات فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة بمعنى أنها ذات وجود أو ذات قدرة أو ذات عزة أو ذات علم أو ذات كرم .. إلى غير ذلك من الصفات . هذا هو الأصل لمعنى الكلمة « ذات » فالذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وإن كان الذهن قد يفترض ذاتا مجردة عن الصفات ، كما يفترض المحال . وقد قال رسول الله ﷺ : ( أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر ) . وكذلك قال ﷺ : ( أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ) . وربما سمعت من يقول : الاسم عين المسمى أو الاسم غير المسمى . فاعلم — رحمك الله — أن الناس طالما غلطوا فى ذلك وجهلوا الصواب فيه . فالاسم قد يراد به المسمى وقد يراد به اللفظ الدال عليه ، فإذا قلت : سمع الله لحن حمده ، فإن المراد هنا المسمى نفسه . وإذا قلت : الرحمان اسم عربى ، فإن المراد هنا اللفظ وليس المراد مسمى هذا اللفظ . وليس يسوغ لك أن تقول الاسم غير المسمى ، لأن فى لفظ « غير » احتمالا . فإن أردت بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فذلك حق ، وإذا أردت أن الله سبحانه كان وليس له اسم حتى خلق لنفسه أسماء أو سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الصلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى . وليس يحفى عليك أن الله تعالى قد وصف نفسه بأن له المثل الأعلى حيث قال : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

فقد جعل سبحانه وتعالى مثل السوء المتضمن للعيوب والقائض لأعدائه  
المشركين وأوثانهم ، ثم أخبر أن المثل الأعلى المتضمن بثبوت الكمال كله  
لله وحده ، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ،  
ونفى عنه ما وصف به نفسه وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية  
والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها  
أعلى من غيره .

ولما كانت صفات الله سبحانه أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى ، وكان  
هو أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق  
اثنان . لأبهما إن تكافأ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن  
لم يتكافأ فالموصوف به أحدهما وحده ، ويستحيل أن يكون لمن له المثل  
الأعلى مثل أو نظير .

ومن أحق ما يقال في معنى المثل الأعلى أنه جماع صفات الكمالات ،  
فكل ما كان كما لا فهو لله تعالى صفة ، وكل ما أشعر بالنقص فالحق تبارك  
منزه عنه .

## على والعناية بالقرآن

القرآن دستور الإسلام ومرجع المسلم في شئون الدنيا والآخرة ، فالعناية به حق من حقوق الفطرة السوية ، ومطلب من مطالب الإسلام الحنيف .  
وليس يخفى أن العناية بالقرآن ذات وسائل شتى وطرق مختلفة . فمن هذه الوسائل الترغيب في حفظه عن طريق إنشاء مكاتب للصيفية بالقرى ومدارس لهم في المدائن ، مع بذل المعونات التي تستحث الهمم على استظهاره وتجويده على نحو ما صنع ويصنع أهل الغنى واليسار في كل زمان ومكان ، فيحسبون بعض أموالهم على إنشاء مكاتب أو مدارس لتحفيظ القرآن الكريم نزولاً على مقتضى الحديث النبوي الشريف : ( إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ) .

وغير حفى على أهل العلم بشئون الإسلام والمسلمين أن العمل على تحفيظ أبناء الأمة وبناتها القرآن أو بعضه ، إنما هو سبب من أسباب بقاء القرآن محفوظاً في الصدور إلى جانب حفظه في السطور ، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> . ووجه الإشارة في الآية الكريمة أن الله تعالى وضع للكون العظيم سناً يقوم عليها نظامه ، ومن تلك السنن ارتباط الأسباب بالمسببات واستناد النتائج إلى المقدمات . فإذا أراد الله تعالى أمراً هياً أسبابه ، وقد وعد سبحانه بحفظ القرآن من التغير والتبدل ، وذلك عن طريق تمهيد السبل إلى استظهار القرآن وتجويده على ألسنة أبناء الإسلام وبناته صغارهم وكبارهم .

ومن وسائل العناية بالقرآن الحرص على اللغة العربية الفصحى التى هى لغة القرآن ، ميراثا للأخلاف الصالحين عن الأسلاف الموثوقين .. ذلك أن غياب هذه اللغة وامتداد السبل إلى التيل منها والغض من قدرها ، لا جرم أنه يفضى بالأمة الإسلامية إلى الجهل بالكتاب العزيز ثم إلى معاداته ، جريا على الحكمة القائلة : « مَنْ جَهَلَ شَيْئًا ، عَادَاهُ » .

ولقد كان القرآن الكريم موضع العناية البالغة من الإمام على — كرم الله وجهه — وهذه العناية تتجلى فى صورتين :

إحدهما ، أنه كان يحفظه حفظا يكاد يهتف برائديه فى كل ما روى عنه الشريف الرضى من الخطب والوصايا فى كتاب نهج البلاغة .. وذلك أن كلامه — كرم الله وجهه — تحمهم أشد التحمهم التمعرف والكلام الوحشى واللفظ الغريب المستكره .. وخير الكلام ما مضى على هذا السنن الشريف الذى التزمه الإمام فى كل ما روى عنه من كلام .. ولست تشك فى أن سبب ذلك يرجع إلى حفظ الإمام للقرآن العظيم ، وتأثره به ونسجه على مواله القائم على أن القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة ، وأن من تأمله تأملا شافيا رأى الفصاحة فيه تنتظم البعد عن التقرع والتعقيد ، والكلام الوحشى الغريب . كذلك يجسد المتأمل كلام الإمام ، إذ كان كلامه — كرم الله وجهه — مستقى من ألفاظ القرآن ، ومقتضبا من معانيه ومذاهبه ، ومحذوا به حذوه ، ومسلوكا به منهاجه ، حتى إنك لتستطيع أن تذكر للناس أنه ليس بعد القرآن كلام أفصح منه ولا أحزل ، ولا أعلى ولا أهدم ولا أنبل ، إلا أن يكون كلام ابن عمه عليه السلام . فهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبت له قدم راسخة فى علم هذه الصاعقة ، وليس كل الناس يصلح لنقد الحوهر ، فإن لكل صاعقة أهلا ، ولكل عمل رجال لا يمارى فى ذلك من يحترم الحق ويؤثر العدل والإنصاف .

هذا .. وأما الصورة الثانية لعناية الإمام بالقرآن فحلاصة القول فيها : أنه أول من جمع القرآن ، وأنه إنما تأخر عن يعة أبي بكر لاشتغاله بجمع القرآن خلافا لما تقوله الشيعة من أنه إنما تأخر عن يعة أبي بكر من أجل أنه كان غير راض عن يعته .

فهذان الأمران : حفظه القرآن على النحو الذى تأثر به فى كتبه وخطبه ووصاياه ، ثم اشتغاله بجمعه بعد وفاة رسول الله ﷺ ، هما من أجل مظاهر عاينته بالقرآن رضى الله عنه وأرضاه ، وربما انضم إلى هذين الأمرين أمر ثالث يتحدث عنه كتب القراءات ، إذ تذكر أن أئمة القراء جميعا يرجعون إلى على ، كأبى عمرو بن العلاء وعاصم بن أبى الجود وغيرهما ، فهم يرجعون إلى أبى عبد الرحمن السلمى القارئ ، وأبو عبد الرحمن هذا كان تلميذا للإمام وعنه أخذ القرآن . فقد صار هذا الفن أيضا من الفنون التى تنتهى إلى الإمام كما انتهت إليه — كرم الله وجهه — موضوعات علم الكلام وموضوعات علم الفقه ، وكما انتهت إليه وضع علم النحو فى الكلمات التى قالها لأبى الأسود الدؤلى . ولئن كان رضى الله عنه قد عنى بالقرآن على هذه الصورة ، لقد كان فضله فى ذلك لا يدانيه فيه أحد من أهل الإسلام .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

## على وعلم الفقه

درج المؤلفون على أن يقدموا في تأليفاتهم ما يتصل بالعقيدة ، ثم يتعوه ما يكون مظهرا للعقائد من العبادات والمعاملات وأدب السلوك بوجه عام . ومبلغ علمي أنهم — في هذا الصنيع — ينهجون نهج القرآن العظيم .. ذلك أن الدعوة المحمدية بدأت أولى خطواتها في مكة بتصحيح العقيدة ونفى الشوائب عنها كما تشير إلى ذلك الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) . فلما بدأ طور الدولة بالهجرة إلى المدينة المنورة ، بدأ التزليل المدني خطواته إلى تنظيم المجتمع الجديد تنظيمًا أحاطه بكل ما يوفر له الأمن والسلام .. وكان من أول ما نزل من القرآن سورة البقرة وما إليها مما لا يستعصى عه مجتمع يتطوع إلى الإصلاح .

وقد أثر لهذا الكتاب أن يلتزم هذه الطريقة الشريفة في الكتابة عن الإمام على — كرم الله وجهه — فبدأنا الحديث عنه بعلم الكلام وما يتعلق به مما يتصل بشأن العقيدة . وها نحن أولاء نذكر في هذا الفصل صلة الإمام بالفقه المذهبي ومبلغ تأثير الأئمة به وأخذهم عه ، فقول وبالله التوفيق :

إن عليا — كرم الله وجهه — يرجع إليه فقه الأئمة الأربعة مالمث والشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة ، كما يرجع إليه فقه الشيعة وفقه الصحابة رضي الله عنهم .

فأما مالمث فقد أخذ عن ربيعة الرأي ، وأخذ ربيعة عن عكرمة ، وأخذ عكرمة



عن ابن عباس ، وأخذ ابن عباس عن الإمام على رضى الله عنه وأرضاه .  
وأما الشافعى فقد أخذ عن مالك إمام المدينة المنورة ، وعن الشافعى أخذ  
ابن حنبل ، ثم لم يقف عطاء مالك عند العلم بل تجاوزوه إلى الجود بالمال ،  
فقد رأى الشافعى خيلا على باب مالك استأثرت بإعجابه ، فلما رأى مالك  
أن الشافعى أعجبه الخيل أعطاه إياها لم يمك منها شيئا .. ولم يجد  
الشافعى مندوحة عن سؤال مالك : ماذا أبقيت لنفسك ؟ فأجابه بالكلمة  
الشريفة التى يعنولها وجه التاريخ : « إننى أستحي أن أركب دابة تغطأ ترابا  
ثوى فيه جسد رسول الله ﷺ » .

هذا .. وأما أبو حنيفة وصاحبه أبو يوسف ومحمد فقد أخذوا عن جعفر  
الصادق ، وأخذ جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر ، وأخذ الباقر عن على  
زين العابدين الذى ينتهى علمه إلى الإمام على رضى الله عنهم أجمعين .  
ومما ينبغى التنبيه له والتنبيه إليه ، أن المراد بالفقه ما ينتظم الأحكام  
الخمسة من الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة .  
وقد يتناول النظر فى الفقه مدارك الأحكام الفقية .. من الكتاب والسنة  
والاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسله ، واعتبار شرع من  
قبلنا شرعا لنا .

ومن الحق علينا لمن يقرأ لنا أن نقف به وقفة حيال القياس . فإن فى  
كلمات الإمام ما يشير إلى أنه — كرم الله وجهه — لم يكن يرتضى  
القياس ، فذلك حيث روى عنه قوله — كرم الله وجهه — : « ترد على  
أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية  
بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى  
استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا ، وإلهمم واحد ، ودينهم واحد ،  
وكتابهم واحد . فأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ؟ .. أم نهاهم عنه

فقصوه ؟ .. أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ؟ .. أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟ .. أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه ؟ .. والله سبحانه يقول : ﴿ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول : ﴿ فِيهِ بَيِّنَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فهذه الكلمات — كما ذكر شارح النهج — تتعلق بها نفاة القياس ، وفي ذلك من المخرج والتناقض ما لا يحفى على البصراء بمذاهب الأئمة فيه اعتبارهم القياس باباً من أبواب الاجتهاد . وكيف يحترق ذو علم ودين على نسبة هذا الرأي إلى الإمام — كرم الله وجهه — وهو البصير بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ؛ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ <sup>(٣)</sup> .. فقد اشتملت هذه الآية الشريفة على اعتبار القياس اعتباراً لا يحفى على بصير بحر الكلام ، ذلك أن على الأمة أن ترجع في شئى أمور الدين إلى قول الله أو إلى قول رسوله . فإن هي لم تتبين جلاء الأمر فتنازعت ، فإن الفصيل هنا أن ترد الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، والرد إلى الله ورسوله له صورتان : إحداهما أن يكون الرد إلى قول الله ورسوله ، وثانيتهما أن يكون الرد إلى الاجتهاد بالقياس على ما أمر به الله أو نهى عنه . وغير خفى على الناظر البصير أن الرد إلى قول الله ورسوله يفضى إلى التكرار من حيث كانت الآية قد أمرت بطاعة الله وطاعة الرسول . والخلاص من التكرار مائل في رجوع

(٣) النساء ٥٨

(٢)

(١) الأنعام ٣٨

المتنازعين إلى القياس الذى هو بابٌ من أبواب الاجتهاد .  
وليس يستبعد الغيارى على الإمام فى فضله وعلمه ، أن تكون تلك  
الكلمات التى رواها الرضى مفتراة عليه — كرم الله وجهه — ، وإلا فإن  
القول بنفى القياس فى الأحكام الشرعية قول لا تسانده حجة ولا بصره  
دليل . ويؤيد هذا الاستبعاد أن القياس طريق إلى العلم ، والله تعالى يقول :  
﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى  
أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ  
لَاجْتَبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) . ففى هذه الآية يأمر الله أهل الإيمان بأن  
يردوا ما أشكل عليهم إلى الرسول ، فإن لم يكن موجوداً فإلى أولى الأمر من  
العلماء وأهل الاستبطاء . وأول باب فى الاستبطاء هو القياس ، وقد أرشد  
القرآن الكريم إلى القياس أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا  
أَنْهُمْ مَبْعُوثُونَ خِصْصًا مِنَ اللَّهِ فَأَنَاتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي  
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى  
الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

ففى هذه الآية أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يلتزموا جانب العبرة  
والعظة ناشتتين عن قياس الشيء بالشيء .

وأصرح من ذلك وأوضح قول الله جل ثناؤه : ﴿ أَفَأَنْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۚ أَأَنْتُمْ  
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۚ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۚ  
عَلَى أَنْ تَقُولَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُبْعُوثُونَ ۚ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى  
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) . فهذه الآية من سورة الواقعة قد وقع فيها الاحتجاج

على الكفار فى إنكارهم البعث .

وكما وقع القياس فى الكتاب العزيز وقع فى السنة الشريفة ، إذ جاء فى الحديث الصحيح أن رجلاً أتى إلى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله لقد ولد لى غلام أسود فأنكرته . فقال له ﷺ : ( هل لك من إبل ) . قال الرجل : نعم . قال النبى : ( ما ألوانها ؟ ) قال الرجل : إنها حمراء . قال النبى : ( هل فيها من أورك ؟ ) قال الرجل : نعم . قال النبى : ( فأنتى ذلك ؟ ) قال الرجل : لعله نزع عرق . فقال رسول الله — ﷺ — : ( ففعل ابنك هذا نزع عرق ) . ففى هذا الحديث إرشاد للرجل إلى أن يقيس مخالفة لون ولده له على مخالفة لون ولد الجمل لوالده .

وفى هذا الباب يقول حجة الإسلام الغزالى : ما من مُفْتٍ إلا وقد قال بالرأى ، ومن لم يقل به فقد أغواه عن الاجتهاد ولم يعترض معترض على ذلك ، فانهقد إجماع قاطع على جوار القول بالرأى . وقد أقر النبى ﷺ من كان قياسه صحيحاً من أصحابه دون غيره ممن أحضراً فى القياس .

ومن الأقيسة التى أقرها صلوات الله عليه ما جاء فى الصحيح من أن أبا سعيد الخدرى — رَفَى — ملسوعاً بسورة الفاتحة ، وأخذ على ذلك جعلاً من غنم ، قياساً على الحمل فى غير الرقية . فلما قدم على رسول الله قال له صلوات الله عليه : ( إن أحتى ما أخذتم عليه أحرأ كتاب الله ) . فلم له النبى ما استنبط من القياس .

وليس يحمل بك — أعزك الله — أن تمثل الإمام مصدراً للقول بفى القياس ، وأنت ترى مدار الاستدلال بالقياس على التسوية بين المتماثلين والتميز بين المختلفين . ولو جازت التفرقة بين المتماثلين لسدت أبواب الاستدلال كما يقول الإمام ابن القيم .

وقد ثبت أن القرآن الكريم كان يستخدم قانون التساوى فى الأحكام لتشابه الصفات ، فقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أُمُثَالُهَا ﴾ (١) . فقد نبه هذا النص الكريم أن عاقبة أولئك المشركين كعاقبة من كانوا قبلهم إن هم فعلوا مثل فعلهم . وقد كان الإمام زيد بن على زين العابدين ممن يأخذون بالقياس مضيا على طريقة جده على بن أبى طالب الذى لا يرتاب مسلم فى أنه كان من فقهاء رأى فى عهد الصحابة ، وفى أن له فى القياس اجتهادا واضحا لا يخفى على الذين يعلمون .

## على في حضانة الحنيفية

غير خفى على البصراء بالسيرة النبوية أن رسول الله ﷺ قد أثنى أطيّب الثناء على أخلاق العرب في الجاهلية . . ذلك أنه خرج إلى منى وفي معيته أبو بكر وعلى ، ثم جلس إلى بنى شيبان يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله . ودار حوار بين القوم ثم بينهم وبين رسول الله وقد انتهى هذا الحوار بنهوض النبي صلوات الله عليه آخذاً بيد أبي بكر وقائله : « أبة أخلاق في الجاهلية هذه يا أبا بكر ؟ ما أشرفها ! إنهم ليتحاجزون بها فيما بينهم وبها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض » .

وقد تسأل — حفظك الله — هل كانت هذه الأخلاق الشريفة أمراً تواضع عليه القوم ابتغاء مصلحة لهم في ذلك ، أو كانت بقية من بقايا ملة أبي العرب وأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ .

ومهما أجابك أهل العلم بأن العقل إنما ينظر من وراء الشرع دون اعتبار لما في الشيء من حسن أو قبح ذاتي ، فإن مما ينبغي التفاضي عنه أن الفطرة السوية لها مقاييس في قبح الأشياء وحسنها ، وأن القول بنفي الحسن والقبح الذاتيين قول يصعب التسليم به والجرى وراء قائله ، ثم هو قول لا يحملك الأخذ به على تحريم حلال ، أو تحليل حرام ، أو تجهّم أمر معلوم من الدين بالضرورة ، ولكنه ينأى بك عن متاهات العصية المذهبية بين أهل السنة وأهل الاعتزال . ولعل من الخير أن ننزل في هذا الباب على مقتضى القاعدة التي يرتضيها أهل السنة من أن العقل إنما ينظر من وراء الشرع ، ففترض — جدلاً — أن هذه الأخلاق الجاهلية التي أشار إلى شرفها القرآن

وأثنى عليها رسول الله وفصل جمالها أمير المؤمنين ابن الخطاب ، إنما هي من بقايا الحنيفية السمحة التي هي دين أبي الأنبياء وأبي العرب إبراهيم ، فإنه — عليه السلام — نشأ بالعراق حوالي ألفي عام قبل الميلاد ، وأنه كان واضح الانتماء إلى عشيرة من عشائر العرب الكلدانيين حديثة الهجرة إلى العراق ، حيث كان العراق مع الشام ومصر مصبا منذ فجر التاريخ لهذه الهجرات القبلية ، التي تلاحقت من الجزيرة العربية تجاه أحواض الأنهار المحيطة بها في موجات ينتظم تدفقها في سنن الله ، في حقب زمنية متساوية تبلغ الحقبة منها بضع مئات من السنين .

وقد كان إبراهيم الفتى يحمل بهذه الهجرة الحديثة إلى العراق هذه الجنوة من خصائص آبائه الصالحين وتراثهم . بل لقد زاده توهجا بهذه الخصائص وانطلاقا بطاقتها كل ما أخذ يفتن إليه حوله من مشاهد ذلك المجتمع المهيض المتعرق .. الذي استكان إلى إفك الأوثان وسلطان الكهان بعد أن ركد الناس حكاما ومحكومين ، يتعالون على خيرات الأنهار الحارية حتى أسنوا في مواقعهم ، مكبين على وجوههم وقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم وأذلهم بأيدي أربابهم وكبرائهم .

لقد ظلت هذه الخصائص الدينية الفطرية — في نبضها الدافئ وصورتها المرشد — حية في قلب إبراهيم وعقله ، لأنها كانت في إطار حرية إرادته وحنوة إيمانه ونضرة كرامة الإنسان أمام عينه . فما امكت تتمثل له منذ شب عن الطوق فتلفتة إلى التفكير في خلق السماوات والأرض ، والتدبر لهذا البرهان العقلي والحسي الذي يأخذ بيد الفطرة السوية إلى الإيمان البصير بالله الأحد الذي لا إله غيره ولا حفاء لآيات وجوده وكماله . وعسى عن البيان أن الحنيفية هي ملة إبراهيم على ما تشير إلى ذلك الآية من سورة النحل :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .  
وكذلك الآية : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا  
مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْبَعُوهُ  
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

والعرب — بحكم بنوتهم لإبراهيم — كانوا حراسا على الإلصام  
بالحنيفية وما يتعلق بها في العقائد والعبادات والمعاملات . ورسول الله  
ﷺ كان في حراء يلتزم طريق أبيه إبراهيم في التأمل والتفكير في ملكوت  
السموات والأرض ، فكان يعتكف شهر رمضان في كل عام حتى أعزه الله  
وأعز به الإنسانية حمعاء ، فأُنزل عليه كتابه الكريم في ليلة القدر .

وقد كان في الأمة العربية الجاهلية حفاء في ذروتهم رسول الله وحديجة  
نت خويبد وورقة بن نوفل وريد بن نفيل . ومن هؤلاء السادة من حرم  
الحمر على نفسه كعبد المطلب بن هاشم وأبي طالب بن عبد المطلب .  
وما من شئ في أن عليا — كرم الله وجهه — كان في أسرته بين أبويه  
في حصانة الحنيفة المسموح ، التي لم يكن يحسر عنه ظلها في سائر  
أحواله ، تحميه لظى الشرك وتحمله على مكارم الأخلاق . ثم لما بلغ  
السادسة من عمره وضعته عناية الله في أكرم دور مكة بين محمد رسول الله  
وحديجة سيدة نساء العالمين .

والذين يتدبرون القرآن الكريم لا حرم أبهم يروون كلمة الحنيفية وكلمة  
حبيب تنظم أشرف ما يتخلق به الإنسان ، وحسب هذه الكلمة شرفاً أن الله  
تعالى آثر نبيه محمد — ﷺ — أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً كما في الآية :  
﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَبْنَاؤُا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .



وكذلك الآية : ﴿ فَأَيُّمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .  
ففى هذه الآية يخاطب الله رسوله أمرا أن يقوم وجهه لله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا . فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه . فتلك هى الفطرة التى خلق الله الناس عليها قابلين للتوحيد ودين الإسلام ، غير نائين عنه ولا مُنكرين له لكونه مجابوا للعقل السليم مساوقا للنظر الصحيح ، حتى إنهم لو تركوا لما اختاروا عليه دينا غيره . فالذين غووا وتنكروا له فإنما أغوتهم الشياطين وصرفتهم عن مسaire فطرتهم ، فأشركوا بالله غيره واستناموا إلى هوى الأنفس أو سلطان التقاليد .

وإذ قد كانت هذه هى حاسة الحنيفية فى العقائد ، فإن خاصتها فى السلوك اتقاء كل ما يمس المروءة ويتجهم شرف السلوك الاجتماعى الكريم .. وما أكثر الذين كانوا يتجنسون الأمر من الأمور أنفة منهم أن يواقعوا الصغائر ويرضوا باللون من الحياة . ثم ما أكثر الذين كانوا يأخذون بالإسلام وأدبه وهم يقولون : والله إن هذا الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديننا لكان فى أخلاق الرجال حسنا .

ولعلنا ننتهز بك هذه السانحة لنضرب لك مثلا من الأخلاق الكريمة التى كان يتحلى بها على — كرم الله وجهه — إلى جانب زهده وتقشفه وعدائه وبذله فى سبيل الإسلام والمسلمين ما لم يسلك سبيله أحد سواه فى مبلغ ما نعلم عن أهل الإسلام وسادة المسلمين . وحلاصة هذا المثل ما ذكره أحمد بن يحيى البلاذرى فى تاريخ الأشراف ، من أن بنى أسد

أغاروا على بنى حنيفة فى خلافة أبى بكر الصديق فأصابوا خولة بنت جعفر سبية وباعوها فى المدينة . فلما بلغ الخبر قومها قدموا المدينة للقاء على — كرم الله وجهه — ثم أخبروه بموضع المرأة منهم . ولم يسع عليا إلا أن يسلك مع القوم أشرف ما يسلكه كريم مفضل ، فدعا بالجارية فأعتقها ثم مهرها وتزوجها فولدت له بعد موت فاطمة بنت رسول الله ولدا سماه محمداً وكناه أبا القاسم ، إمضاء لوصية كان قد أوصاه بها رسول الله . ومحمد هذا هو المعروف بمحمد بن الحنفية ، وهو الذى كان قد حدث بينه وبين أخيه الحسن فكتب إليه يقول له :

يا أخى إن أباك وأبى على لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، فحن فى شرفنا به سواء ، وأما أمك فإنها فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين ولن يفضلها أو يعادلها ملء الأرض ساء مثل أمى . وقد كتبت عليك فى أمر فعال إلى وترضاني واحذر أن أسفك أنا إلى هذا الشرف الذى أنت له أهل وبه أحق وأجدر ، والسلام عليك ورحمة الله . ولم يسع الحسن — رضى الله عنه — إلا أن يستحيب أخاه ، فذهب إليه حاسرا وترضاه . وتلك هى مكارم الأخلاق التى يتوارثها أهل البيت كائناً عن كابر — رضى الله عنهم ورضى عنا بهم أجمعين .

---

## العقل العربي يتجهم التعقيد

فى الكلمة التى رواها الشريف الرضى عن الإمام — كرم الله وجهه — عبارات تدق مسالك العقول إليها ، وتضييق الصدور بوضوح الصنعة فيها . ذلك أن الإمام نفى عن الذات العلية صفات الكمال الثابتة التى لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه . ثم كيف يرضى ذو دين سليم من آفات الزيف أن يجعل الإمام بهذه المنزلة ، وهو يستمع إلى الحديث الذى أخرجه مسلم عن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، أنه شكّا إلى رسول الله — ﷺ — وجعا فى جسده ، فقال له : ( ضَعْ يَدَكَ عَلَى الذى تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا ، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ ) .

وقد كان صلوات الله عليه يقول : ( أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمَعْفَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ ) .

فهذه الأحاديث صحيحة صريحة فى أن رسول الله كان يستعيز بصفات الله ، وما كان لعل ولا لغيره إلا أن يقتدى برسول الله ﷺ . فإذا ثبت أنه كان يستعيز بالله وبصفات الله ، فغير جائز أن ينكر الإمام على أن الله موصوف بكل كمال منزلة عن كل نقص .

وباستصحاب هذا المعنى نرى لك ما يقوله ثقات أهل العلم والدين ، من أن المسلم الحق لا ينبغي له أن ينفى عن الله سبحانه ما وصف به نفسه ، وما وصفه به أعرف الخلق بربه وأنصحهم لأُمته وأقدرهم على البيان . ذلك أنك إن نفيت شيئا من ذلك فقد عاندت الله ورسوله إذ أعرضت عن الكتاب

والسمة ، وإن أنت وصفته بما وصف به نفسه فإياك أن تشبهه بحلقه إذ ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى ، فقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

فقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى ، وقد جعل لأعدائه المشركين ولأوثانهم مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمالات ، فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له تعالى مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمر الوجودية والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل ، كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الله سبحانه أكثر وأكمل ، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه . بل إنه يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما إن تكافأ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، ولما لم يتكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده حتى يستحيل أن يكون لغيره المثل الأعلى مثل أو نظير .

هذا المعنى على ما ينبغي له يستحيل على كل ذى عقل سليم وعقيدة إسلامية صحيحة أن ينسب إلى الإمام على — كرم الله وجهه — القول بنفى صفات الكمال عن الذات العلية ، ومن ثم تكون تلك الكلمات الاعتزالية مفتراة على الإمام رضى الله عنه وعن آل بيته الطيبين .  
وغير ذى حاجة إلى بيان ، أن الطعن في نسبة هذه الكلمات إلى الإمام

لا يعنى النيل من الشريف الرضى بنسبته إلى افتراء الكذب على الإمام — كرم الله وجهه — ذلك أن الشريف إنما أخذ بخطب الإمام وكلماته من أفواه معاصريه أو من صحائفهم التى كتبوها ، وقد كانت المعركة على أشدها بين أهل السنة وأهل الاعتزال . وليس بعيد أن يكون هؤلاء المعتزلة قد اختلقوا ذلك اختلاقا تأييدا لمذهبهم القائل بنفى الصفات عن الله ، زاعمين — أنه بذاته — عالم ، مرید ، قادر ، سمیع ، بصیر ، متكلم دون الله ، له صفات زائدة على الذات من العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام .. ويتأمل هذا المعنى الذى هو خلاصة مذهب المعتزلة ، تكون تلك الخطبة من تأليفهم انتصارا لمذهبهم ، فلا يكون على الشريف الرضى فى ذلك لوم لأنه نقل ما وجد أو حكى ما سمع ، فالغلط من عمره والوهم سابق عليه . وهذا اللون فى أحاديث الإخباريين كثيرة مستفيضة ، إذ كان أهل العلم يحسنون الظن بالدين يأخذون عنهم ويتقون بهم . وحسب الرجل فضلا أن يروى خبرا يثق بمن نقله عنه ما دام لا يمس أصول العقيدة ولا أدب السلوك .

---

## الأمة الإسلامية خير الأمم

لا يغيب عن الفقهاء بتاريخ الأمم في مختلف شئونها الاجتماعية ، ن الأمة العربية الإسلامية وسط بين الإفراط والتفريط ، فذلك هو مناط الحكم بأنها خير الأمم . وقد جاء في القرآن الكريم قول الله جل ثناؤه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

ففي هذه الآية الشريفة من سورة آل عمران بيان من الله تعالى بأن هذه الأمة العربية الإسلامية خير الأمم ، وبأن هذه الخيرية راجعة إلى أنها لا تنفك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . فمهما استقامت لها السبل إلى أداء هذه الأمانة فقدئت لها الحكم بأنها خير الأمم ، وإن هي قصرت في أداء الحق الذي ناطه الله تعالى بها فلا جرم أنها يومئذ تتراجع عن شرف منزلتها إلى ما دونها من منازل لا خير فيها ولا شرف لها ، وربما هبطت بها إلى منزلة التابع من المتبوع ، أو منزلة العبد من سيده بأمره وينها ويتحكم في مصالح أموره ..

وغير ذى حاجة إلى بيان أن في كل أمة من هو خير ومن هو أخير منه ، ومن هو كريم ومن هو أكرم منه ، وهكذا يتفاوت الناس في الأمة علوا وانحطاطا واستقامة واعوجاجا وإفراطا وتفريطا .. والمنزلة الوسطى بين الغلو والتقصير هي خير المنازل كما ذكر ذلك على — كرم الله وجهه — فقال : « خير الناس النمط الأوسط : يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي » .

وليس يخفى على المتأمل أن الخير في النمط الأوسط غير مختص بأمر الدين غلوا أو تقصيرا ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى سائر القضايا الاجتماعية . فالنمط مطلوب في الحكم على الناس بغير غلو ولا تقصير .. ومن هنا ينبغي لكل ذي دين ألا يسرف في الثناء على الناس ، ولا في الغضب من أقدارهم والحرص على تنقيصهم وإشاعة السوء عنهم مهما تكن الأسباب الداعية إلى ذلك لخير الدنيا أو خير الدين .. فإن السوء بنفي في كل الأحوال من حيث كان وسيلة إلى صدع الصف وإثارة الخلاف . ورب كلمة سوء تفتح أبوابا من الشر تغد منها إلى الأمة فتن مشبوبة النار مسعورة الأوار يتساوى في البلية بها الظالم والمظلوم على سواء .

نقول هذه الكلمات لكي نتوصل بها إلى استبعاد بعض الخطب التي ينسبها الغلاة إلى الإمام على كرم الله وجهه — وهى خطب أو أحاديث — لا تتفق مع مقامه الجليل في صلته الوثيقة برسول الله من طريق القرابة ومن طريق القرية جميعا . ذلك أن في هذه الخطب أو في هذه الأحاديث ما ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ تنقضا يجعلهم بمنأى عن ثقة رسول الله بهم وتكريمه إياهم ، وفي ذلك من الشر ما لا يخفى على بصير بشئون الإسلام والمسلمين . ثم كيف يرضى ذو عقل ودين أن يقف على موقفا أو يجلس محلسا يلقن الناس فيه كلمات تناقض كلمات رسول الله عن أصحابه رضوا الله عنهم أجمعين .

إن لرسول الله ﷺ في أصحابه أحاديث تشرفهم وتعلن للناس مناقبهم ، لا تخفى على على — كرم الله وجهه — ، فيستحيل أن يقول كلمات تناقض الكلمات التي كبرم بها رسول الله أصحابه الميامين .  
وقل أن نروى لك الخطبة التي قد توحى إلى الناس أن عليا ينال من أصحاب رسول الله ، نسوق لك من الأحاديث الصحيحة ما يمهّد السبيل

إلى الإيمان بأن الإمام أجلُّ قدراً وأكرم نفساً وأشرف أدياً من أن ينال من إخوته في مصاحبة رسول الله ﷺ بما يعرض من قدرهم أو يحط من شأنهم ويجعلهم مضطرة في أفواه المتربصين بدعوة الإسلام ووحدة المسلمين .  
فمن تلكم الأحاديث النبوية الشريفة :

ما أخرجه تيسير الوصول عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ :  
( خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ، ويخلفون ولا يستحلفون ، تسبق شهادة أحدهم بيمينه ويمينه شهادته ) .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه أبو داود عن سعيد بن زيد قال :  
« سمعت رسول الله ﷺ يذكر عشرة من أصحابه ويبشرهم بالجنة وهم :  
أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الحراح » . ثم سكت سعيد عن العاشر ، فقالوا :  
من العاشر ؟ فقال سعيد : « سعيد بن زيد » — يعني نفسه — ، ثم قال  
سعيد : « والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ تغير فيه وجهه ، خير  
من عمل أحدكم عمره ولو عُمر عمر نوح » .

ومن تلكم الأحاديث ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي  
سعيد ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس فقال : « إن من أمن الناس عليَّ  
في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر  
خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، قال :  
قال رسول الله ﷺ : ( لا تسبوا أصحابي . فوالذي نفسي بيده لو أن أحداً  
أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ) .



ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أرحم الناس يأمنى أبو بكر ، وأشدّهم فى أمر الله تعالى عمر ، وأشدّهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر ، أشبه عيسى عليه السلام فى ورعه ) . فقال عمر رضى الله عنه : أتعرف ذلك له يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، فأعرفوه له » .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه أبو داود عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أرى الليلة رجل صالح ، كأن أباه بكر نيط برسول الله — علق به — ، ونيط عمر بأبى بكر ، ونيط عثمان بعمر ) . يقول جابر : فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولادة الأمر الذى بعث الله به نبيه ﷺ .

ومن تلكم الأحاديث الشريفة ما أخرجه الترمذى عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أحد من أصحابى يموت بأرض إلا كان قائدا ونورا لهم يوم القيامة ) .

ومن تلكم الأحاديث التى لها فضل تعلق بهذا الفصل من الكتاب ، ما أخرجه البخارى وأبو داود عن محمد بن الحنفية قال : قلت لعلى : يا أبت أى الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : « خير الناس بعد رسول الله أبو بكر » . قلت : ثم من ؟ قال : « عمر خير الناس بعد أبى بكر .. وخشيت أن أقول ثم من ، فيقول عثمان . فقلت : ثم أنت يا أبت ؟ .. فقال : « ما أنا إلا رجل من المسلمين » .

ومن تلکم الأحادیث ما أخرجه البخاری عن أبي الرداء رضى الله عنه ، قال : « كنت جالسا عند النبی ﷺ إذ أقبل أبو بكر رضى الله عنه آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، فقال رسول الله : ( أما صاحبکم فقد غامر — خاصم — ) فجاء أبو بكر فسلم ثم قال : إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه — أسأت إليه — ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى ، فأقبلت إليك يا رسول الله . فقال النبی : ( يغفر الله لك يا أبا بكر ) . ثم إن عمر ندم فأبى منزل أبى بكر فقال : « أتم — هنا — أبو بكر ؟ » قالوا : لا . فجاء عمر إلى النبی ﷺ فجعل وجه النبی يتغير حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله أنا كنت أظلم . فقال النبی ﷺ : ( إن الله بعثنى إليکم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدقت وواسانى بنفسه وواله ، فهل أنتم تاركون لى صاحبى ؟ مرتين أو ثلاثا ) فما أودى بعدها أبو بكر من أحد .

ومن تلکم الأحادیث ما أخرجه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : ( بينا رجل يسوق بقره وقد حمل عليها ، فالتفت إليه فقالت : إنى لم أخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث . فقال الناس : سبحان الله ، تعجبا وفرعا — بقره تتكلم — ثم قال ﷺ : ( إنى أومن به وأبو بكر وعمر ) ..

ومن تلکم الأحادیث ما أخرجه الترمذى عن عبد الرحمن بن خباب قال : « شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال : يا رسول الله على مئة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حضّ الله على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حضّ النبی على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله على ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . يقول راوى الحديث : فأما رأيت رسول الله ﷺ ( ٥٤ ) — على إمام الأمة )

ينزل عن المنبر وهو يقول : ( ما على عثمان ما عمل بعد هذه ) .  
ومن أكرم ما يذكر في هذا الفصل لأمر المؤمنين عثمان — رضى الله  
عنه وأرضاه — ما يرويه الثقات من أهل العلم وقد نجم قرن الفتنة بمحاصرة  
الأغبياء له في داره . ذلك أن معاوية رحمه الله قال لعثمان : اخرج معى إلى  
الشام قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به ، فقال عثمان : لا أبيع جوار  
رسول الله ﷺ بشيء ولو كان فيه خبط عنقى . . قال معاوية : فأبعث  
إليك من الشام من يقيمون معك ويمنعونك . فقال عثمان : لا أضيّق  
على جيران رسول الله ﷺ . فقال معاوية : والله لثقتان قال عثمان :  
« حسبي الله ونعم الوكيل » .

ومن تلکم الأحاديث ما أخرجه الترمذى عن أبى إدريس الخولانى قال :  
« لما عزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمير بن سعد عن حمص ، ولى  
معاوية . فقال الناس : عزل عميرا وولى معاوية . فقال عمير رضى الله عنه :  
لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( اللهم اهد  
به ) » .

ومن تلکم الأحاديث ما أخرجه الترمذى عن عقبه بن عامر رضى الله عنه  
قال : قال رسول الله ﷺ : ( أسلم الناس ، وآمن عمرو بن العاص ) .  
فقى هذا الحديث — على ما ترى — يضع رسول الله ﷺ عمرا فى منزلة  
رفيعة لم يظفر بها كثير من الناس . . ذلك أن عمرا لم يدخل فى الإسلام  
دخول الذى ينقاد لقوة رأى العام ، ولكنه يصدر فيما يأتى عن تأمل وفكر  
يلفغان به منزلة اليقين ، فيتصرف تصرف الذى يعول على رأيه لا يبالى وافق  
الناس أو خالفهم . وتلك منزلة لا يظفر بها إلا أولئك الذين أعطاهم الله  
عقلا واعيا ونظرا بعيدا فانتفعوا بهذه المنحة الإلهية الجليلة فى تعاملهم مع  
الناس إبان الحرب والسلام على سواء .

ولقد كان عمرو بن العاص — فى مبلغ ما تعلم — صادقا الصديق كله فى معرفته نفسه ، وفى مصارحته الناس بما لا يصارحهم به إلا شجاع لا يعميه من الأمر إلا أن يقول الحق ، ثم يستغفر الله مما عسى أن يكون قد واقع فيه سخط الله عز وجل . وآية هذا الذى نقول ما يرويه عنه شيخ الإسلام ابن القيم فى كتابه عن الروح حيث ذكر : أن عمرا — آخر عهده بالحياة — قال لولده :

لا تجزع على أيلك يا بنى ، وإنى مخبرك عن موضعى من رسول الله ﷺ ، فقد كنت معه على أطوار ثلاثة : طور دعوته إلى الإسلام أول أمره ، وقد كنت شديد البغض له ، ثم هدانى الله للإسلام فذهبت إليه وقلت له : « امدد يدك أبايعك على الإسلام يا رسول الله . فمد ﷺ يده فقبضت يدي فقال : مالك يا عمرو ؟ قلت أريد أن أشرط . قال : تشترط ماذا ؟ قلت : أن يغفر الله لى .. قال : « ألم تعلم يا عمرو أن الإسلام يجب ما قبله .

فأخذت يده وبايعته ، فلم يكن وجه أحب إلى من وجهه ﷺ ، حتى إننى لم أكن أملاعى من هيبته له . ثم ولينا بعد ذلك أموراً لا ندرى أين نحن من رضوان الله فيها ، ثم أدار وجهه إلى الحائط وأخذ يبكى وهو يقول : اللهم أمرتنا فمعصينا ، ونهيتنا فأتينا ، اللهم لا برئ فاعتذر ولا قوى فأنينصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، فاغفر اللهم بفضلك ورحمتك يا ذا الجلال والإكرام . ثم أسلم الروح .

فهذه هى مناقب أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو ، وهم جميعا موضع تكريم رسول الله ﷺ . ومن حقهم فى منزلتهم هذه أن يلقوا التبجيل والاحترام من كل مسلم يخشى الله وينصف التاريخ ويحرص على التحلق بأحلاق أهل الإيمان .

هذا ما أثرنا ذكره مما يستهدف تكريم رسول الله ﷺ أصحابه رضى الله عنهم . وقد بقى لك علينا أن نذكر بعد ذلك خطبة الإمام التى نقف نحن وأنت منها موقف الحذر الذى لا يرحب بكل ما يلقى إليه من روايات تاريخية لا تسلم من هوى جامع ، ولا من حقد متريص . والله تعالى المسئول أن يفضل علينا فيرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، فإنه أكرم مسئول وأعظم مأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل .. ونبادر إلى القول بأننا لا نتهم الرضى بالتزييف والافتراء ، إذ كنا لا نملك الحجة على ذلك ولا نحب أن نقول قولاً بغير دليل ، ثم إن الرجل من آل البيت النبوى الشريف وله — فى مبلغ ما نعلم — خلق رضى . ومن شأن ذلك أن يدعونا إلى الإيمان بأن الرجل قد وجد فى صدور الناس وعلى ألسنتهم خطبا وأحاديث ينسبوننها إلى أمير المؤمنين على فروى من ذلك ما تطمئن إليه نفسه فإن كان صادقا فله صدقه ، وإن كان كاذبا فعليه كذبه ، وللناس عقول تحكم وأذواق ترضى . فلت أن تأخذ من ذلك ما تطمئن إليه وأن ترد ما تنفر منه والله المستعان .

واليك تلك الخطبة التى وعدناك بالنظر فيها وبنقدتها نقداً يتوخى العدل ويتجنبهم الجور بكل سبيل ، والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

قال الإمام — كرم الله وجهه :

« أما — والله — لقد تميمصها ابن أبى قحافة ، وإنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير ، فسدت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا ، ثم طفقت أرتقى بين أن أصول بيد حذاء أو أصبر على طخية عمياء ، بهرم فيها الكبير ويشيب الصغير ... الخطبة » .  
ومبلغ الظن بك — ألهمك الله الصواب — أنك لا تجد بدا من وقفات توازن فيها بين ما يصح صدوره عن الإمام وبين ما يمكن أن يكون مفترى

عليه من ذوى الأهواء ، غلوأ فيه أو قلّى له كرم الله وجهه : وأولى هذه الوقفات إخبار الإمام عن أبي بكر بالكلمة « ابن أبي قحافة » ، إذ كانت هذه العبارة توحى بشيء من الاستخفاف بشأن الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، وذلك أمر نبرئ منه الإمام تبرئة الذئب من دم ابن يعقوب . وسندنا فى تلك التبرئة أنه — كرم الله وجهه — يعلم منزلة أبي بكر عند رسول الله فى حديثه عنه وتعامله معه ، وليس لمسلم أن يظن بعلى أنه يعاند بقول أو بفعل ما يعلم أنه لا يرضى رسول الله ﷺ .

وثانية الوقفات نسبة الإمام صفة الظلم إلى أبي بكر عن طريق قوله فى خطبته تلك « إنه ليعلم أن محلى منها محل القطب من الرحي » . فهذه العبارة تشير إلى أن أبا بكر كان يعلم أن عليا أحق منه بالخلافة ومع ذلك خالف علمه فأصبح من الظالمين له ، وذلك أمر يستحيل تصويره فى على — كرم وجهه — لأن كلمته هذه إما صدق وإما كذب ، فإن كان أبو بكر يعلم أن عليا أحق منه بالخلافة ثم يتنكر لعلمه فهو ظالم ، والظالم لا يجوز أن يلى أمر الأمة خليفة عن رسول الله . ولكن الأمة رضيت أبا بكر مطمئنة إليه ، معترزة بشرف سلوكه ، طائفة أمر رسول الله فى ترشيحه خليفة له عن طريق تقديمه إماما للمسلمين فى الصلاة حتى قال قائلهم : « لقد رضى رسول الله ﷺ لدينا فمن الحق أن نرضاه لدنيانا » . وذلك أمر لا يحفى على أمير المؤمنين على كرم الله وجهه — ورضى الله عنه وعن سائر إخوانه من خلفاء رسول الله وأمرء المؤمنين .

وثالثة الوقفات تصريح الإمام على بأن الخلافة ميراث له . ذلك أن اعتبار الخلافة عن رسول الله ميراثا لا بد أن يكون كبار الصحابة قد علموه ، وفى هذه الحال يكون عليهم أن يجروا على مقتضى علمهم . فأما وقد بايعوا

أبا بكر راضين مطمئنين ، فذلك يعنى أن رسول الله لم يعتبر الخلافة عنه ميراثا لآل بيته الكريم .

ورابعة الوقفات أن صبر الإمام على القذى فى عينه والشجاء فى حلقه قد يحمله بعض أعدائه أسوأ محمل ، أو يتخذوه أسلس مطية إلى أنه شريك فى دم عثمان ، وذلك أمر لا يرضاه للإمام كرم الله وجهه إلا أصدقاء جاهلون أو أعداء متربصون .

وخامسة الوقفات ما تشير إليه الكلمة : تشطرا ضرعها « ذلك أن هذه الكلمة توحى بمعنى نأباه أشد الإباء ورفضه أعنف الرفض ، وهو أن كلا من أبى بكر وعمر قد انتفع من الخلافة انتفاع شارب اللبن بما يحلبه من لقمته .. ومعاذ الله أن يكون ذلك رأى على فى أبى بكر وعمر ، وهما الرجلان اللذان كادا أن يلتحقا بعالم الملائكة عزوفا عن الشرور وضيقا بالآثام ، حتى لقد كان أحدهما يكره أن يأكل طيب الطعام أو أن يشبع منه حرصا من كل منهما على القدوة بمحمد رسول الله ﷺ . فكل قول يال من هذين الخليفين لا ينبغى أن يلتفت إليه ذو دين . ومن الظلم للحقيقة وللحق أن ينسب مثل هذه الكلمة إلى أمير المؤمنين على كرم الله وجهه . وسادسة الوقفات وصفه عثمان بن عفان بأنه لا يهتم إلا بمأكله ، فهو بين — تناول الطعام والتخلص منه — كالدابة بين المعتلف والنثيل ، وهو معنى لا تسوغ نسبته إلى الإمام .

وما كان ليخفى على أمير المؤمنين شيء من هذا الذى ذكرنا فى هذه الوقفات . من أجل ذلك نرى أن هذه الخطبة لا تسلم من صنعة فيها تجعلها أشبه بكلام الإمام صورة وشكلا ، وإن كانت أبعد ما تكون من حقيقة وموضوعا . وإلا فإن الذى ينظر فى هذه الخطبة معتقدا أنها رأى الإمام وفكره وأسلوبه إنما يتجهم بذلك منزلة الإمام من أدب الإسلام ، ويراه

أبعد ما يكون عن الإذعان لأمر رسول الله في تكريم أصحابه والثناء عليهم وحملهم أئمة يحملون عنه عسء الدعوة إلى الله ، وإتمام ما بدأه هو عليه الصلاة والسلام . وظن المسلمون بعلى هذا الظن يستلزم أن يضعوه بمنأى عن مرضاة الله تعالى ومرضاة رسول الله ﷺ . نعوذ بالله من ذلك ونعيذ به سبحانه أبناء الأمة الذين يحرصون على التأدب بأدب الله والانقياد لأمر رسول الله في كل ما أمر به ونهى عنه وأرشد إليه ، وفي طليعة ذلك احترام أصحابه الميامين .

ولعلك تتطلع إلى مزيد من القول يزيدك يقينا بأن بعض حطب الإمام وأحاديثه التي نال فيها من أصحاب رسول الله إنما هي مفتراة عليه من الغلاة في حبه والغلاة في بغضه ، وهو كرم الله وجهه برئ من أولئك وهؤلاء ومن كل من يجرى في طريقهم التي تغض من أقدار أصحاب النبي ومن قدر على نفسه رضى الله عنهم ورضى عنا بهم أجمعين .

ومما يؤيد القول بأن الإمام عليا أبعد ما يكون عن النيل من أصحاب رسول الله ، أن أحفاده كرم الله وجهه كانوا يكرهون لأنصارهم والمتشيعين لهم أن ينالوا من أبي بكر وعمر وعثمان . وآية ذلك ما يرويه ثقة فاضل من أن الإمام عليا زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي كان يتجهم الذين يذمون الخلفاء الراشدين . فلا يعلم عنه رضى الله عنه أنه قال في أبي بكر وعمر وعثمان إلا خيرا . وكان يعتبر محبة المتشيعين لآل علي غير سائغة ولا مقبولة إذا شابهها ذم لأبي بكر أو عمر أو عثمان ، بل كان يقول رضى الله عنه : أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم إيانا عارا علينا بما كنتم تالون من أصحاب رسول الله حتى بغضتمونا إلى الناس .



ومما يؤثر عن الإمام زين العابدين رضى الله عنه أنه جلس إليه قوم من المتشيعين لعلى كرم الله وجهه ، فذكروا أبا بكر وعمر فقالوا منهما ، ثم ابتدوا فى عثمان فقال لهم — رضى الله عنه — : أخبرونا أنتم من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ؟ .. قالوا : لا .. قال : أفأنتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ؟ قالوا : لا .. فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم على أنفسكم بأنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأما أنا فأننى أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ثم قال لهم : قوموا عنى ، لا بارك الله فيكم ولا قرب دوركم . أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله. فإذا قد كانت هذه الكلمات التى رواها ابن كثير عن الإمام زين العابدين صورة لما فى نفسه من الاحترام والتكريم لأصحاب رسول الله ﷺ ، فإن أحدا لا يجترئ على الظن بأن زين العابدين أعظم إجلالا لأصحاب النبى من جده على الذى تسبب إليه هذه الخطبة « الشقشقية » ، بما انطوت عليه من كلمات تغض من قدر أبى بكر وعمر وعثمان . ذلك بأن سلوك على زين العابدين فى كلماته وتصرفاته ، إنما يرجع إلى قنوته بجده ، ولا يمكن عقلا أو عادة أن يتنكر الحفيد لجده وبخاصة إذا كان فرعاً من تلكم الشجرة الزكية ، شجرة آل البيت النبوى الكريم .

فإذا ضمنت إلى هذا المعنى أن زين العابدين قد صقلته محنة آبائه الذين

رأهم يذبحون بين يديه ، فإن من شأن ذلك أن يزيدك ثقة بشرف أخلاق عليّ  
وبنيه حتى يوم الناس هذا .. وأنت — إذا استصحبته هذه المعاني — لم تجد  
بدا من أن تنظر إلى مارواه الشريف الرضى عن الإمام عليّ نظر الذى يأخذ  
بالأحوط من الرأى ، فلا يقبل كل ما أثر عن الإمام — كرم الله وجهه — من  
خطب وأحاديث . وليس يستبعد أهل النظر الصحيح أن تخرج الفتن العمياء  
من افتراء الكذب وترويع الأباطيل ، وهى التى استحلت ما حرم الله من  
سفلك الدماء واستباحة الحرمات .

---

## على في مجلس الشورى

أسلفنا لك — حفظك الله — أن رسول الله ﷺ رشح للخلافة من بعده أبا بكر ، ثم رشح أبو بكر رضى الله عنه للخلافة من بعده عمر .

وقد كان الظن بأمر المؤمنين عمر رضى الله عنه أن ينهجه نهج رسول الله ﷺ ، أو ينهجه نهج أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيرشح للخلافة من بعده علياً — كرم الله وجهه — أخذاً للطريق على فتنة عمياء ينفخ في نارها التكافؤ بين المتنافسين الذين لا يمتاز أحدهم عن قرنائه امتيازاً يجعله منهى الأئمة ومعقد الأبصار . ذلك أن الستة الذين رشحهم عمر كانوا متساوين أو أدنى إلى التساوى في النسب وفي السابقة وفي تبشير رسول الله ﷺ بإمامهم بالجنة . فما ذاك الذى صرف أمير المؤمنين عمر عن المضى في طريق رسول الله وهو الحريص على القدوة به ؟.. ثم ما الذى صرفه عن المضى في طريق أبى بكر وهو الحريص على الوفاء له ؟.

وقبل أن نجيبك على هذا التساؤل نقرر لك — ثبت الله قلبك — أن عمر رأى أحداثاً جدت ، وأن هذه الأحداث تقتضى نظراً يلقى بها وينسجم معها . ثم هو نفسه رضى الله عنه كان شديد التحرج من كل ما يرى أنه مأخوذ به عند الله وعند الناس .. وهذا التحرج هو الذى منعه أن يرشح علياً من بعده .. ومعاذ الله أن يكون عمر عبد هوى أو مطية شهوة ، فهو — فى مبلغ ما نعلم — فوق الشبهات التى تبغض الناس حقهم ثم ترمى بهم إلى تبه من التظنن تتصارع فيه الأهواء وتتجاوب الأحقاد .

وربما زادك اطمئناناً إلى هذا الذى نقول أن تتمثل أمرين لا يعرفهما التاريخ

الواثق إلا لأمر المؤمنين عمر ، وكلاهما يفضى بك إلى اليقين بأن عمر ينبغي أن يضعه الغيارى على الحق فوق سيئات الظنون .

فأما أحد الأمرين ، فإنه رأى الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ يأتون الشجرة التي وقعت عندها بيعة الرضوان ثم يصلون عندها . فرأى أن ذلك رجوع إلى الوثنية ، وأن هذه الشجرة أخذت مكان العزى فى الجاهلية . فشدّد رضى الله عنه النكير على كل من يصنع ذلك قائلا لهم : ألا إني لأنهاكم عن ذلك ، ولئن جئى إلى بأحد صلى تحت تلك الشجرة لأقتلنه قتلة المرتد عن دين الله . ثم أمر بالشجرة فقطعت .

وأما الأمر الآخر ، فهو أنه مر يوما بشاب من فتيان الأنصار فاستسقاءه فأعطاه الشاب شراها مشوبا يصل ، فأبى عمر أن يشربه قائلا : إن الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

فقال له الشاب الأنصارى : يا أمير المؤمنين إن هذه الآية ليست لك ولا لأحد من المسلمين ، واقرأ الآية من سورة الأحقاف : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢) .

وعلى هذا النهج من الاحتياط الشديد فى شئون الدنيا وشئون الدين كان أمير المؤمنين عمر يسير لا يخاف فى الله لومة لائم ، فلا يكاد يأتى أمرا إلا إذا كان له فيه من الله تعالى برهان ، أو أنه عنه من رسول الله ﷺ بيان . ولعله كان يرى من مصلحة الأمة أن يجعل عليا فى أهل الشورى دون أن يختاره للخلافة من بعده ، فنزل على ما تقتضيه مصلحة الأمة حتى لا يحتمل من

تبعات المنصب الشريف ما لا يد له فيه . وآية أنه آثر مصلحة الأمة على حب على ما يرويه الثقات من كلمة له مع عبد الله بن عباس ، فقد قال له يوما : يا عبد الله بن عباس ، ما تقول في قومكم وقد كرهوا أن يسندوا الخلافة إليكم ؟ .. قال عبد الله بن عباس : لا أعلم يا أمير المؤمنين .. فقال عمر : اللهم اغفر وارحم ، إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا في السماء بذخا وشمخا ، ولعلكم تقولون إن أبا بكر أراد الأثرة عليكم وهضمكم . « كلا » لكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم منه حتى يصير إليه ، ولو أنه ولي عليا ما هناكم مع قومكم أنهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره .

وأنت إذا تأملت في هذه الكلمات التي ينسبها الثقات إلى أمير المؤمنين عمر ، فإنك تراه — رضى الله عنه — يلتمس لأبي بكر العذر في ترشيحه للخلافة من بعده معرضا عن على ، لما رأى من أن ترشيح على ليس في مصلحة الأمة ، ولا في مصلحة على نفسه مع قومه . وآية الصدق في هذه الكلمات أن عمر كان يرى عليا أحرى القوم بمصعب الخلافة ، على ما يقرر هذا المعنى الإمام ابن جرير الطبري — رحمه الله — حيث قال :

« لما طعن أبو لؤلؤة المجوسى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب طعنة الموت قيل له : يا أمير المؤمنين ألا تستخلف ؟ .. قال رضى الله عنه : لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألتى : سمعت بيت يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » . ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألتى : سمعت نبيك ﷺ يقول : « إن سالما شديد الحب لله » .. فقال له رحل : لم لا تؤلى عبد الله بن عمر ؟ فقال — رضى الله عنه — : قاتلك الله يا هذا ، والله ما الله أردت بهذا القول .. وإن عمر لأرب له فى خلافتكم ، وإنى لم أحمد لها فأرغب فيها لأحد من أهل

يتى . إنها إن ثلث خيرا فقد أصبنا منه ، وإن ثلث شرا يصرفه الله تعالى عنا . حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد فيسأل عن أمر أمة محمد . فلم يسع القوم إلا أن يخرجوا من مجلسه مع حرصهم الشديد على أن يعاودوه يسألونه أن يستخلف عليهم ، ولذلك عادوا إليه يقولون له : إن من الخير للأمة أن يستخلف من يقوم بأمرها بعدك ، ولك في رسول الله ﷺ أسوة حين استخلف أبا بكر ، ثم لك في أبى بكر أسوة أيضا حين استخلفك . فأجابهم عمر مشيرا إلى على : لقد كنت أجمعت بعد مقاتلى أن أولى أمركم رجلا هو أحرأكم أن يحملكم على الحق ، ولكنى كرهت أن أنحملها حيا وميتا ، وعلمت أن الله غالب على أمره . فعليكم بالرهط الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : إنهم من أهل الجنة على عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة بن عبيد الله ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة . ثم أمر رضى الله عنه بدعوة المرشحين فلما دخلوا عليه وهو على فراشه بوجود نفسه ، نظر إليهم ثم قال لهم : أكلكم يطمع فى الخلافة بعدى ؟ فلم يجبه أحد منهم . فقال لهم ثانية : أكلكم يطمع فى الخلافة بعدى ؟.. فأجابه الزبير بن العوام قائلا : ما الذى يبعدنا منها ؟.. لقد وليتها أنت فقامت بها ، ولسا دونك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .. قال عمر : أملا أحرأكم عن أنفسكم ؟. قالوا : ما نشاء فإننا لو استعفيناك لم تعفا . فقال رضى الله عنه يصف القوم واحدا واحدا ..

أما أنت — يازبير — فإنك مؤمن الرضا كافر العصب : يوما إنسان ويوما شيطان . فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا ومن يكون لهم يوم تغضب ؟.. وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة . وأما أنت ياسعد بن أبى وقاص ، فإنما أنت صاحب قصص وأسهم .

وأما أنت يا عبد الرحمن بن عوف ، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجع إيمانك بهم .

وأما أنت يا عثمان ، فكأنى بك قد قللتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بنى أمية على رقاب الناس وآثرتهم بالنفى ، فسارت إليك عصابة من ذئبان العرب فذبحك على فراشك .

ثم أمر عمر بأن يدعى إليه أبو طلحة الأنصارى ، فلما جاء قال له : انظر بأبأ طلحة إذا عدتم من حفرتي فكأن فى خمسين رجلا من الأنصار معكم سيوفكم ، فخذ هؤلاء نفر بامضاء الأمر وتعجيله واجمعهم فى بيت ثم قف بأصحابك على باب البيت ليشتاوروا ويختاروا واحدا منهم ، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن فارجع إلى ما قد اتفقوا عليه ، فإن أصر الثلاثة الآخرون على خلافهم فاضرب أعناقهم . وإن مضت الأيام الثلاثة ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق السنة جميعا ليختار المسلمون لأنفسهم .

فهذه الكلمات من أمير المؤمنين عمر تؤكد أن عليا كان موضع التقدير والاحترام من أبى بكر وعمر جميعا ، وتؤكد فى الوقت نفسه أن المصلحة فى رأى كل منهما تقتضى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، لأنهما كما يعلمان أن قريشا لم تكن لترضى عن ترشيح عليٍّ للخلافة فآثر عمر أن يترك الأمر شورى بين الرهط الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة . ثم ذكر رضى الله عنه خمسة : عليا وعثمان وعبد الرحمن والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص ثم قال لهم : انهضوا إلى حجرة عائشة فاشتاوروا فيها . ووضع رأسه وقد نرف الدم ودخل القوم الحجرة وتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إن أمير المؤمنين لم يمت بعد فقيم هذا

اللفظ ؟.. ثم انتبه عمر وسمع الأصوات فقال : ليصلى بالناس صهيبي ، ولا يأتين اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبد الله بن عمر المجلس مشيراً ليس له من الأمر شيء ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم وإلا فأرضوه .. ومن لى يرضى طلحة ؟.. فقال سعد بن أبى وقاص : أنا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف إن شاء الله . ثم ذكر عمر وصيته لأبى طلحة الأنصارى وما خص به عبد الرحمن بن عوف من كون الحق فى الفئة التى هو فيها ، ثم أمر عمر أباطلحة الأنصارى أن يقتل المخالف منهم انقاء للفتنة .

فلما فرغ القوم من دفن عمر — رضى الله عنه — جمع أبو طلحة الستة فى البيت ووقف هو على الباب بالسيف فى خمسين من الأنصار معهم سيوفهم . ومضى القوم يتنازعون وقد افتتح طلحة بن عبيد الله النزاع فقال : أشهدكم على نفسى بأننى قد وهبت حقى من الشورى لعثمان . فقال الزبير ابن العوام : وأما أنا فأشهدكم أننى قد وهبت حقى من الشورى لعلى . وعلى ذلك بقى من المرشحين الستة أربعة : عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص . وهنا قال سعد بن أبى وقاص : أشهدكم أننى وهبت حقى من الشورى لعبد الرحمن بن عوف .

يقول ثقات المؤرخين : وما إن سمع عبد الرحمن بن عوف كلمة ابن عمه سعد بن أبى وقاص التى يتنازل له فيها عن حقه ، حتى تغير وجهه تغيراً يثير العجب ، ثم جعل يقول — فى تأثر شديد — : أما أنا فأبى أشهدكم بأهل الشورى أننى قد خلعت نفسى منها ، فأبى رأيت الليلة روضة خضراء كثيرة العشب فدخلها فحل ما رأيت أكرم مه ، فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى خرج لم يخرج على شيء ، ثم دخل بعير يتلوه تابع أثره حتى



خرج منها ، ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ومضى قصد الأولين ، ثم دخل يعبر رابع فوقع فى الروضة يرتع ويخضم ، لا — والله — لا أكون الرابع ، ولن يقوم أحد مقام أبى بكر وعمر فيرضى عنه الناس .

وليس يغيب عنك — رحمك الله — أن هذه الرؤيا تشير إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم إلى أبى بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرة المباركة يوم لا ينفع مال ولا بنون .. وقد كان من الحق على عبد الرحمن — رضى الله عنه — أن يخلع نفسه من الأمر على أن يوليه أفضل القوم فى نفسه .. فلما أعلن إلى القوم رأيه هذا وعزمه على خلع نفسه جعل يخاطب القوم فيقول : « أيها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين ، فقال عمار بن ياسر : إن أردت ألا يختلف الناس فبايع علياً . وقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا . ولم يشأ عبد الرحمن أن يستمر فى طلب رأى الناس خشية الحلاف ، فقال : أشهدكم أننى قد أخرجت نفسى من المخلافة على أن أختار أحد الرجلين : علياً أو عثمان . ثم بدأ بعليّ فقال له : أبابيك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر . فقال عليّ — كرم الله وجهه — بل أبابيك على كتاب الله وسنة رسول الله واجتهاد رأى » .

ولم يجد عبد الرحمن بدا من أن يتجه إلى عثمان فعرض عليه ما عرضه على عليّ .. فقال عثمان « نعم » .. فعاد عبد الرحمن إلى عليّ مرة أخرى فعرض عليه ما كان قد عرض من قبل فتمسك عليّ برأيه ، فأعاد العرض عليه ثلاث مرات ، فلما رأى أنه غير راجع عما قاله ورأى عثمان يعم له بالإحابة ، صفق على يد عثمان قائلاً له : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » .. وبذلك عدا عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين .

يقول المؤرخ الثقة: إن علياً خرج من المجلس بعد أن تم الأمر لعثمان وهو يقول : ليس هذا بأول يوم تظاهرت فيه علينا . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

ولعله من ها بدأ الرأي يختلف وتعرضت الأخوة الإسلامية لمحنة أليمة انصدع بها الصف وتفرقت الكلمة وامتلاّت الصدور بالضغائن والأحقاد . وقد ضاعف هذا البلاء أن اجتمع فريق من أنصار عليّ فبايعوه بيعة هي إلى الإكراه عليها أدنى منها إلى الاختيار فيها على ما تشير إلى ذلك المعنى خطبته :

« فمارعني إلا والناس كعرف الضبع إلى ، يثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد داسوا الحسين وشقوا رداي . فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ثم قال — كرّم الله وجهه — : « أما والدي فلقى الحجة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها وسقيت آخرها بكأس أولها ثم لألقيتم دنياكم هذه أرهد عندي من عطفة عنز .

## لا يدفع الحذر القدر

إن البلية في محنة التحكيم بين عليّ ومعاوية أبعد أثراً وأسوأ مغزى من الحكم لأحد الرجلين على صاحبه ، ذلك أن القوم — غفر الله لهم — قد عادوا إلى حكم الجاهلية في التعصب للقبيلة بعد إذ أكرمهم الله بالإسلام ، وجعل مقياس التفاضل بينهم تقوى الله والاعتزاز بجامعة الإسلام ، على ما يقول شاعرهم :

أبى الإسلام لأب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو ثميم  
إن الناس حين رضوا بالتحكيم كان من رأى الإمام — كرم الله وجهه —  
أن يمثله في هذه القضية عبد الله بن عباس ، إلى جانب عمرو  
ابن العاص الذي اختاره معاوية غفر الله له ، فذلك حيث قال الإمام : إن  
معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن  
العاص ، وأنه لا يصلح للقرشي إلا قرشي مثله فعليكم أيها الناس بعبد الله بن  
العباس فارموا به ، فإن عمرا لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة  
إلا عقدها ، ولا يرم أمراً إلا تنقضه ، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه . ولكن  
الأشعث أحد رجال الإمام جعل يقول : لا .. والله لا يحكم فيا مضر بن  
حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جعلت قرشي رجلاً  
من مضر .

يريد الأشعث بكلمته هذه أن ابن العاص قرشي مضرى وأن ابن العباس  
قرشي مضرى أيضاً ، فإذا اجتمع الرجلان في التحكيم كان شرف التحكيم  
راجعاً إلى مضر وهو يأبى ذلك ، فيريد أن يكون الأمر في التحكيم إلى مضر  
وأهل اليمن . وهنا قال الإمام : إني أخاف أن يخدع بمنيكم الذي

تفترحوه . فإن عمرا يركب الصعب إلى ما يكون له فيه هوى ، ولكن الأشعث مضى في قوله يقول : والله لأن يحكم الحكمان ببعض ما نكره — وأحدهما من أهل اليمن — أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمها وهما مضران .

ولم يسمع الإمام إلا أن يأخذ برأى الأشعث ومن وافقه ، فمضى بقول — كرم الله وجهه — قد أيتم إلا بأبا موسى في مواجهة ابن العاص ؟ .. قالوا نعم .. قال : فاصنعوا ما شئتم . فبعثوا إلى أبي موسى فأخبروه أن الناس قد اصطلحوا فحمد الله ، ثم أخبروه أنهم قد جعلوه حكما فكره ذلك قائلا : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقد رأى الإمام — كرم الله وجهه — أن ينصح عمرو لإبراء للذمة وأداء للأمانة ، فبعث إليه مع شريح بن هانئ بكلمات وقال له : قل لعمرو إذا لقيتهم إن عليا يقول لك : إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه ، وأن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده .

والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق فلا تتحامله ... واذكر دائما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْقَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١) .

### طلائع الخديعة :

لقد كان الإمام — كرم الله وجهه — يكاد ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فقد بدأ داهية العرب عمرو ينصب شباكه حول أبي موسى حتى ينال

منه ما يريد . ذلك أن الحكمين حين التقيا بدومة الجندل ، أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام قائلا له : إنك صحبت رسول الله ﷺ قبلي ، وأنت أكبر مني سنا ، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا . فجعل ذلك سنة يجريان عليها وعادة يحتكما إليهما . وكان عمرو يعطى أبا موسى صدر المجلس وكان لا يتكلم قبله ، ثم أعطاه التقدم في الصلاة وفي الطعام فلا يأكل قبله ، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجل الأسماء قائلا له : يا صاحب رسول الله ﷺ — . وما زال الداهية بأبي موسى — وكان رجلا تدركه غفلة الصالحين — حتى اطمعن إليه ، وقد ظن أنه لا يغشه . فلما حان الوقت الذي كان قد قدره عمرو سنحت الفرصة له ، فبدأ يتحدث إلى أبي موسى قائلا له : أخبرني مارأيك يا أبا موسى ؟ .. قال أرى أن أخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاعوا . فقال عمرو : الرأي والله مارأيت يا صاحب رسول الله . ثم أقبلأ إلى الناس وهم محتمعون فبدأ أبو موسى الكلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة . فقال عمرو : صدق أبو موسى . ثم قال له : تقدم يا صاحب رسول الله فتكلم . فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال له : ويحك يا أبا موسى ، إنى لأظنه خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده فإنه رجل غدار ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به في الناس خالفك ، وقد أدركت أبا موسى عقلة الصالحين . فقال : إيهـا<sup>(١)</sup> عنك يابن عباس ، لقد اتفقنا . ثم تقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها وألم نشعنها

(١) إذا أراد العرب أن يسكت صاحبه قال له : إيهـا ، بصب الهاء وتوניהا ، بمعنى اسكت .

من أن لا تتباين أمورهما ، وقد اجتمع رأيي ورأي صاحبي على خلع عليّ  
ومعاوية حتى تستقبل الأمة هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولون  
أموالهم من أحبوه .. وإنني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولوا  
من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى فقام عمرو بن العاص في مقام أبي  
موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا — أبا موسى — قد قال ما سمعتم  
وخلع صاحبه علياً ، ولكنني أثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنه ولي  
عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . فقال له أبو موسى : مالك  
— لا وفقك الله — لقد غدرت وفجرت . إنمّا مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه  
يُلَهْثُ أو تتركه يُلَهْث . فقال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل  
أسفارا.. ثم حمل شريح بن هانئ على عمرو فقتلعه بالسوط ، وحمل ابن  
عمرو على شريح فقتلعه بالسوط ، ثم قام الناس فحجزوا بينهما . فكان شريح  
بعد ذلك يقول : ما ندمت على شيء بدامت على أن لا أكون ضربت عمرا  
بالسيف بدل السوط ، جالبا عليّ قضاء الله ما كان جالبا . ثم التمس  
أصحاب الإمام أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة .. وقد كان ابن عباس  
يقول : قبح الله أبا موسى ، لقد حذرته وهديته إلى الرأي فما عقل . وكان أبو  
موسى يقول : لقد حذرني ابن عباس غدره الفاسق ، ولكنني اطمأننت إليه  
وظلست أنه لا يؤثر شيئا على التصحح للأمة .. ثم رجع عمرو إلى منزله من  
دومة الجندل فكتب إلى معاوية :

أنتك الحلافنة مرفوفة	هنيئا مريضا تقر العيوننا
تزو إليك زفاف العروس	بأهون من طعنك الدارعينا
وما الأشعرى بصلد الزناد	ولا خامل الذكرفى الأشعرينا
ولكن أتيتحت له حية	يظل الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقتلت وكنتم امراً	أجهجه بالحصم حتى يبيننا

فخذها ابن هند على بعدها فقد دافع الله ما يحظرون  
وقد صرف الله عن شامكم عدوا مينا وحربا زبونا

يقول الرواة : .. فقام سعد بن قيس الهمداني فقال : والله لو اجتمعنا  
على الهدى زدتمانا على مانحن الآن عليه .. وما ضللكما بلأزم لنا  
وما رجعتما إلا بما بدأتما به . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس .. ثم قام  
كردوس بن هانيء مفضبا فقال :

رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربا والنبي وبالذكر  
وبالأصلع الهادي على إمامنا رضينا بهذا الشيخ في العسر واليسر  
رضينا به حيا وميتا وأنه إمام هدى في الحكم والنهي والأمر  
فمن قال لا قلنا بلى إن أمره لأفضل مانعطاء في ليلة القدر  
وما لابن هند بيعة في رقابنا وما يننا غير المثقفة السمر  
وضرب يزيل الهام عن مستقره وهيئات هيات الرضا آخر الدهر  
أبت لى أشياخ الأراميل سبة أسب بها حتى أغيب في القبر

ثم تكلم بعد ذلك يزيد بن أسد القسري — من قواد معاوية — فقال :  
يا أهل العراق ، اتقوا الله فإن أهون ما تردنا وإياكم الحرب إليه ما كنا عليه  
بالأمر وهو الفناء ، وقد شخصت الأبصار إلى الصلح وأشرفت الأنفس  
على الفناء وأصبح كل امرئ يكي على قتل . ما لكم رضيت بأول أمر  
صاحبكم وكرهتم آخره ، إنه ليس لكم وحدكم الرضا .

وغنى عن البيان أنه لم يكن للأشعرين بد من كلمة في هذا المجال فقام  
أحد شعرائهم فقال :

أبا موسى ، خدعت وكنت شيخا قريب القعر مدهوش الجنان  
رمى عمرو صفاتك يا بن قيس بأمر لا تنوء به البدان  
وقد كنا نجمجم عن ظنون فصرحت الظنون عن العيان  
فعض الكف من ندم ومناذا يرد عليك عضك بالبنان

إن الراضى بقضاء الله وقدره ظافر بسكينة النفس ، طامع إلى نعيم الأمل ، وعلى غير هذا النهج يمضى الساعطون ، فإذا الواحد منهم يرى نفسه نهب حيرة ترمى بصاحبها إلى مناهات من يأس أليم ، ثم إذا هو أحق بقول الشاعر الحكيم :

ليس من مات فاستراح بميت      إنما الميت ميت الأحياء  
إنما الميت من يعيش كئيبا      كاسفا باله قليل الرجاء  
ومن هنا كان الراضون بقضاء الله أنعم خلق الله بالا وأحسنهم حالا وأحمدهم عاقبة ، حتى كان حسن الظن بالله هتاف نفسه يلوذ به كلما حز به أمر أو نزلت به ضائقة ، فلا يلبث أن ينشد مع الشاعر ما يزداد به يقينه بفضل الله :

اصرف الهم ما استطعت عن النفس      فحملاتك الهموم جنون  
إن ربا كفساك بالأمس ما كان      سيكفيك في غد ما يكون  
ومن هنا يرى الناس أهل الإيمان يحملون الله تعالى في كل حال :  
يحملونه في السراء يستجلبون بحمده أفانيق النعماء ، ويحملونه في  
الضراء يستدفعون به أهويل البلاء .

ولا يرتاب البصراء بشئون أهل الإيمان في أن الإمام — كرم الله وجهه —  
كان من أعلم عباد الله بجلال الله ، ومن أحرصهم على تجنب مساخطه  
والتطلع إلى مرضيه ، ولهذا لم يجرع حين أنباء القوم بأن قضية التحكيم  
جاءت على غير ما كان يتوقع المخلصون في طلب الحق والمتأدبون بأدب  
الإسلام ، فخطب خطبته التي تقوم على وجه الدهر شاهد صدق على أنه في  
الدهاء وسعة الحيلة والقدرة على بلوغ غايته من أيسر طريق . وقد كان الإمام  
نفسه يعلم هذه الحقيقة ، وكذلك كان يعلمها على غاية الوضوح عبد الله بن  
عباس كما تشير إلى ذلك كلمته التي يرويها مؤلف أتنساب الأشراف حيث



ذكر أن سائلا سأل ابن عباس قائلا له : ما الذى منع عليا أن يبعثك مع عمرو يوم التحكيم بدلا من أمي موسى ؟ .. فأجابه ابن عباس يقول : لو كنت هناك لقعدت على مدارج أنفاس عمرو أنقض ما أبرم وأبرم ما نقض وأطير إذا أسف وأسف إذا طار ، ولكن سبق قدر وبقي أسف ومع اليوم غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين .

وأحسب أنك — حفظك الله — أسير رغبة عاتية تنزع بك إلى سؤال تبغى له جوابا تستريح به وتريح : ما الذى دعا الإمام كرم الله وجهه إلى أن يترك رأيه إلى رأى آخرين من أصحابه ، لاشك يعلم أنهم كانوا غير مخلصين لشخصه الكريم ، بل أنه لا يشك فى أنهم استجابوا للدواعى عصبية قبلية جاهلية تعاند آداب الإسلام ؟ ..

ومبلغ علمي أن الإمام كان حريصا أبلغ الحرص على الاقتداء برسول الله ﷺ كلما امتهدت إلى القدوة به سبيل ، وليس يغيب عن الفقهاء بالسيرة النبوية الشريفة أن رسول الله — صلوات الله عليه — كان له فى معركة أحد موقف نزل فيه عن رأيه الشريف إلى رأى من كان حوله فى تلك الموقعة ، وفيهم المؤمنون الصادقون إلى جانب المنافيين الكاذبين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين . ولم يكن نزول رسول الله — صلوات الله عليه — عن رأيه إلى رأى من كان حوله إلا درعا للفتنة ومحاولة لجمع الكلمة . ومن ها رأى الإمام أن القدوة برسول الله تشتمل على غير كثير .. على أن ولى الأمر ينزل عن رأيه إلى رأى رعيته تحبا للفرقة وأخذنا للطريق على فتنة الاختلاف . وكذلك كان الإمام رضى الله عنه يرى رأيا لا يشك فى أنه هو الصواب ، ولكنه مع ذلك آثر أن ينزل إلى رأى أصحابه ونصحاته كما تدل على ذلك خطبته التى يقول فيها بعد أن وقع مالم يكن القوم يتوقعون ، فخلع أبو موسى عليا وثبت عمرو معاوية فى إمارة

المؤمنين .. فذلك حيث قال كرم الله وجهه : إن معصية الناصح الشفيق العالم المحرب تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ونخلت لكم مخزون رأيى فأيتتم على إباء المخالفين الجفافة ، والمعاندين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بصحة .. فكنت أنا وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمو أمرى بتمسرج اللسا فلم يستينوا النصيح إلا ضحى الغد  
وليس يجهل الذين يتأملون فى قضية التحكيم أن أكثر الناس أو كثيرا  
مهم كانوا يضعون أبا موسى الأشعرى دون عمرو بن العاص .

---

## على في محنة الخلافة

أسلفنا لك — حفظك الله — أن علياً كرم الله وجهه قبل منصب الخلافة على غير رغبة فيه ولا ترخيص به ، فهي — في رأيه الشريف — دائرة بين المحنة التي يستعاض بالله تعالى من شرها وبين المنحة التي يحمد الله تعالى على خيرها . وهو كرم الله وجهه إنما قبلها شبه مكره عليها .. ومعروف عند فقهاء الأمة أن هذا المنصب الشريف يجب قبوله على كل مسلم كفاء يستطيع القيام بقضاء حقه ورعاية مقتضى الأمانة فيه . وأمير المؤمنين على لا يرتاب أحد في أنه أقدر الأمة على أداء الأمانة والنهوض بأعباء الإمارة بما توافره من خصائص لم يشركه فيها أحد من قبل . ولن تتوافر — في مبلغ ما نعلم — لأحد من بعد حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي هذا المقام يروى الثقات عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن علياً كرم الله وجهه خطب في اليوم الثاني من بيعته في المدينة فقال :

« ألا إن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم ﷺ . والذي بعث محمداً بالحق لتبليبن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قد قصروا وليقصرون مقصرون كانوا قد سبقوا . والله ما كتبت كلمة ولا كذبت كلمة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم . ألا وإن الخطايا خيل شمس ، وإن التقوى مطايا دأل ، ولئن أمر الباطل لقدبما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، على أنه قل ما أدير شيء ثم أقبل . ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته إلى

حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه العدل فالجور عنه أضيق .  
ثم ما لبث كرم الله وجهه أن أمر بكل سلاح وجدوه لعثمان في داره  
فَقُض ، كما قبضت إبل من إبل الصدقة كانت في داره . وقد كان من عفة  
الإمام وشرف نفسه أن أمر بالكف عن جميع أمواله الخاصة به التي وجدت  
في داره وفي غير داره ، ثم أمر كرم الله وجهه أن تسترجع الأموال التي أجاز  
بها عثمان على أي صورة وجدت .

ولقد كان هذا التصرف سبباً في إهاجة الفتنة بين بني هاشم وبني أمية ، حتى  
قال الوليد بن عقبة الذي هو أخو عثمان من أمه شعرا يشير الفتن ويوقظ الضغائن :  
بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه  
بنى هاشم إلا تردوا فإننا سواء علينا قاتلناه وسالبه  
ولعل من الحق علينا أن نقف بثك عدة وقفات حيال هذه الخطبة ، لعل  
فيها معوانا لك على استجلاء غامض أو إيضاح مبهم أو تفصيل مجمل أو  
تكميل ما يحتاج إلى تكميل :

وأولى هذه الوقفات حول اعتزام الإمام على كرم الله وجهه رد ما أقطعه  
عثمان من المال ، ولو كان مهراً للزوجة وثمناً لأمة .

وخلاصة القول في هذه الوقفة أن مهور النساء ملك لمن ، والله تعالى قد صان  
للزوجة حقها في المهر بما يذلت من نفسها للزوجة ، على ما تشير إلى ذلك  
الآية الشريفة من سورة النساء : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ  
وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتُمْ أَخْلَوْهُ بُهْتَائًا وَإِنَّمَا  
مِثْلُهَا .. وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ  
مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (١) .

فإذ قد كان الإسلام قد حصن مهر الزوجة على هذه الصورة من القوة كما حصن الملكية ، فكيف يسوغ المسلم الفاقة أن ينسب للأمير المؤمنين عليّ — في ورعه وفضله وعلمه وزهده — أن يسلك مسلكا يتجهّم القرآن في احترامه ملكية المال .

وربما كانت هذه الخطبة وأمثالها إحدى المفتريات الكثيرة التي يفترها أهل الأهواء انتصارا للمذهب أو استرضاء لنزوة ، من حيث كانت مصادرة مهور الزوجات وأثمان الإماء خروجاً على منطق الفطرة السوية وتجهماً لأدب القرآن العظيم ، ومعاذ الله أن يقول الإمام ذلك أو يأمر به أو يرضى عنه .

والوقف الثانية حول إقطاع عثمان ذوى قرباه ما يعينهم على مروعاتهم ، فذلك حيث ذكر — رضى الله عنه — فى مجلسه الذى جمع ولاته وبعض أصحاب رسول الله ﷺ فقال : « إني مخبركم عنكم وعما وليت من الأمر ، فأذكركم بأن صاحبى اللذين كانا قبلى قد ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسيل ، لأنهما لم ييرا ذويهما بعتاء من بيت المال وهما يقصدان بذلك وجه الله تعالى ويحتسبانه عنده ، وقد كان رسول الله ﷺ يعطى قرابته .. وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من بيت المال لهم أحتسبه عند الله وأقتدى فى ذلك برسول الله ﷺ . فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى تبع لأمركم . فأجاباه أصحابه : لقد أصبت وأحسنست . ثم خرجوا راضين .

ولست أراك محتاجاً إلى من يذكرك — أعزك الله — بأن أمير المؤمنين عثمان كان يجتهد اجتهداً سوغ له أن يعطى قرابته ، وأن صاحبيه أبا بكر وعمر لم يعطيا قرابتهما لأن اجتهداهما لم يأذن لهما بذلك . فأبو بكر وعمر

— رضى الله عنهما — إنما معاقراتهما ابتغاء مرضاة الله . وعلى ذلك يعضى تصرف عثمان في إعطائه قرابته إذ كان يتغنى بهذا العطاء وجه الله . وربما كان صنيع عثمان أدنى إلى الصواب من حيث كان ينظر إلى صنيع رسول الله ﷺ في هذا الباب .

والدليل الذى استند إليه أمير المؤمنين عثمان ماثل فى الآية الشريفة من سورة الأنفال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) .

ففى هذه الآية يذكر شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كانت الغنيمة تقسم على خمسة أحماس : أربعة منها بين من قاتل عليها ، والخمس الباقى يقسم على أربعة هم : قرابة رسول الله ﷺ ، واليتامى والمساكين وابن السبيل .

ومعلوم أن رسول الله لم يأخذ من الخمس شيئا .. فلما لحق بالرفيق الأعلى رد أبو بكر نصيب قرابة رسول الله إلى المسلمين فجعل يحمل به فى سبيل الله ، لقوله ﷺ : ( نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ) .

وثالثة الوقفات : أن عثمان رضى الله عنه كان قد قرر — على مرأى ومسمع من المسلمين أن يرد ما كان قد أقطعه ، ولكن المنية عاجلته قبل ذلك ، ولو كان قد مدله فى العمر لأمضى الرد على ما قرره فى مجلس ولاته وأقربائه . فليس يسوغ لمسلم أن يأخذ على الإمام كرم الله وجهه أنه قد خاشن أهل عثمان واستعدهم على نفسه ، وأنه قد أنكر حق عثمان عليه .

ذلك أنه إنما فعل ما كان قد أمر به عثمان ، فهو — برده قطائع عثمان إلى بيت المال — جمع بين أمرين : أحدهما إمضاؤه رغبة الخليفة الراحل ، وثانيهما إرضاءه الثائرين الذين لم تكن لهم حجة على عثمان إلا هذه القطائع التي كان يقطعها أهله وذويه . ومن حق الرعية على الإمام أن يسترضيها بما لا ينقص المروعة ولا يتجهم الإسلام .

---

## إلى اللقاء أيها الشهيد المظلوم

حين مضى معاوية إلى الشام بدأت الفتنة تتحرك إلى غايتها المشؤمة فحاصر الأغبياء الفجرة دار أمير المؤمنين عثمان ، فكتب رضى الله عنه إلى على — كرم الله وجهه — : « أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبى ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه ، فأقبل إلى — عدوا كنت أم صديقا — : فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدر كسى ولما أمزق وقد استجاب الإمام دعوة أخيه عثمان فذهب إليه وقد أمر الناس أن يركبوا معه : فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين والأنصار ، ثم دخل على عثمان فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس ليسكنوا إلى ما بعدهم به من النزوع<sup>(١)</sup> عما أسخطهم وقال له : إن البلاد قد تمخضت عليك ، ولا آمن من أن يحىء ركب من جهة أخرى فتقول لى يا على اركب إليهم . فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمتك واستخففت بحقك ، وإنى أعوذ بالله من ذلك . وقد قبل عثمان نصيحة على — كرم الله وجهه — فخرج إلى الناس ، ثم خطب الخطبة التى ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة قاتلا لهم : فمئلى يتوب إلى الله ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم وليروا رأيهم ، وليذكر كل واحد ظلامته لأكشفها وحاجته لأقضيها ، فوالله الذى لا إله إلا هو لن ردى الحق عبدا لأستن بسنة العبيد ولأذل ذل العبيد ، وما عن الله تعالى من مذهب إلا إليه . والله لأعطينكم الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ثم لأحتجب عنكم .

وما إن سمع القوم هذه الكلمات حتى رفوا له وبكوا حتى غضوا<sup>(٢)</sup>

(١) النزوع عن الشيء : الكف عنه . (٢) بلى دموعهم لحامهم .



لحاحم ، وبكى هو أيضا . فلما نزل وجد مروان ونفرا من بنى أمية فى منزله قعودا ولم يكونوا قد شهدوا خطبته وإن تكن قد بلغتكم . فلما جلس — رضى الله عنه — قال مروان : يا أمير المؤمنين أأتكلم أم أسكت ؟ .. فقالت نائلة ابنة الفرافصة زوجة عثمان : لا بل تسكت يا مروان فأنتم والله قاتلوه وميتو أطفاله . إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها . فقال لها مروان : ما أنت وذاك ؟ والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ . فقالت نائلة : مهلا يا مروان عن ذكر أبى إلا بخير . والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه ينال عيبه لأخبرتكم من أمره بما يسيؤكم ولا أكذب فيه . فأعرض عنه عثمان لسوء أدبه وفساد نيته وصدوره فيما قال عن عاطفة هوجاء وحقد أسود .

ولست تجهل — أعزك الله — أن الفتنة ينفخ الشيطان فى نارها فلا يبقى معها شيء من الخير إلا مشوبا بشر كثير . وقد كانت الفتنة هنا تنفيا أمرين : أحدهما ، أن يقتل عثمان لكى يقتل به الأمن والسكينة والسلام . وثانيهما ، أن يجد مدبروها من أعداء الإسلام سبيلا إلى اتهام على — كرم الله وجهه — بقتل عثمان رضى الله عنه ، وقد كان هو الشجاع فى حلق أهل الفتنة وكان القذى فى أعينهم وكان العقبة الكأداء التى تحول بينهم وبين إمضاء خطبتهم فى القضاء على العروبة والعرب وعلى الإسلام والمسلمين . وكانت الخطة الشيطانية ترتبط بمروان بن الحكم بن العاص أن يقوم خطيبا فى الناس على شدة طيشه وذرب لسانه وسوء أدبه ، فخرج إليهم وقد ركب بعضهم بعضا من شدة الزحام ثم قال لهم : « ما شأنكم ؟ لقد اجتمعتم كأنكم جئتم للتهب والسلب . ألا شأنت الوجوه . أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ والله لئن ربتموننا لنمرن عليكم ما حلا وليحلن بكم ما يسيؤكم ولا تحمدون عاقبته . ارجعوا إلى منازلكم فإننا غير مغلوبين على ما فى أيدينا . فرجع الناس خائفين يشتمون عثمان ومروان .. وانتهاز سفلة

القوم الفرصة فدخلوا على عثمان وقتلوه .. قتله بطانته ، ومن قبله قتل عمر .. قتله عدله ، ومن بعده قتل علي .. قتله قضاؤه . وصدق رسول الله ﷺ في قوله الشريف ( النجوم أمة السماء ، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمة لأصحابي ، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد ) .

ففي هذا الحديث يقول ابن منظور صاحب لسان العرب : إن النبي أراد بذهاب النجوم تكويرها وانكسارها ، وأراد بوعد السماء انشقاقها وذهابها ، وأراد بوعد أصحابه ما وقع بينهم من الفتن ، وكذلك أراد بوعد الأمة انصداع شملها واعوجاج صفها وتفرق كلمتها . وجملة ما أراد صلوات الله عليه إنما هو إشارة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير ، ذلك أنه لما كان رسول الله ﷺ بين الناس كان يبين لهم ما يختلفون فيه .. فلما لحق بالرفيق الأعلى جالت الآراء واختلفت الأهواء إذ كان الصحابة يسئلون الأمر إلى الرسول في قول أو فعل أو دلالة حال . فلما فقد — صلوات الله عليه — قلت الأنوار وقويت الظلمات ، وكذلك حال السماء عند ذهاب النجوم .

هذا ما يتعلق بمقتل أمير المؤمنين عثمان — رضى الله عنه — في تدبير المتآمرين . وأما ما يتعلق بالإمام علي — كرم الله وجهه — في ذلك التدبير الخبيث فإن الفتنة لم تستطع أن تناله فتشركه في دم عثمان ، ذلك أن الموثوقين من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون مقتل عثمان شرا مستطيرا ، فكانوا لا يريدون الإساءة إلى الإسلام بإلقاء المسلمين في مناهات من الطنون لا تقوم بها حجة ولا تستند إلى دليل .

وكما كانوا يأتون بأنفسهم عن هذا البلاء ، كانوا يأتون بالإمام — كرم الله وجهه — عن هذا البلاء أيضا ، عرفانا منهم بقدره وإحقاقا للحق وإبطالا للباطل ، ولو كره الذين يترصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

وآية ذلك ما يرويه ابن كثير من أن حذيفة بن اليمان كان عنده رجل من إخوانه في مرضه الذي مات فيه ، وقد كان الرجل يتاجى امرأة حذيفة في كلمات خافتة وحرص شديد ، ففتح حذيفة عينيه فسألها ، فقالت : خيرا . فقال حذيفة : إن شيئا تتناجيان به دوني لا خير فيه . فقالت : قتل الرجل — عثمان — . فاسترجع حذيفة ثم قال : اللهم إني كنت من هذا الأمر بمعزل ، فإن كان خيرا فهو لمن حضره وأنا منه برىء ، وإن كان شرا فهو لمن حضره وأنا منه برىء . اليوم تغيرت القلوب يا عثمان ، اليوم تغيرت القلوب يا عثمان .

وكذلك قال أبو موسى الأشعري أسفا حزينا لا يكاد يملك دمعه : « لقد قتل الفجرة أمير المؤمنين عثمان » . وعلى غائب في أرض له ، فلما بلغه نبأ الفاجعة قال : اللهم مارضيت ولا مألأت . ثم وقف على باب المسجد أو عند أحجار الزيت رافعا صوته يقول : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . ثم إن عليا — كرم الله وجهه — دخل على عثمان فوقع عليه وجعل يبكى حتى ظن الناس أنه سيلحق به .

يقول علي — كرم الله وجهه — ولقد جاعوني للبيعة فقلت : والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ : ( إني لأستحي ممن تستحي منه الملائكة ) . وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل لم يدفن بعد ، فانصرفوا عني . فلما دفن رجعا يسألونني البيعة فقلت : اللهم إني أشفق مما يدعونني إليه . فتذاكروا<sup>(١)</sup> علي تذاك الإبل الهيم<sup>(٢)</sup> يوم وردها ، وقد أرسلها راعيها وخلعت مثايبها<sup>(٣)</sup> حتى ظننت أنهم قاتلني أو أن بعضهم قاتل بعض لدى . فرحت أغلب هذا الأمر ، بظنه وظهره فلم أجد مفرا من قبول البيعة والتهوض بأعبائها ، وإلا كنت مفرطا في قضاء

(١) الحبال .

(٢) العطاش .

(٣) ازدحموا .

الحق الذي ناطه الله تعالى بالقادرين على فضائه للأمة .. وقد تمثلت الذين جاءوا بإيعوني كأنهم لم يجدوا غيري ، يضعون أماناتهم عندي ويطلبونني أن أواكبهم إلى إمتضاء ما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على بطنة ظالم ولا سغب مظلوم . فعند ذلك بسطت يدي للبيعة عاقدا العزم على المحاماة عنها مهما يكن الطامعون فيها من الكثرة والقوة ، ومهما تكن تبعاتها من الثقل والمشقة ، والله المستعان .

وأنت إذا تأملت في هذه الكلمات وما إليها من رواية الرضى وغيره عن أمير المؤمنين علي ، فإنك لا تأذن لطيف من الشك يلم برأسك فيوحى إليك أن الإمام كان يطلب إمارة المؤمنين على أى حال ، لا يبالى فى ذلك حرجا ينزل بالأمة أو فتنة ينفخ فى نارها الحرص على الجاه والظفر بالسلطان . ذلك أن الإمام لو كان يريد الخلافة على أية صورة لأخذ بنصيحة عمه العباس ومعه بنو هاشم مع نصيحة أبى سفيان بن حرب ومعه بنو أمية ، ولكنه أبى ذلك وأنكره رهدا فيه أو تخرجنا من تحمل تبعاته أمام الله وأمام الناس .

ذلك أن عمه العباس رضى الله عنه أشار عليه بها أكثر من مرة فى أكثر من موضع ، فلم يكن جواب الإمام له إلا الإعراض الزاهد المتأنثم .. فذلك هو ما يقوله العباس :

أعزنى سمعتك يا علي وافقه ما أقول لك ، واذكر أننى أشرت عليك عند مرض رسول الله ﷺ أن تسأله عن هذا الأمر فيمن هو ولكنك أبيت ، ثم أشرت عليك عند وفاة أبى بكر أن تعاجل البيعة وقد كان معى أبو سفيان سيد بنى أمية ولكنك أبيت ، ثم أشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى أن ترفع نفسك عنها فلا تدخل معهم .. ولكنك أبيت ، فاعلم يا علي أن هؤلاء لا يرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرك . وإيم الله لن تناله إلا بشر لا ينفع معه خير .

والذين يعرفون الدهاء العربى فى نظرتة السافذة وتجربته الحكيمة ، واستخراج النتائج الصادقة من مقدماتها الأصيلة ، يعرفون العباس بن عبد المطلب متمتعاً بكل هذه الفضائل بين كبار الرجال ، ثم يعرفون أن علياً — كرم الله وجهه — كان ينظر إلى العباس نظره إلى أبيه أى طالب ، أحذا بمنطق الأدب النبوى الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : ( عم الرجل صنو أبيه ) .

فإذا قد كان العباس قد أوصى علياً بهذه الوصايا الشريفة ، فلا جرم أنه كان شديد الأخذ بها والوقوف عدها ، وفى ذلك ما يدعو إلى اليقين بأن الإمام — كرم الله وجهه — لم يكن ليحرص على الظفر بهذه الخلافة مع هذا البلاء الذى كان يستشعره فى أعماق نفسه الواعية وفى كلمات عمه الصادقة . ومثله — كرم الله وجهه — لا يخادع نفسه ولا يخاطل عمه ، شأنه فى ذلك شأن الهاشميين الشرفاء فى كل زمان ومكان .

---

## على والبيان العربى

من حق هذا العنوان أن نبدأ الحديث فيه بقانون يحتكم إليه فرسان الفصاحة وأهل البصر بحر الكلام . وهذا القانون — بالنسبة إلى الكلام — كالموازين دقيقة الحس كاملة الضبط بالنسبة إلى الجواهر الثمينة والمعادن النفيسة .

وخلاصة هذا القانون أن البيان لا يستحق اسم البيان إلا إذا اجتمعت له فضيلتان : تخير اللفظ ، وصوع المعنى . ذلك أن الشأن مائل فى إقامة الوزن وسهولة المخرج وصحة الطبع وجودة السبك ، وأما الشأن فى المعنى فإن سبيله سبيل الشئ الذى يقع التصوير فيه .. كالقضة والذهب يصاغ مهما خاتم أو سوار . فإذا أردت أن تحكم على فضيلة الخاتم أو السوار فلا بد لك من النظر فى صوع الخاتم وجودة الصنعة أو رداءتها ، وعلى ذلك يكون حكمك للخاتم أو عليه وللسوار أو عليه . وعلى هذا القياس يكون نظرك إلى المزية فى الكلام ، فلا يسوغ لك أن تنظر فى مجرد معناه دون عاية منك بالصنعة فى لفظه والجودة فى صنعه . فإذا نظرت إلى بيت من الشعر ففضلته على آخر من أجل معناه دون نظرك إلى صوغ ألفاظه ، فإنك تكون قد فضلت خاتما على خاتم أو سوارا على سوار من أجل المادة التى صنع منها ، وذلك لغو من القول لا يهتم به البليغ الذى يرى الكلام الحر جيدا فى معناه جميلا فى شكله وصورته . وعلى هذا السنن جرى فصحاء العرب وبلغاؤهم . وقد كان ممن سبق فى هذا المضمار سبقا بعيدا وأتعب من حاء بعده تعباً شديدا ، أمير المؤمنين وأمير البيان العربى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ورضى عنه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان التطبيق معوانا على تجلية النظريات ، كان من الحق علينا أن نذكر لك من كلمات الإمام ما يزيدك اطمئنانا إلى أن كلامه يبعث في المرتبة الثالثة بعد كلام الله تعالى ، ثم بعد كلام رسول الله ﷺ . وأول ما نبدأ به من ذلك وصية له قبل موته ، بعد أن ضربه ابن ملجم ضربته القاتلة : « وصيتي لكم ألا تشرکوا بالله شيئا ، وألا تضیعوا سنة نبيكم . أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم . أنا بالأمس صاحبكم واليوم عبرة لكم وغدا مفارقكم . فإن بقيت فأنا ولي دمي ، وإن فُتيت فالفناء ميعادي ، وإن عفوت فالفعلو لي قربة ولكم حسنة ، ﴿ فَاَعْفُوا وَاصْفَحُوا . اَلَا تُحِبُّونَ اَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ . (١)

ومن وصية له كتبها بعد منصرفه من موقعة صفين : « إن لبني فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني عليّ ، وقد جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله وقربة إلى رسول الله وتكريما لحرمة وتشريفا لوصلته . ومن كتاب له إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة : « أمرك بتقوى الله في سرائر أمرك وخفيات عملك ، حيث لا شاهد غيرك ولا دليل دونك . وأمرک ألا تعمل بشيء من طاعة الله فيما أظهرت فتخالف إلى غيره فيما أسررت ، ومن لم يختلف سره وعلايته وفعله ومقاتته فقد أدى الأمانة وأخلص العبادة » .

ومن وصيته إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر : « احفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآسى بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمع العلماء في حيفك لهم ، ولا يئأس الضعفاء من عدلك فيهم ، فإن الله تعالى يسألكم عن أعمالكم صغيرها وكبيرها ، وظاهرها وخفيها .. فإن يعذب فأنتم أظلم ، وإن يعف فهو أكرم ، واعلموا

— عباد الله — أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فشاركوا بذلك أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم . سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوا بأفضل ما أكلت ، فحفظوا من الدنيا بما حظى به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذ الجبابرة المتكبرون ، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابع . ثم اعلم يا محمد أنى قد وليتك أعظم أجنادى فى نفسى — أهل مصر — فأنت محقوق بأن تخالف نفسك وأن تنافح عن دينك ، لا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فإن فى الله خلفا من غيره وليس فى غيره خلف منه ، وليس سواء إمام الهدى وإمام الردى ، وولى النبى وعدو النبى .

ومن وصية له للحسن ابنه : « من الوالد الفان ، المقر للزمان ، المدير العمر ، المستسلم للدهر ، الزام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، والظاعن عنها غدا ، إلى المولود المؤمل : أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحيله ، حيث لا سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به . أمسك عن طريق إذا خفت ضلالتك ، فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر وبأين من فعله ، وحاهد فى الله حق جهاده . أى بنى : إنى لما رأيته قد بلغت سنا ورأيتنى أزداد وهنا بادرت بوصيتى إليك ، وأوردت حصالا منها قبل أن يعجل بى أجلى دون أن أفضى إليك بما فى نفسى . إن أمانك — يا بنى — طريقا ذا مسافة بعيدة ، ومشقة شديدة ، ولا غنى لك فيه عن حسن الارتياح ، بقدر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر فلا تحمل على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالا عليك . »

ومن كلماته التى تجرى محرى الأمثال السائرة والحكم المسجلة :



« امحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أم قبيحة . تجرع الغيظ فإني لم  
أر جرعة أحلى منها عاقبة . لن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك . من ظن  
بك خيرا فصدّق ظه . لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فإنه  
ليس لك بأخ من أضاعته حقه . لا يكن أهلك أشقى الخلق بك . لا ترغبين  
فيمن زهد عنك . لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على مواصلته .  
لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان . لا يكبرن عليك ظلم من  
ظلمك ، فإنه يسعى في مضرتة ونفعك . ليس جزاء من مراك أن تسوءه .  
اعلم يا بني أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن أنت لم تأت  
أناك . ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى . إن لك من دنياك  
ما أصلحت به مثواك ، وإن جزعت على ما ثقلت من يدك فاجزع على كل  
مالم يصل إليك . استدل على ما لم يكن بما قد كان . رب قريب أبعد من  
بعيد ، ورب بعيد أقرب من قريب . الغريب من لم يكن حبيب .  
من لم يبالك فهو عدوك . قد يكون اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا .  
قطيعة الحاهل تعدل صلة العاقل . من أمن الزمان حانه . ليس كل من  
رمى أصاب . إذا تغير السلطان تغير الزمان .

## حب الناس من حب الله

روى ثقات المحدثين أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أحب الله عبدا دعا إليه جبريل فقال له إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل .

ثم ينادى في أهل السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ) .

ففي هذا الحديث الصحيح قاعدة لا مجال للشك فيها ، وهي أن حب الناس إنسانا دليل على حب الله تعالى لهذا الإنسان .

وقد ثبت في أكثر من حديث عن رسول الله ﷺ فضل على كرم الله وجهه ، فمن ذلك ما ذكره الإمام ابن كثير من أن عليا كرم الله وجهه قال : « أنا عبد الله وأخو رسوله ، لا يقولها بعدى إلا كذاب » . وقد أورد ابن كثير أيضا حديثا عن ابن عمر قال : « أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء على تدمع عيناه فقال يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخى بينى وبين أحد . فقال له ﷺ : ( أنت أحيى في الدنيا والآخرة )

وقد شهد على بدر ، وفيها يقول رسول الله ﷺ لعمر ( وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ) .

وقد شهد كرم الله وجهه بيعة الرضوان ، وفيها يقول الله حل ثناؤه ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ وقال رسول الله ﷺ في بيعة الرضوان : ( لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ) .

وقد ثبت في الصحيح وغيرها أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : ( لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ) . فلما أصبح أعطاهما عليا ففتح الله على يديه .

وقد أخرج ابن كثير أيضا عن سفيان الثوري ، أن عليا كرم الله وجهه قام على منبر الكوفة يقول : « أردت أن أخطب إلى رسول الله ابنته فاطمة ثم ذكرت أن لا شيء لي ، ثم ذكرت عائته عليه السلام فأطعني ذلك في خطبتها . فخطبتها فقال لي عليه السلام : ( هل عندك شيء ؟ ) قلت لا . قال : ( فأين درعك التي أعطيتكها ؟ ) قلت : هي عندي . قال : ( فأعطيها فاطمة ) . فأعطيتها إياها فزوجني . فلما كانت ليلة عرسى دخلت عليها وقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أنا قادم إليكما ) . فجاء وعلينا قطيفة فهمنا أن نقوم فقال ( مكانكما ) . ثم دعا بقدح من ماء فدعا الله تعالى ثم رشه عليّ وعليها . فقلت يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي ؟ قال : ( هي أحب إليّ منك وأنت أعز عليّ منها ) . ثم دعا الله لنا فقال : ( اللهم بارك لهما في شملهما ) . »

وفى حديث عن أبي هريرة رواه ابن كثير قال : « لما خطب عليّ فاطمة دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لها : ( أى بنية ، إن ابن عمك عليا قد خطبك فما تقولين ؟ ) »

فبكت فاطمة رضى الله عنها ثم قالت : « كأنك يا أبني ، إنما ذخرتني لفقر قريش » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( والذي بعثنى بالحق يا بنية ما تكلمت في ذلك حتى أذن الله لي فيه ) . فقالت فاطمة « رضيت بما رضى الله ورسوله » فخرج من عندها واجتمع المسلمون إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يا عليّ قم فاخطب لنفسك ) . فقال عليّ : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، فهذا محمد رسول الله زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا . قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ( أشهدكم أني قد زوجته ) . وقد قال عليّ : ما كان لنا إلا إهاب كبش ننام عليه ومالي خادم غيرها .

فهذه الأحاديث التي ذكرها الإمام ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » ، تدل على فضل الإمام عليّ كرم الله وجهه ، فضلاً لا يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، على أنهم جميعاً أهل فضل لا يمحله إلا الذين يجحدون ضوء الشمس في رابعة النهار .

وهذه الأحاديث الشريفة — مع أنها بينة الدلالة على فضل عليّ هي كذلك صالحة للدلالة على حب الله إياه — كرم الله وجهه — حتى لو أن سائلاً سألك عن السبب في حب الناس علياً لكان لك أن تجيبه جواباً يستمد الصدق من الحديث النبوي الشريف ، فتقول في جوابك : إن الناس أحبوا عليّاً من أجل حب الله إياه ، إذ كان حب الناس آية ودليلاً على حب الله . وفي هذه الحال لا يملك سائلك إلا أن يلوذ بالصمت ، فأنعأ أعظم القساعة بما وقفته عليه وقدرته إليه مما قرره أوضح تقرير الحديث النبوي الشريف .

على أنك مستطيع أن تجد سبباً يجعل حب الناس لعليّ مستمداً من حبهم رسول الله ﷺ . ذلك أن بين سيرته وسيرة رسول الله تشابهاً يوحي بأن الله تعالى آثر للإمام أن يكون أقرب الناس إلى رسول الله ، قرابة لحم ودم ، وقرابة نفس وروح ، وقرابة سيرة وتاريخ .

ولكى تزداد ثقة بهذه الكلمة ، حاول أن توازن بين السيرتين سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الإمام عليّ كرم الله وجهه . وسوف ترى أن بين السيرتين تقارباً شديداً لا تحفى معالمه على من يفتح للحق قلبه ويفسح للفكر مجاله . ولسنا في هذا الذي نأخذ بيدك إليه مبتدعين شيئاً من عند أنفسنا ، ولكننا متبعون من سبقنا من أولئك السادة الذين نثق بهم في أخلاق رضية ، ولمحات ذكية ، وبُعد بعيد عن التعصب المقيت ، والتزمت المميت .

وأول ذلك كلمته التي يقول فيها كَرَّمَ اللهُ وجهه : « والله ، ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن كل غدره فجرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ، والله ما استغفل<sup>(١)</sup> بالمكيدة ، ولا استغفر بالشديدة »<sup>(٢)</sup>.

وتلك الكلمات الشريفة — على ما ترى — تحتاج إلى كتاب يستقصى للناس تاريخ الدعوات الإصلاحية ، ذات المناهج التي تستمد قداستها من ورع الدين أو من جشع الدنيا . وإذ لم يكن في وسعنا أن نقوم بهذا الحق فإننا لم نجد مندوحة عن الاستعانة برجل من أهل العلم له في العلم بطبائع الناس قدم ثابتة وآراء سديدة ، وله مع ذلك ورع يدعوهُ إلى تحرى الحق وإيثار الاعتدال ، حرصاً على شرف مروءته ونزولاً على مقتضى دينه . فذلك حيث قال رحمه الله حيال خطبة الإمام التي روينها لك آنفاً : إن قوما لم يعرفوا حقيقة فضل أمير المؤمنين عليّ ، زعموا أن عمر كان أسوس منه وإن كان هو أعلم من عمر ، بل لقد قال أعداء الإمام ومباغضوه إن معاوية كان أسوس منه وأصح تدييراً .

فاعلم رحمك الله — أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه ناظراً إلى ما فيه صلاح أمره وتوطيد ملكه ، سواء وافق الشريعة أم لم يوافقها . ولقد كان أمير المؤمنين عليّ مقيداً بقيود الشريعة ومدفوعاً إلى اتباعها ، مع رفضه ما يصلح الاعتماد عليه من أراد الحرب والكيد والتدبير إذا كان متكرراً للشرع وغير موافق له . فلم تكن قاعدته كَرَّمَ اللهُ وجهه في الحكم قاعدة غير من يلتزم بذلك .

(١) الاستغفال : طلبك علة إنسان لئلا منه ما تريد .

(٢) الاستعماز : احتشارك إنساناً لتعلم مقدار احتماله ما يرمى به .

ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولا ناسين له ما هو منزله  
عنه إذ كان رضى الله عنه محتهدا بعمل بالقياس والاستحسان والمصالح  
المرسلة ، فيرى تخصيص عمومات النصوص بالآراء وبالاتباع من أصول  
تقتضى خلاف ما يقتضيه عموم النص . ولقد كان عمر رضى الله عنه يكد  
خصمه ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة ، ويؤدب بالدرة والسوط من يظلم على  
ظلمه أنه يستوجب ذلك ، ثم يصفح عن آخرين قد اجترأوا ما يستحقون به  
النأيب ، وهو فى كل ذلك محكوم بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره .  
ولكن أمير المؤمنين علياً لم يكن يرى ذلك الذى يراه عمر ، بل كان يقف  
مع النصوص والظواهر لا يتعداها إلى الاجتهاد والأقصة تعديا يدعوه إلى  
تطبيق أمور الدنيا على أمور الدين ، ويحمله على أن يسوق الكل مساقا  
واحدا . فكان كرم الله وجهه لا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والنص ، ولذلك  
اختلفت طريقتاهما فى الخلافة والسياسة . وكان عمر — مع ذلك — شديد  
الغلظة شديد السياسة ، على حين كان على كثير الحلم عظيم الصفع  
والتجاوز . ولذلك ازدادت خلافة عمر قوة بقدر ما ازدادت خلافة على  
لينا . ثم إن عمر لم يمتحن بما امتحن به على من فتنة عثمان التى أحوجته إلى  
مدارة أصحابه وجنده دفعا للاضطراب الواقع عن طريق تلك الفتنة ، ثم تلا  
ذلك فتنة الحمل وفتنة صفين ، ثم فتنة النهروان . وكل هذه الأمور مؤثرة  
أشد التأثير فى اضطراب أمر الوالى وانحلال معاهد ملكه . ولكن شيئا من ذلك  
لم يتفق لعمر ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام الملك وصحة تدبير  
الخلافة .

وقد تسأل أعرك الله : ما قولك فى سياسة الرسول ﷺ وتديره ، أليس  
كان منتظما سديدا مع أنه ﷺ كان لا يعمل إلا بالنصوص وبالتوقيف عن  
طريق الوحي ؟

وجوابنا لك عن هذا السؤال . إن سياسة الرسول وتديره خارج عما نحن فيه لأنه معصوم لا تنطبق الغفلة إلى أفعاله ، وأيضاً فإن الله تعالى قد أذن لرسوله ﷺ أن يحكم في الشرعيات وغيرها برأيه ، كما ترى ذلك على غاية الوضوح في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً ﴾ (١)

وأنت إذا تأملت في هذه الآية الشريفة مستصحبا ما ذكره أهل العلم حولها ، فإنك ترى أن سؤالك الذي سألته ليس بشيء ، لأن ثمة فرقا واضحا بين حاكم مؤيد بالوحي وبين آخر ليست له هذه المنزلة الرفيعة . ثم إن الإمام كرم الله وجهه لا يمكن أن يبلغ اجتهاده المنزلة الرفيعة التي يبلغها اجتهاد رسول الله ﷺ ، فالفرق بين الاجتهادين هو الفرق بين المنزلتين . ثم أحب لك أن تأمل معي فيما أرويه من حديث صائب يرويه الثقات عن ثقات مثلهم ، فذلك حيث كان يتحدث به الثقة إلى مريديه وطلاب علمه فيقول : « إنه لا فرق عند من قرأ سيرة النبي وسيرة عليّ . فكما أن علياً لم يزل أمره مضطرباً مع أصحابه بسبب مخالفتهم له وعصيانهم أمره وهربهم إلى أعدائه ، فكذلك كان أمر النبي ﷺ ، فإنه لم يزل ممنواً بنفاق المنافقين وأذاهم له واختلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه وكثرة الحروب والفتن ، كما يوضح ذلك القرآن العزيز في حديثه عن المنافقين ، وضيق رسول الله ﷺ بهم وتألمه من أذاهم له كما في الآيات الشريفة : ﴿ هُوَ أَلَمَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَلَمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۖ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا فَكَيْفَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا التَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ —  
 جَلَّ شَأْؤُهُ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا أَتَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
 إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَلُّوا  
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١) . وَكَذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى فِي  
 شَأْنِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ  
 حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلْعَنَ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾  
 يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ  
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (٢)

وعلى ذلك ترى أن من تأمل حال رسول الله وحال علي فإنه سيجدهما متشابهتين أو أدنى إلى التشابه في الصورة والمقدار ، وبيان ذلك أن حرب رسول الله مع المشركين كانت سجالا : انتصر يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أحد ، وكان يوم الحندق كغافا خرج هو وهم سواء لا عليه ولا له لأنهم قتلوا رئيس الأوس سعد بن معاذ وقتل من المشركين فارس قريش عمرو بن عبدود ثم انصرفوا عنه بغير حرب .. ثم حارب النبي قريشا يوم الفتح فكان الظفر له . وهكذا كانت حروب علي : انتصر يوم الجمل ، وخرج الأمر به وبين معاوية على سواء يوم صفين إذ قتل من أصحابه رؤساء ومن أصحاب معاوية رؤساء ثم انصرف كل واحد من الفريقين على مكانه . ثم حارب بعد حرب صفين أهل النهروان فكان الظفر له . ومن عجب أن أول حروب رسول الله ﷺ كانت بدرا وكان هو المصور فيها ، وكانت أول حروب علي الجمل وكان هو المصور فيها .



ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان في صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية في آخر أيام عليّ إلى نفسه واتخذ لنفسه لقب الخلافة ، كما أن مسيلمة والأسود العنسي دَعَوْا إلى نفسيهما في آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم تسميا بالنبوة . وقد اشتد على الإمام تصرف معاوية كما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصرف مسيلمة والأسود . ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد من العرب إلا قریش ماعدا يوم حنين ، وكذلك عليّ كرم الله وجهه لم يحاربه أحد من العرب إلا قریش ماعدا يوم النهروان .

وقد مات الإمام كرم الله وجهه شهيدا بالسيف كما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهيدا بالسم . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدا على أم أولاده خديجة حتى ماتت ، وكذلك الإمام كرم الله وجهه لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده الحسن والحسين حتى ماتت رضى الله عنها .. ومات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ثلاث وستين سنة من عمره الشريف ، وكذلك عليّ مات كرم الله وجهه عن مثل هذا العدد من السنين .

فإن أنت تجاوزت ذلك إلى الأخلاق والخصائص والصفات فإنك ستري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على غاية الشجاعة ، وكذلك الإمام كرم الله وجهه يكاد يقارب رسول الله في تلك الصفة . ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عالم بالفقه والشرعة والعلوم الإلهية الدقيقة الغامضة ، وقد تابعه في تلك الطريق الشريفة عليّ كرم الله وجهه . ثم إنك إذا نظرت إلى الرهادة في الدنيا وجدت عليّا يكاد يكون زهده قريبا من زهد رسول الله . ثم إن محمدا رسول الله ينتهى نسبه إلى عدنان وكذلك عليّ . وقد ربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حجر أبي طالب — والد عليّ — فكان جاريبا عنده محرى أحد أولاده ، ثم لما شب صلى الله عليه وآله وسلم وكر استخلص عليّا من أبي طالب فرباه غلاما في حجره مكافأة لصنيع

أبيه به ، فامتزج الخلقتان وتمثلت السجيتان . وإذا كان القرين يقتدى بالقرين فما ظنك بالتربية والتثقيف في الدهر الطويل . إن من حق ذلك عليك أن تقبل نتيجة تلك المخالطة في بيت أبي طالب على أن تكون أخلاق محمد رسول الله على مثل أخلاق أبي طالب إذ كان عمه ومريه . وعلى ذلك تكون أخلاق علي كأخلاق أبي طالب من حيث كان والدنا لعلي ، وتكون أخلاق علي كأخلاق محمد من حيث كانا قد أخذنا عن تربية أبي طالب لهما . ولم يكن أبو طالب إلا كأييه عبد المطلب حنيفيا ذا أخلاق شريفة كسائر الحنفاء الذين كان منهم محمد نفسه قبل أن يوحى إليه رسولا إلى العالمين يتمم مكارم الأخلاق .

ثم نلفتك بعد ذلك إلى نتيجة هذا البحث فنقول لك ما قاله أبو جعفر رحمه الله : إن من حق التربية أن تجعل محمدا وعليًا شيمة واحدة وضيئة مشتركة ، وأن لا يكون بين الرجلين فرق لولا أن الله اختص محمدا برسالاته واصطفاه لوجه لما يعلمه من مصالح البرية في ذلك . والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولذلك امتاز رسول الله عن سواه وبقي ما عدا الرسالة على أمر الاتحاد . ولذلك قال رسول الله ﷺ للإمام علي كرم الله وجهه : ( أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ) . فقد أبان نفسه — ﷺ — من علي بالنبوة وأثبت له ما عداها من الفضائل والخصائص .

وقد كان النقيب أبو جعفر — رحمه الله — غزير العلم صحيح العقل منصفا في الجدال غير متعصب لمذهب الشيعة .

وعلى أنه كان علويا كان يعترف بفضائل الصحابة ويشي على الشيخين أبي بكر وعمر قائلا : إنهما مهذا دين الإسلام وأرسي قواعده ، وقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله وإنما مهدها بما تيسر للعرب من الفتح ( م ٨ — على إمام الأئمة )

فى دولتهما . وكان يقول فى عثمان : إن الدولة فى أيامه كانت على إقبالها وعلو جدها ، بل كانت الفتوح فى أيامه أكثر والغنائم أعظم لولأنه لم يلتزم بناموس أى بكر وعمر ، لأنه لم يستطع أن يسلك مسلكتهم إذ كان مغلوبا عليه وكان كثير الحب لأهله ، وقد أتبع له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه وحمل الناس على خطئه وقتله . وليس يجحد فضل ذوى الفضل إلا من لا نصيب له من لطف الله وجميل عنايته .

هذا ما يرويه المعتدلون من المتشيعين للإمام على كرم الله وجهه وهو مما لا يخفى على الذين كانوا يحملون الدعوة لآل البيت النبوى الكريم ، وفى طليعتهم الإمام على كرم الله وجهه . ومن هنا أحب الناس علما لهذه الأخلاق الشريفة . وكان حبهم إياه مستمدا من حبهم لرسول الله ، وما كان رسول الله ﷺ ليحب أو يكره إلا فى إطار مكارم الأخلاق ، فهو يحب ما أحبه الله ويحب من أحب الله . وآية ذلك قوله ﷺ : ( إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها ) .

وإذا فقد أصبح من الحق الذى لا يقبل الجحود أن يكون حب الناس علما كرم الله وجهه راجعا إلى أمر دهنى محض قرره الحديث النبوى الشريف الذى وضعنا له هذا العنوان : « حب الناس من حب الله » .

غير أن بعض أهل العلم يطيب لهم أن يسلكوا الطريق إلى التماس أسباب عادية يجيبون بها عن هذا السؤال : لماذا أحب الناس ويحبون الإمام رضى الله عنه ؟ .

ومن هؤلاء الذين يؤثرون الاحتكام إلى الأسباب العادية بدلا من الأسباب الدينية ، السيد الجليل أبو جعفر بن أبى زيد الحسنى نقيب البصرة . فقد سأل أبو حامد عز الدين ابن أبى الحديد قائلا له : ما سبب حب الناس لعلى ابن أبى طالب وعشقهم له وتهالكهم فى هواه ؟ أرجو أن تجيبنى ، على أن

ترك في الجواب حديث الشجاعة والعلم والفصاحة وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها .

ولم يمسع السيد نقيب الطالبين بالبصرة إلا أن يتهاى للجواب فبدأ يقول وقد أشرفت في وجهه المسماح ابتسامة تدل على ما وراءها من الإعجاب بالسؤال والثقة بالنفس في القدرة على إحسانه الحواب عنه ، فجعل يقول رحمه الله : كم تجمع على من حراميزك <sup>(١)</sup> وبنات ذكائك . ثم أخذ يقول : إن هاهنا مقدمة لاندحة عن العلم بها ، وهي أن أكثر الناس موتورون في الدنيا . أما المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون ، كالعالم يرى أنه لاحظ له في الدنيا ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسعا عليه ، وكالشجاع أبلى في الحرب وانتفع الناس بموضعه وليس له عطاء يكفيه ويقوم بضروراته ، مع أنه يرى غيره من الجبناء وبعضهم يملك قطرا عظيما من الدنيا وقطعة وافرة من المال والرزق ، وكالعاقل صحيح التدبير قدر عليه رزقه وهو يرى غيره أحقق تدبر عليه الخيرات وتنحلب عليه أخلاف الرزق ، وكصاحب الدين القويم والعبادة الحسنة وهو مع ذلك محروم ضيق الرزق مع أن غيره من أهل المذاهب الباطلة أصحاب مال كثير وأحوال حسان .. حتى إن هذه الطبقات المستحقة ليجتاحون في أكثر الأوقات إلى الطبقات التي لا استحقاق لها . وربما دعتهم الضرورة إلى الدل لهم والخضوع بين أيديهم .. إما لدفع ضرر أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطبقات من ذوى الاستحقاق ما نشاهده عيانا من نجار حاذق أو بناء عالم أو نقاش بارع أو مصور لطيف ، وكلهم على غاية ما يكون من ضيق رزقهم وقعود الوقت بهم وقلة الحيلة لهم ، مع أن غيرهم من الذين لا يجرون مجراهم ولا يلحقون

(١) حرره : له .

طبقتهم مرزوقون مرغوب فيهم وقد ظفروا بطيب العيش وسعة الرزق ،  
قتلك حال ذوى الاستحقاق والاستعداد .

وأما الذين ليسوا من أهل الفضائل فإنهم أيضا لا يخلون من الحقد على  
الدنيا والذم لها والحنق والغيط منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم  
وجيرانهم ، فليس فيهم قانع بعيشه ولا راض بحاله بل يستزيد ويطلب حالا  
فوق حاله ، وهذه كلها من بديهيات الأمور التي لا تحتاج إلى إعمال فكر  
ونفوذ نظر وحسن تقدير .

فإذا عرفت هذه المقدمة ، فمعلوم أن عليا كرم الله وجهه كان مستحقا  
محروما ، بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم . ومعلوم  
أن الذين ينالهم الضيم وتلحقهم المذلة يتعصب بعضهم لبعض ويكونون يدا  
واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا ونالوا منها مآربهم لا شراكتهم في  
الأمر الذى ألمهم وساءهم وعضهم ومضهم ، مع اشتراكهم فى الأنفة  
والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم وقهرهم وبلغ من الدنيا ما لم  
يلغوه .

فإذا كان هؤلاء المحرومون متساوين فى المنزلة والمرتبة وتعصب  
بعضهم لبعض ، فما ظنك بهم إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر  
كامل الشرف جامع للفضائل ، وهو مع ذلك محروم محدود جرعته الدنيا  
علاقمها وعلته علا بعد نهل من صابها وصصرها ، ولقى منها برحا<sup>(١)</sup> بارحا  
وجهدا جهيدا ، وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفى بيته ورهطه من لم  
يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولا دأرا فى خلده خاطرا فى  
باله ، ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له . ثم كان فى آخر الأمر أن قُتل  
هذا الرجل الحليل فى محرابه ، ثم قتل بنوه من بعده ، وأحاط الذل والهوان

(١) البرح : الشدة والهول .

بأهله وبنى عمه حيناً بالقتل وحيناً بالطرد والتشريد ، وحيناً بالسجن والتهديد ، دون أن يكون لهم ذنب يؤخفون به أو يحاسبون عليه ، إذ كان جميعهم صاحب فضل وزهد وعبادة وسخاء ، والخلق جميعاً ينتفعون منهم فى الدنيا وفى الدين . فهل يكون من الممكن أن لا يتعصب البشر كله مع هذا الشخص ؟ . وهل تستطيع القلوب أن لا تحبه وتهواه وتفنى فى عشقه انتصاراً له وأنفة مما ناله وامتعضاً مما جرى عليه ؟ إن ذلك أمر مركوز فى الطباع ومخلوق فى الفرائز ، كما يشاهد الناس على الجرف إنساناً قد وقع فى الماء العميق وهو لا يحسن السباحة ، فإنهم بالطبع البشرى يرقون عليه رقة شديدة ، وقد يلقي قوم منهم أنفسهم فى الماء نحوه يطلبون تخليصه دون أن يتوقعوا على ذلك مجازاة منه بمال أو شكر أو ثواب فى الآخرة ، فقد يكون مهم من لم يعتقد أمر الآخرة .. ولكنها رقة بشرية تدعو الواحد منهم أن يتخيل فى نفسه أنه ذلكم الغريق ، فكى يطلب خلاص نفسه لو كان غريقاً يطلب تخليص من هو فى تلك الحال الصعبة بالمشاركة النوعية . وكذلك لو أن ملكاً ظلم أهل بلد من بلاده ظلماً عنيفاً ، لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض فى الانتصار من ذلك الملك والاستعداد عليه . ولو قد كان من جملة هؤلاء رجل عظيم القدر جليل الشأن قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم ، فأخذ ضياعه وأمواله وقتل أولاده وأهله ، لكان لياذهم به وانضواؤهم إليه واحتجاجهم به والتفافهم حوله أعظم ، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك دعاء واجباً لا يستطيع الناس منه امتناعاً .

هذا ما ذكره السيد القيب ، على فضله وصدق إيمانه وسلامة مذهبه فى احترامه أصحاب رسول الله وحبه إياهم واعتقاده الخير فيهم . وغاية ما كان يقول إذا غضب على أعداء على أن حكمهم حكم مسلم مؤمن عصى فى بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء غفر له .

ثم سأله سؤالا آخر عن أبى بكر وعمر أتقول إنهما من أهل الجنة ؟ فقال :  
 إى والله إنى لأعتقد ذلك إما بعفو الله تعالى عنهما وإما بشفاعة رسول الله  
 ﷺ لهما . ذلك أنى لأشك فى إيمانهما برسول الله وصحة عقيدتهما فى  
 الإسلام . فسأله أيضا : وماذا ترى فى عثمان ؟ فقال : كذلك عثمان رحم  
 الله عثمان ! وهل كان عثمان إلا واحدا منا وغصنا من شجرة عبد مناف ؟  
 ولكن أهله كثروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا . قلت له أيضا :  
 فهل يلزم على ما سمعنا منك أن تجيز دخول معاوية الجنة ؟ . فقال : إن  
 معاوية كان مع أبيه من المؤلفة قلوبهم .

وقد كان ابن أبى الحديد شيعيا غير متطرف تطرف الشيعة الغلاة ، وكان  
 مع ذلك من أهل الاعتزال . فكان يقول الذى استقر عليه رأى المعتزلة بعد  
 اختلاف كثير بين قدمائهم ، هو أن عليا أفضل الجماعة وأن أصحاب رسول  
 الله إنما تركوا الأفضل لمصلحة رأوها ، وإن لم يكن هناك نص يقطع  
 الغموض وإنما كانت إشارة وإيماءة لا يتضمن شىء منها صريح الصر . وأن  
 عليا رضى الله عنه نازع ثم بايع ثم استجاب ، ولو أقام على الامتناع لم نقل  
 بصحة البيعة ، ولو جرد على السيف فى أول الأمر كما جرده فى آخره لقلنا  
 بفسق كل من خالفه على الإطلاق كائنا من كان ، ولكنه رضى بالبيعة ودخل  
 فى الطاعة .

وبالجملة ، يقول أصحابنا من المعتزلة : إن الأمر كان له وكان هو  
 المستحق ، فإن شاء أخذه لنفسه وإن شاء وآله غيره . فلما رأيناه قد وافق  
 على ولاية غيره اتبعناه ورضينا ما رضىه . فقال النقيب : قد بقى بينى وبينكم  
 قليل .. أنا أذهب إلى النص وأنتم لا تذهبون إليه . فقلت له : إنه لم يثبت نص  
 عندنا بطريق يوجب العلم ، وما تذكرونه أنتم صريحا فإنكم تنفردون بنقله .  
 وما عدا ذلك من الأخبار التى نشارككم فيها فلها تأويلات معلومة . فقال لى

وهو ضجر : لو أننا فتحنا باب التأويلات لجاز أن نتناول قول المسلم لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، فدعنا من التأويلات الباردة التي يعلم الناس أنها غير مرادة وأنها متكلفة ، فإنما أنا وأنت في الدار لا ثالث لنا يستحي أحدنا من صاحبه بحضرته أو يخافه .

فلما بلغنا إلى هذا الموضع دخل قوم ممن كان يخشاهم النقيب للتجسس ونحوه ، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث وخضنا في غيره .

وهنا عرضت للقوم سياسة معاوية وما يزعمه أعداء عليّ ومبغضوه من أنها خير من سياسة أمير المؤمنين عليّ . وربما كفانا في الكلام على ذلك ما كان يقول شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي شرح هذه القضية أتم شرح وأوفاه بألفاظه رحمه الله :

قال أبو عثمان : ربما وجدت بعض من يظن بنفسه العقل والفهم والتحصيل مع أنه من العامة فيضع نفسه مع الخاصة ، ثم يزعم أن معاوية كان أبعد غورا وأصح فكرا وأجود روية وأبعد غاية وأدق مسلكا .. وليس الأمر كذلك ، وسأومئ إليك بهجلة تعرف بها موضع غلطه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله . لقد كان عليّ لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة كما يستعمل الكتاب والسنة ، ثم يستعمل جميع المكاييد لحلالها وحرامها ، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى وسيرة خاقان إذا لاقى قيصر . فكان عليّ يقول : لا تدعوهم بالقتال حتى يدعوكم ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً . فهذه سيرته كرم الله وجهه بتقيد فيها بالكتاب والسنة لا يدعوهما مهما دعتا إلى الظفر بالنصر دواعي حب الشرف وإيثار السلطان .



وأما أصحاب الحروب فإنهم إن قدروا على البيات يتوا ، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجنبدل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة ، وإن كان الحرق أعجل من الفرق لم يقتصروا على الفرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الفرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق والعرادات والنقب والدبابات والكمين ، ولم يدعوا دس السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور وإيحاش بعض من بعض ، وقتلهم بكل آلة وحيلة كيفما وقع القتل وكيفما دارت بهم الحال .

فمن اقتصر — حفظك الله — من التدبير على ما في الكتاب والسنة ، كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكاييد ، والكذب أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عددا من الحلال .. ولو سمي إنسان إنسانا باسمه لكان قد صدق وليس له اسم غيره . ولو قال شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كل ما خطر على البال لكان كاذبا في ذلك . وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحق والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الخطأ والصواب .

فعلني كرم الله وجهه كان ملجعا بالورع عن جميع القول إلا ما هو الله عز وجل ، وكان ممسوع اليدين من كل بطش إلا ما هو الله رضا ، وهو لا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ، ولا يرى الرضا إلا في ما دل عليه الكتاب والسنة دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والمكر والمكاييد والآراء . فلما أبصرت العوام كثرة نواذر معاوية في المكاييد ، وكثرة غرائبه في الخداع ، وما اتفق له وتها على يده ، ولم يروا ذلك من على ظنوا بقصر عقولهم وقلة علومهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علي . وينبغي أن تعلم علما

لا يترقى إليه الشك أنك لا تستطيع وصف الصالحين بالدعاء والنكراء ،  
فلا تقول : ما كان أنكر أبا بكر بن أبي قحافة ، وما كان أنكر عمر بن  
الخطاب ، ولن يقول أحد عنده شيء من الخير إن رسول الله ﷺ كان أدهى  
العرب والعجم ، وكان أنكر قريش وأمكر كنانة ، لأن هذه الكلمة إنما  
وضعت في مديح أصحاب التعق في الرأي من أجل توكيد أمر الدنيا  
وزبرجها وتشديد أركانها .

فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر ،  
وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر ، فإن هؤلاء هم صفوة الله من خلقه ،  
وهم لا يمدحون بالدعاء والنكراء ، ثم هم لم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه  
وهو تأثير الله لهم .

ولقد مضى العلامة الجاحظ يقول : وكذلك كان قول معاوية للجميع :  
اخرجوا إلينا قتلة عثمان ونحن لكم سلم . فاجهد أنت كل جهدك واستعن  
بمن شايءك إلى أن تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله عليّ ،  
حتى تعلم أن معاوية حادع ، وأن علياً كرم الله وجهه كان المخدوع . فإن  
قلت : لقد بلغ ما أراد ونال ما أحب . فإنك لا تكون قد جئت بحديد  
يحررنا أن ندخل فيه ، لأننا إنما وضعنا كتابنا هذا على أن علياً — كرم الله  
وجهه — كان قد امتحن في أصحابه وفي دهره بما لم يمتحن إمام قبله من  
الاختلاف والمنازعة والتسرع والعجلة . وهل أتى عليّ إلا من هذا  
المكان ؟ ولقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطؤوا على قتل ثلاثة نفر ، فانفرد ابن  
ملجم بالتماس ذلك من عليّ ، وانفرد البرك بالتماس ذلك من عمرو بن  
العاص ، وانفرد عمرو بن بكر التميمي بالتماس ذلك من معاوية . فكان من  
الاتفاق أو من الامتحان أن كان عليّ من بينهم هو المقتول . وفي قياس  
مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو ومعاوية إنما كانت بحزم منهما ، وأن

قتل على إنما كان عن تضييع منه . فإذا قد تبين لكم أنه من الابتلاء والامتحان فكل شيء سوى ذلك فإنما هو تبع للنفس .

ذلك ما ذكره الجاحظ نرويه لك ببعض التصرف ، ولعل من حقنا لمن يقرأ لنا ويأخذ عنا أن نتنهز هذه السانحة لنقرر أن الإمام علياً — في دقة حسه وشرف نفسه — لا يمكن أن يفوته حسن التدبير حرصاً على الحياة .. إمام من أجل الاستمتاع بها استمتعاً أحله الله لعباده المؤمنين ، وإمام من أجل التمكين لرسالة الإسلام أن تبلغ غايتها التي تضمنتها الآية الشريفة :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

## على رجل حرب وسلام

إن الذين درسوا سيرة الإمام — كرم الله وجهه — دراسة فقه واستبصار ،  
لعلهم لا يجدون خيراً من هذه الكلمات عنواناً لهذا الفصل يحدون بها معالم  
شخصيته في مختلف أطوار حياته المباركة ، رضى الله عنه وأرضاه :

فأما أنه رجل حرب ، فإن أحداً لا يجهل حقائق بطولته تتجلى لرائديها على  
طرف اللام منذ بدأت الدعوة المحمدية أولى خطواتها بالهجرة من مكة المكرمة  
إلى المدينة المنورة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن ينام في فراشه ، توحيماً  
لرعوس الشرك بأن النائم في الفراش هو محمد بن عبد الله وليس علي بن أبي  
طالب . وما من شك في أنه كرم الله وجهه كان يتوقع الموت بيد أعداء الدعوة  
الفنية بعد الفينة ، مع أنه لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه إذا تذابب عليه القوم  
وأخذوا عليه منافذ الحرب لو أنه فكر في الفرار . ثم تلا هذا الموقف الشريف من  
مواقفه كرم الله وجهه ، أنه شارك في كل الغزوات التي اضطّر المسلمون إليها  
أعداء الإسلام .

ومن آيات أنه رجل حرب ودولة ، نصيحتة لأمر المؤمنين عمر أن  
لا يشخص بنفسه لقتال الفرس اتقاء لخطر ماحق لو تعرض رأس الدولة لقتل  
أو لأسر ، لا يدخر العدو جهداً في الوصول إليه مهما كلفه ذلك من غوائل  
التضحيات . وليس يدرك هذا الخطر على هذه الصورة إلا من فطره الله تعالى  
فطرة سوية ورزقه القدرة على استجلاء الغيب من مكان بعيد .

هذا ما يتصل بكونه رجل حرب .. وأما ما يتعلق بكونه رجل سلام  
فحسب الذي يطلب القناعة بهذه الحقيقة أن يتمثله فيلسوفاً متصوفاً زاهداً في  
عرض الدنيا ، بصيراً بالشريعة في الكتاب العزيز والسنة الشريفة . إلى أن له

مع ذلك قلم كاتب ، وذوق أديب ، وأسلوب مدرس ، يؤثر لمريديه أن يقتنموا بما يلفتهم إليه ويَعْظُمهم به ، دون أن يستغل في ذلك هيئته في أنفسهم . فإذا نصحه لهم أدنى إلى قوة السلطان ، منه إلى قوة الحججة والبرهان .

وآية هذا الذي نقول ، خطبته كَرَّمَ اللهُ وجهه حين اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة بينه وبين معاوية رحمه الله ، فذلك حيث قال :

« أيها الناس ، إنه لم يزل أمرى معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب ، وقد — والله — أخذت منكم وتركت ، وهى لعلوكم أنْهَكَ . لقد كنت أمس أمرا فأصبحت اليوم مأمورا ، وكنت أمس ناهيا فأصبحت اليوم منيا ، وقد أحبيم البقاء وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون » .

ففى هذه الخطبة — على ما ترى — يتضح لك أنه لم يكن يلجأ إلى هيئته في صدور أوليائه وأعدائه ، ولكنه كان يلجأ إلى قوة الحججة ونصاعة البرهان . ذلك أنه يقول كَرَّمَ اللهُ وجهه : لقد أخذت منكم الحرب وتركت فلم تستأصلكم فتيكم بعد بقية . ولئن كانت أثرة الحرب قد أصتكم إنها لعلوكم أشد إضناء من حيث كان القتل في أعدائكم أشد استمرارا . وقد كان أصحابه على ما يذكر الثقات أقساما : فمعهم من دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، ومنهم من كان ملل الحرب وآثر السلم ، فلما رأى شبهة يسوغ التعلق بها في رفع المحاربة أدخل إليها ، ومنهم من كان يفض عُلْيَا بباطنه ويطيعه بظاهره كما يطيع كثير من الناس السلطان في الظاهر ويبغضونه بقلوبهم ، فلما وجدوا طريقا إلى خذلانه وترك نصرته أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه وطلبوه بالكف وترك القتال . فامتنع امتناع عالم بالمكيدة وقال لهم : إنها حيلة وخديعة وإني أعرف بالقوم منكم ، فهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا بأصحاب دين ، ولقد صحتهم وعرفتهم صغيرا وكبيرا فعرفت منهم الإعراض عن الدين والركون إلى الدنيا . فلا تراعوا برفع المصاحف وصمموا على الحرب وقد

ملكتموهم فلن يبقى منهم إلا خشاشة ضعيفة . فأبوا عليه وأصرّوا على القعود والخذلان ، ثم أمروه أن يبعث إلى المحاربين من أصحابه أن يأمرهم بالرجوع ، ويهددوه بإسلامه إلى معاوية إن لم ينفذ ما أمروه به .

. ولم يجد الإمام حيلة إلا أن يرسل إلى الأشتر الذي كان مسئولاً عن أصحاب عليّ ، فأرسل إليه يأمره بالرجوع وترك الحرب . فأبى الأشتر ذلك محتجاً بأن انتصاره بات قريباً . فلما عاد رسول الإمام إليه بما قاله الأشتر غضبوا ونفروا وقالوا : لقد بعثت إلى الأشتر تأمره سرا بالتصميم وتناه عن الكف ظاهراً ، وإن لم تُعيد الأشتر الساعة قتلناك . فكرر الإمام رسالته إلى الأشتر يأمره بوقف القتال .

وملاحظة هذه المعاني يتكشف لك معنى أنه كرم الله وجهه كان أمراً فأصبح مأموراً ، وكان ناهياً فأصبح مهياً . وليس في الدنيا ألم لنفس الحر من أن يتعمد عليه أقل جده شأنًا وأولاهم بطاعته في السر والعلانية ، ولكن هكذا قضى الله وما شاء الله كان .

ومما يزيد الناظر يقيناً بأن الإمام رجل سلام شامل ، أنه كان ينهى أصحابه عن التوسع في مطالب الدنيا كما كان ينهاهم عن التضيق على أنفسهم . ذلك أن السعة كالضيق كلاهما يخرج بالمسلم عن القصد والاعتدال ويضعه بعيداً عن وسطية الإسلام . فهاتان قضيتان لكل واحدة منهما برهان يشهد لها ويكشف عن وجهه الصادق فيها : فقد دخل كرم الله وجهه على بعض أصحابه بمدينة البصرة يعود ، فلما رأى سعة داره قال — على ملا من أصحابه — تلك الكلمات التي تضعه كرم الله وجهه موضع المرفى الذي يصيبه من صاحبه أن يكون صورة حسنة في أنفس الناس ، فذلك حيث قال كرم الله وجهه : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج . بل إن شئت بلغت بها الآخرة ، تقرى فيها الضيف وتصل الرحم وتطلع منها

الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة . فقال له صاحبه وكان يدعى العلاء الحارثي : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد الحارثي . فسأله الإمام : ما له ؟ قال : لبس العباء ونخل من الدنيا . فقال الإمام كرم الله وجهه : على به . فلما جاء قال له :

« يا عُدَيُّ نفسه ، لقد استهام بك الخبيث . أما رحمت أهلك وولدتك ؟ أترى الله تعالى أحل لك الطيبات وهو كاره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك . »

ولم يشأ الرجل أن يسمع كلام الإمام مستسلما له دون مناقشة ، فقال : هذا أنت يا أمير المؤمنين في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ، يعني أنك تنهاني يا أمير المؤمنين عما أخذت به نفسك من خشونة الملبس وغلظ المأكل . فقال له كرم الله وجهه : ويحك يا عاصم بن زياد إني لست كأنت . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس ، كيلا يتبيخ<sup>(١)</sup> بالفقر فقره .

يقول الإمام في هذه الخطبة : إن الدار التي نسكن فيها لا حاجة بك إليها في الدنيا وحاجتك إليها في الآخرة أظهر وأعظم ، على أنك إن شئت بلغت بها الآخرة ، تقرى فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها . فأنت — إذا — بلغت بها الآخرة .

ولم يترك الرجل فرصة وجود الإمام في بيته ، فسارع إلى انتهازها شاكيا له أخاه بأنه يلبس العباء وقد نخل من الدنيا وأعرض عن الاستمتاع بما أحل الله له فيها . فدعا الإمام بالرجل المشكو فيه فقال له متحنتا مشفقا : يا عُدَيُّ<sup>(٢)</sup> نفسه .

(١) تقول العرب تبخ به الدم تعني أنه ثار فأوشك أن يهلكه ، ومنه تبخ الفقر بالمعير .

(٢) عُدَيُّ : على مثال قصي تصغير لكلمة عُدَيُّ ، والعرب تصعد بالتصغير أحسابا الشفقة والتلطيف .

« لقد استهام <sup>(١)</sup> بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولئك ؟ أترى أن الله تعالى أحل الطيبات وهو يكره أن تنال منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك » .  
فقال الرجل : يا أمير المؤمنين هذا أنت في عثونة ملبسك وجشوبة مأكلك ، فكيف تحرم عليّ ما حللته لنفسك من الزهد والتقشف ابتغاء مرضاة الله ؟  
فقال له الإمام : « إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس ، كيلا لا يتبيخ بالفقير فقره » .

يقول كرم الله وجهه إن على أئمة الحق أن يكونوا قنوة للضعاف من رعيّتهم فلا يُغالوا في الملبس والمأكل والمسكن ، فإنهم لو تغالوا في ذلك لثار بهم الفقراء والضعاف فيهلكون أنفسهم أو يفتنون المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإذا سار بهم فقرهم وحملهم على الفتنة المفضية إلى هلاكهم ، كان مثلهم كمثل الذي ثار به الدم فأهلكه .

---

(١) استهام : جعلت عالما : يعنى أن الشيطان جعلك عالما ضالا .



## قضاء الحقوق صيانة للسلام

لا يعرف التاريخ أهل بيت جاهدوا في الله حق جهاده كما يعرف ذلك لآل ياسر ، حتى كان رسول الله ﷺ يمر بأهل هذا البيت وهم يعذبون فيقول لهم : ( صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة ) . وقد نشأ عمار ابن ياسر بين أبويه : ياسر وسمية أول شهيدة في الإسلام ، ورأى ما كان يصيب أبويه من عذاب وما يتجلى في وجه رسول الله ﷺ من مظاهر العطف عليهما ومعالم الرحمة بهما ، فزاده ذلك حبا لرسول الله وقوة في الإيمان بدعوته وإصرارا على أن يتابع خطواته في سبيل الانتصار للعقيدة ، ثقة منه بأن الله تعالى قد استجاب لنبيه دعوته أن يكون آل ياسر من أهل الجنة .

ولم يقف حب عمار عند رسول الله وحده بل شمل معه حب آل البيت أجمعين ، فكان من أنصار الإمام علي كرم الله وجهه في أثناء اختلافه مع معاوية رحمة الله عليه على ما يروى الثقات ، من أن عمار بن ياسر نادى في الناس ذات يوم : يا معشر قريش إلى متى تصرفون أمر الخلافة عن أهل بيت نبيكم ، تحولونه هاهنا مرة وهاهنا مرة ؟ إلى لا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله . فقال له هاشم ابن الوليد بن المغيرة : يا بن سمية لقد عدوت طورك . ما أنت وما رأيت قريش لأنفسها ؟ إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها ففتح عنها . ثم تكلمت قريش بأجمعها فصاحوا بعمار وانتهروه ، فلم يزد عمار على أن قال : الحمد لله رب العالمين ، إن أعوان الحق ما زالوا أذلاء . ثم قام فانصرف .

وقد وقع بعض ما كان قد توقعه عمار بن ياسر رضي الله عنه ، فجعلت عواصف الشر تعصف بقريش وقد امتباحت من مقدساتها ما لا يستبيحه إلا

عدو يتغنى الانتصار على عدوه بأى ثمن وعلى أية صورة ومن أى طريق .  
وكان شر ما أصيب به المسلمون — وفي طليعتهم قریش — الخوارج وغلاة  
الشيعية ، وهما الفرقتان اللتان قضتا على السلام فى الأمة الإسلامية : سلام  
الفرد ، وسلام الأسرة ، وسلام المجتمع الذى يعيش فيه المسلمون .. بما ابتدعه  
أولئك وهؤلاء من صور اجتماعية ضاعف البلاء فيها سوء التأويل لكتاب الله  
الكریم ، واقتراء كواذب الأحاديث على الرسول العظيم .

وقد أسلفنا لك — أعزك الله — كلمة عن الخوارج والشيعية ، وننتهز بك  
هذه السانحة للفتك إلى صورة من البلاء الذى يلزم تضييع حقوق ذوى  
الحقوق . وسوف ترى أن معرفة الحق لأهله صيانة للمروعة وأمان من الفتنة .  
وعلى غير هذا المنهج تكون حياة الأمم إذا انتكست فيها الأوضاع وضاعت فيها  
الحقوق ، حتى طمع فيها العدو وتغلى عنها الصديق .

ولعله لا يخفى على من يتدبر كلمات الإمام فى النهج ما كان يقاسيه كرم الله  
وجهه من خلاف أصحابه عليه ، وإعنائهم جميعا له ، فإن فعل ما طلبوا إليه  
لاموه وحملوه خطئا هم اقترفوه ، وإن لم يفعل ما أرادوه منه قصروا فى  
الاستجابة له وتفاضوا عن أوامره ونواهيه ، فكان مثله معهم كرم الله وجهه  
كمثل الشاعر حين قال :

فشكواى تؤذيها وصبرى يسوؤها وتجزع من بعدى وتنفر من قرى  
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبا الشكر من رى  
وهذه الحيرة التى ذكرها الشاعر هى بعض ما كان يقاسيه أمير المؤمنين على  
كرم الله وجهه من الغلاة فى حبه والغلاة فى بغضه على سواء .

ذلك أنه لم يمكن له بد من النزول على رغائب القوم فى احتكامهم إلى القرآن  
حين اشتد البلاء بالقتال بين جنده فى العراق وجند معاوية فى الشام ، حتى ذكر له  
أهل الرأى من الفريقين أنهم يخشون على حرماهم وذرايعهم فى العراق  
( م ٩ — على إمام الأئمة )

من أهل فارس ، كما يحشون على حرمانهم وذرائعهم في الشام من الروم .  
فلما رضى التحكيم ووافق عليه أنكر الخوارج ذلك ورفضوه هاتفين  
بشعارهم المعروف : لا حكم إلا لله . ثم راحوا يتبعون هذا قولهم إن علياً  
حكم الرجال في دين الله . ومضوا يثيرون الفتنة عن هذا الشعار ، فخطب  
الناس كرم الله وجهه قائلاً :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن ، وإنما القرآن خط مستور بين  
الدينين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال . ولما  
دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا للقرآن لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله  
سبحانه وتعالى ، وقد قال الله — جل ثناؤه — : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ  
فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) . فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه ، وردّه إلى  
الرسول أن نأخذ بهسته . فإذا حكم الحاكم بالصدق في كتاب الله فحق أحق  
الناس به ، وإن حكم بسنة رسول الله ﷺ فحق أحق الناس وأولاهم بها .  
وأما قولكم : لم جعلت بينك وبينهم أحلا في التحكيم ؟ فأما فعلت ذلك  
ليتين الجاهل ويتيت العالم ، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدية أمر هذه الأمة .  
ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه من الباطل ، فأين  
يتاه بكم ، ومن أين أتيتم ؟ استعملوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحق  
لا يبيصرونه ، وموزعين بالجور لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب نكب عن  
الطريق . أف لكم لقد لقيت منكم برحاً . يوماً أناديكم ويوما أناجيكم ،  
فلا أحرار صدق عند البناء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء .

فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أعطأت وضللت ، فلم تضلّون عامة أمة محمد  
بضلالى وتأخذونهم بخطي وتكفرونهم بذنب من أذنب وقد علمتم أن

رسول الله ﷺ رجم المحصن وصلى عليه ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله ، فأَمْضَى في المخطئ حكم الله ولم يمنعه حقه . ألا وإنى لأخشى أن تكونوا أحد الصنفين المالكين الذين تضمنهما حديث رسول الله ، أنه سيهلك في صنفان .. محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق . وغير الناس في حال التخطئ الأسود فالزموه والزموا السواد الأعظم . فإن يد الله على الجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان ، كما أن الشاذ من الغنم للذئب . لقد حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن . وإحياء ما أحيا القرآن الاجتماع عليه ، وإماتة ما أمات القرآن الافتراق عنه . فإن جُرْنَا القرآن إليهم اتبعناهم ، وإن جرهم إلينا اتبعونا . فلم آت — لأبأ لكم — بحرا (١) ، ولا اختلتكم عن أمركم ، ولا بُستة عليكم . ولقد اجتمع رأي ملككم على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعديا القرآن فتاها عنه ، وتركا الحق وهما يبصرانه ، وكان الجور هوأما فقضيا عليه .»

إن هذه الكلمات من الإمام كَرَّمَ الله وجهه لتأخذ بيد طلاب الحق إلى اليقين البصير ، بأنه حقيق بإمرة المؤمنين بما هيا لله تعالى له من أسباب لم تتبأ لغيره . فلما لم يعرف الناس حقه عليهم فقصروا في قضائه له وأدائه إليه ، أصاب الأمة ما يصيب الذين يتفاضون عن الحق ويحتكمون إلى غير العدل فبرمهم الله تعالى بما يقض مضاجعهم بالليل ، ويزعج سكنتهم بالنهار . ولعل أعدل شاهد لهذه القضية ما أتاه إلى الإسلام والمسلمين صاحب الزنح ، الذى سلطه الله تعالى على الأمة مصيبة لاتعدها مصيبة نزلت بالإسلام والمسلمين ، .. وإليك بعض الخبر عن هذا اللعين ، لثرى مقدار البلاء الذى

(١) البحر : الأمر المحبب أو العاهة أو الشر وق كلمة الصديق إما هو الفجر أو البحر .

نزل بساحة أمتنا عن طريق الغض من قدر ذوى القدر ، والنهائون في معرفة الحق لأهلهم وأدائه إليهم كاملا غير منقوص :

روى شارح النهج أن رجلا يدعى المغيرة بن سعيد كان من موالى العرب ، وقد أحب أن يحدث لنفسه مقالة مذهبية يستهوى بها قوما ويال بها ما يريد الظفر به من الدنيا ، فبدأ من ذلك بالقُلُو في عَلَى كَرَّمَ الله وجهه فقال : لو شاء عَلَى لأحيا عادا وغمود وقروما بين ذلك كثيرا . وقد جاء المغيرة هذا فاستأذن — ذات يوم — على محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، فقال له : أخبر الناس أنى أعلم الغيب وأنا أطعمك العراق . فزجره الإمام زجرا شديدا وأسمعه ما كره ، فانصرف عنه . فأقى أبا هاشم رحمه الله فقال له مثل ذلك ، وكان أبو هاشم قويا فوثب عليه فضربه ضربا شديدا أشفى به على الموت . فلما برئ أقى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، وكان محمد رجلا سكيئا فقال له كما قال لمن قبله . فسكت محمد فلم يجبه ، فطمع فيه بسكوته فخرج عنه وهو يقول أشهد أن هذا هو المهدي المنتظر ، وأنه قائم أهل البيت . ثم قدم المغيرة هذا الكوفة — وكان مشعبا<sup>(١)</sup> — فدعى الناس إلى قوله الذى كان يغلو به فى عَلَى ونيّه فاتبعه خلق كثير . وقد مضى يدعى على محمد بن عبد الله الحسنى أنه أذن له فى خنق الناس وسقيهم السموم ؛ ثم بث أصحابه فى الأسفار يفعلون ذلك بالناس . فقال له بعض أصحابه : إنا نختنق من لانعرفه . فقال لهم : لا تهتموا بذلك ، فإن الذى تختنقونه إن كان من أصحابكم عجلتموه إلى الجنة ، وإن كان من عدوكم عجلتموه إلى النار . ثم تفاقم أمر العلاء بعد المغيرة هنا فأمعنوا فى الغلو حتى ادعوا حلول الذات الإلهية المقدسة فى قوم من سلالة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا بالتناسخ ، وحجروا البعث والنشور وأسقطوا الثواب والعقاب . وقال قوم منهم : إن

(١) المشعة : التدليس والتحايل لترويج منهج باطل أو الظفر بمال حرام .

الثواب والعقاب إنما هو ملاذ هذه الدنيا ومشاقها . ثم تولدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهب أفحش منها قال بها خلفهم ، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنصيرية ، وهي التي أحدثها محمد بن نصر النخعي الذي كان من أصحاب الحسن العسكري .

ومن العجيب أن صاحب الزنج ، هذا الفوضى الذي استغل الحاقدين من أهل الطبقة الدنيا في حرب الإسلام وتعذيب المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة العربية الإسلامية ، كان يزعم للناس كذباً أنه علوي ، وأنه هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وأعجب من ذلك أن أتباعه كانوا من الزنوح الذين يكسحون السباغ بالبصرة ، ولذلك اتفق النسابون على أنه لا صلة له بالبيت النبوي الكريم . ومن أدلتهم على ذلك أنه كان ينادى في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش ، فتباع الجارية فيهم بدرهمين . وينادى عليها بنسبها فيقال : هذه ابنة فلان ابن فلان ، وكان كل زنجي منهم يستولى على العشرين والثلاثين بخمسة النساء الزنجيات . وما زالت هذه المحنة مستمرة النار حتى تداركت الأمة الإسلامية رحمة الله ، فركدت ريح الفتنة بما أجرى الله تعالى من الخير على يد الخليفة العباس أحمد المعتضد بالله الذي دخل إلى بغداد في جيش كثيف ورأس صاحب الزنج بين يديه ، والله تعالى بالمومنين رءوف رحيم .

## على سيد العلماء بشئون الاجتماع

إن الذى أكرمه الله تعالى بشرف النسب وكرم البيعة ، ويسر له سبيل القدوة بآبائه وأجداده فى حرصهم على لزوم معالى الأمور والنفور من مفساها ، لا جرم أنه ينشأ نشأة صالحة تأخذ بيده دائما إلى معالم الهدى وتبأى به عن متاهات الضلال .. فإذا نظر أصاب الحق وإذا فكر استخرج أصدق النتائج من أصح المقدمات . ثم إذا انضم إلى هذه الفضائل فى إنسان فضيلة الفضائل بتأديب رسول الله ﷺ وعايته بأمره ، فلا جرم أن يكون هذا الإنسان سيد العلماء بشئون الاجتماع .

وكذلك كان الإمام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — فى كل ما كان يصدر عنه من قول أو فعل ، وكذلك تراه فى أفضيته التى قضاهما وفتاواه التى أصدرها وخطبه التى دونها له الثقات .

واليك ما يشير إلى هذا الذى ذكرنا لك ، فى كلمته التى أجاب بها سائله عن أحاديث البدع وعمّا فى أبهى الناس من حكم وأحكام ، فذلك حيث قال كرم الله وجهه :

« إن فى أبهى الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وحاصا ، ومحكما ومتشابها ، وحفظا ووهما » .

ولقد كُذِبَ على رسول الله ﷺ حتى قام خطيبا فقال : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس :

أحدهم ، رجل منافق مظهر للإيمان متصع بالإسلام لا يتأثم ولا ينحرح ، يكذب على رسول الله ﷺ متعمدا . فلو علم الناس بأنه منافق

كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله ، ولكنهم قالوا صاحب رسول الله ﷺ وقد رآه وسمع منه ولقف عنه فلا يجلون مندوحة عن الأخذ بقوله . وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبر ، ووصفهم بما وصف ، ثم بقوا بعنه ففتربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان فولوهم الأعمال ، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس ، فأكلوا بهم الدنيا . وإنما الناس مع الملوك ومع الدنيا إلا من عصم الله . فهذا أحد الأربعة .

**وثانيهم** ، رجل سمع من رسول الله ﷺ شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا ، فهو في يديه يرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله ﷺ . فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه .

**وثالثهم** ، رجل سمع من رسول الله ﷺ شيئا أمر به ، ثم نبى عنه وهو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم ، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه .

**ورابعهم** ، رجل لم يكذب على الله ولا على رسوله ، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله ﷺ ، وقد حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه ، فهو حفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه ، وعرف الخاصة والعامة والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه .

وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان : فكلام خاص ، وكلام عام فيسمعه من لا يعرف ما عى الله سبحانه به ولا ما عى رسول الله ﷺ ، فيحمله السامع على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله . وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه ،



حتى إنهم كانوا يحبون أن يجيء الأعراف والطوائف فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا .  
ثم مضى الإمام كرم الله وجهه يقول : كان لا يمر من ذلك شيء إلا سأله  
عه وحفظته ، فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعلمهم في رواياتهم .  
وأنت لا تشك بعد أن تقرأ هذه الكلمات للإمام كرم الله وجهه ، في أنك  
تستمع إلى عالم أزهري متخصص في أصول الفقه وهو يلقي درسه على طلاب  
القسم العالي في الجامع الأزهر الشريف . ذلك أنك لا ترى أسلوباً إنشائياً  
ولكنك ترى أسلوباً علمياً لم يعهده الناس إلا من الذين يحرصون على تنقيح  
القول وتهذيب الكلام .

وقد علق شارح النهج على هذه الخطبة بما نؤثر أن نتحرى تدوينه في هذا  
الفصل بلفظه أو بأقرب الألفاظ إلى لفظه ، فنقول ومن الله نستمد المعونة  
والتوفيق :

قال الشيخ العلامة أبو حامد عز الدين : في هذه الخطبة ألفاظ أصولية هي  
العام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والكذب ، والمحكم  
والمتشابه . وهذه الكلمات يسأل عنها ويؤخذ جوابها من أصول الفقه .  
ولكن الإمام في هذه الكلمات كان يلتزم طريقة التعليم القائمة على التفصيل  
وتحديد معاني الكلمات . فذلك هو الفرق بينه — كرم الله وجهه — وبين  
الذين يتشدقون بالكلام فيؤثرون حسن الأحذوثة عنهم ، ويحرصون عليها  
أكثر مما يحرصون على نفع المريدين من طلاب العلم ، الذين كانوا أحوج إلى  
التحديد والتوضيح منهم إلى التشادق والتفاسيح .

وهنا كلمات تحتاج إلى مزيد عناية بها وطول تأمل فيها ، فلا منلوحة عن  
الوقوف حيالها وقفات تقوم بقضاء الحق لها وتمهد السبيل إلى أعظم الانتفاع  
بها . والله الهادي إلى سواء السبيل :

وأولى هذه الكلمات ، كلمة وهم — بسكون الهاء — لأنها مصدر للفعل

وهم على مثال وعد ، فكما تقول وعد يعد وعدا ، تقول وهم بهم وهما ، تعنى أنه تحيل الشيء دون أن يحققه . ويجيء الفعل على صورة أخرى فيقول العرب وَهَمَ فلان على مثال فرح يعنى أنه غلط ، وربما قال العرب لقد وهمت فى صلاقي يعنى أنه سها فيها . فالفعل فى هذه الحال على مثال فرح . فكما تقول فرح يفرح فرحا وغلط يغلط غلطا . تقول وهم يوهم وهما تعنى أنه غلط وسها . وثانية الكلمات ، « تَأْتُمْ وَتُخْرَجُ » فإن هذا الفعل وما يشتق منه يشير إلى الكف عن موجب الإثم . فالعرب يقول فلان يتأثم يعنى يترك موجبات الإثم . وثالثة هذه الكلمات كلمة « جنب عنه » بمعنى الانصراف عن الشيء وكلمة « لَقِفَ عنه » بمعنى تناوله بسرعة .

ومن تلكم الكلمات كلمة رسول الله ﷺ : ( فليتبوأ مقعده من النار ) فإنها أمر بمعنى الخبر . والمعنى فى الحديث الشريف أن من كذب على رسول الله ﷺ فإنه ينزل منزلا من النار يوم القيامة ، وليس يرتاب الذين يعرفون أخلاق الإمام وينابيع علمه فى أد هذا التقسيم الذى ذكره تقسيم صحيح .

وقد مضى أبو حامد يقول : قد كان فى أيام رسول الله ﷺ منافقون بقوا بعده ، فليس يمكن أن يقال إن النفاق مات بموته ﷺ . فإن شئت أن تعرف السبب فى استتار حالهم بعده ﷺ ، فاعلم — علمك الله الخير — أن السبب كان لا يزال يذكرهم بما ينزل عليه فى شأنهم من القرآن الكريم ، فكان السبب فى انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن العظيم . فلما انقطع الوحي بموت رسول الله ﷺ لم يبق من ينمى عليهم سقعاتهم ويوبخهم على أفعالهم ويأمر بالخذل منهم ويجاهرهم تارة ويخاملهم تارة ، فلما صار الأمر إلى خليفة رسول الله ﷺ كان يحمل الناس كلهم على كاهل المخاملة ويعاملهم بالظاهر ، وذلك هو الواجب فى حكم الشريعة والسياسة الدنيوية ، بخلاف حال الرسول ﷺ ، فإن تكليفه معهم كان على غير هذا التكليف ، لأنك ترى أن الله تعالى يقول

لرسوله : ﴿ وَلَا تَصَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ <sup>(١)</sup> فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلا كان النبي له عن الصلاة عليهم تكليف مالا يطاق . وعلى غير هذه الطريقة كان الوالى بعده ، فلم يكن يعرفهم بأعيانهم ، ثم هو لم يكن مخاطبا بما خوطب به رسول الله في أمرهم . وللسكوت الخلفاء عنهم بعده محل ذكرهم ، فكان قصارى أمر المنافق أن يسر ما في قلبه ويعامل المسلمين بظاهره ويعاملونه هم بحسب ذلك . ثم فتحت عليهم البلاد وكثرت الغنائم فاشتعلوا بها عن الحركات التى كانوا يعتمدونها أيام رسول الله ﷺ . ثم بعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والروم فلهتهم الدنيا عن الأمور التى كانت تنقم منهم في حياة رسول الله ﷺ .

ومنها من استقام اعتقاده وخلصت نيته لما رأوا الفتوح وإلقاء الدنيا إليهم بأفلاذ كبدها من الأموال العظيمة والكوز الجليلة ، فقالوا : لو لم يكن هذا الدين حقا لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه . وحمله القول فيهم أنهم لما تركوا تركوا ، وحيث سكنت عنهم سكنتوا عن الإسلام وأهله إلا في دسيسة خفية يعملونها ، من مثل الكذب على رسول الله الذى أشار إليه الإمام — كرم الله وجهه — فإنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم ضلت عقيدتهم . وقد كان هؤلاء الضالون يذكرون قوما كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دينوى ، حتى إن الثقات ليتحدثون بأنه افعل في أيام معاوية حديث كثير . ولم يسكت المتحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبينوا وصفها وأن رواتها غير موثوق بهم . إلا أن المتحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة لأن عليه لفظ الصحبة .

على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحة من أمثال بشر بن أرطاة وغيره . فإذا سأل سائل : من هم أئمة الضلالة الذين يتقرب إليهم المنافقون ، وهل هذا إلا تصريح بما تذكره الشيعة الإمامية وتعتقدونه ؟ فإن الذي يجيب عن سؤالك هذا يقول لك إن الإمام — كرم الله وجهه — إنما يعنى بكلماته في هذه الخطبة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومن شايعهما على مذهبهما ، كالخبر الذي رواه من رواه في حق معاوية من كلمة النبي في شأنه : اللهم قه العذاب والحساب وعلمه الكتاب . وكذلك رواية عمرو بن العاص يتقرب بها إلى قلب معاوية فيقول : إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، وإنما ولي الله وصالحو المؤمنين . وكذلك رواية قوم في أيام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان تقربا إلى معاوية بها .

ولسا نجد فضل عثمان وسابقتها ، ولكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه أخبار موضوعة . وليس بغض من قدر الفاضل أو يحط من منزلته الرفيعة أن تكون الأخبار الواردة في فضله مفتعلة مختلفة . فإننا — مع اعتقادنا بأن علياً أفضل الناس — نعتقد أن بعض الأخبار الواردة في فضائله مفتعلة مختلفة على ما يذكر ذلك أبو جعفر محمد بن علي الباقر ، فيقول لبعض أصحابه : لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أخبر أننا — آل البيت — أول الناس بالباس . فتألت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه وهي تحضج على الأنصار بحقنا ، ثم تداولته قريش واحدا بعد واحد حتى رجع إلينا فكثرت بيعتنا ونصبت الحرب لنا . ولم يزل صاحب الأمر في صعود حتى قُتل ، فبايع الناس ابنه الحسن وعاهدوه ثم غدروا به وأسلموه ، ووثبوا عليه حتى طعنوه بخنجر في جنبه ونهبوا عسكره ، وعالجوا خلاخيل أمهات أولاده فلم يجد بدا من موادة معاوية حقا لدمه ودماء أهل بيته وهم قليل حتى قليل . ثم بايعوا الحسين من بعده فغدروا به وخرحوا عليه وقتلوه . ثم لم نزل — نحن أهل

البيت — نستنزل ونستضام ونقصي ونمتن ونحرم ونقتل ونخاف ، لا نأمن على دماءنا ودماء أوليائنا . وقد وجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلد ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكنوبة راوين عنا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليبغضونا إلى الناس . وكان أعظم ذلك وأكثره وآكده أيام معاوية بعد موت الحسن ، فقتل شيعتنا بكل بلد ، وقطعت أيديهم وأرجلهم على القلعة ، وكان من يعرف عنه أنه يحبنا يسجن أو ينهب ماله أو تهدم داره . ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام .

ثم جاء الحجاج بن يوسف الثقفي فقتلهم كل قتل ، وأخذهم بكل تهمة وظنة ، حتى إن الرجل ليؤثر أن يوصف بالكفر أو الزندقة على أن يوصف بأنه من شيعة علي . وربما رأيت الرجل الصدوق الورع يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفصيل بعض من قد سلف من الولاة وهو يحسب أنها حق مع أنها الباطل نفسه ، ولكنه يحسبها حقاً لكثرة من رواها من لم يعرف بكذب ولا نقلة ورع . ولذلك أكثروا في الرواية عن فضائل وسوابق ومناقب أعداء علي ، مع الغرض من علي وعبيد الطعن فيه والشنآن له ، حتى إن إنساناً وقف للحجاج فصاح به : أيها الأمير إن أهل عقوبي فسموني علياً ، وإن فقير بئس وإلى صلة الأمير محتاج . فتصاحك له الحجاج قائلاً له : للطف ما توسلت به وأيتك . وكذلك روى ابن عرفة المعروف بنفطويه أن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة إنما افترعت في أيام بني أمية ، تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغبون به أنوف بني هاشم . والدليل على أن هناك أحاديث موضوعة مطعوناً في نسبها إلى رسول الله ، حبر رواه ابن عمر عن رسول الله وفيه يقول صلى الله عليه وآله : ( إن الميت يُعَذَّبُ بيكاء أهله عليه ) .

ووجه الخطأ في نسبة هذا الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ابن عباس لما روى له

فقال : لقد ذهّل ابن عمر . إنما مر رسول الله ﷺ على قبر مشرك فقال : إن أهل المدفون في هذا القبر ليكون عليه وإنه ليعذب بجرمه . وكذلك خير قلب بدر وقد روى فيه الرواة أن النبي ﷺ وقف على قلب بدر فقال : ( هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ) ؟ ثم قال : ( إنهم يسمعون ما أقول لهم ) . فلما بلغ الحديث أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها أنكرته وقالت : « إنما قال رسول الله ﷺ إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق » . ثم استشهدت رضي الله عنها الآية الشريفة ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ (١) .

وأما الصنف الثالث الذي سمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ فقد وقع كثيرا . وكتب الحديث مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر روي في ذلك دون أن يرووا الخبر الناسخ . قال الشيخ العلامة أبو حامد : اعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام ، كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلاوات مع رسول الله ﷺ لا يطلع أحد من الناس على ما يدور فيها . وكان هو كثير السؤال لرسول الله ﷺ عن معاني القرآن وعن معاني كلامه ، فإذا لم يسأل رسول الله ﷺ بدأه ﷺ بالتعليم والتثقيف . ولم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ كذلك بل كانوا أقساما : قسم يهاب أن يسأله ، وهم الذين كانوا يُحبون أن يحيى الأعرابي أو الطاريء فيسأله وهم يسمعون . والقسم الثاني كان بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث . والقسم الثالث كان مشغولا عن طلب العلم إما بالعبادة وإما بالدنيا . والقسم الرابع هم المقلدون الذين يروون فرضهم السكوت وترك السؤال .

فهذه هي الأقسام الأربعة التي أشار إليها الإمام في خطبته التي رويتها لك

آنفا ، وقد بقى قسم خامس وهم مبغضوه وشائعه الذين ليس للدين عندهم من الموقع ما ينفقون وقتهم وزمانهم بالسؤال عن دقائق العلم وغوامض المعرفة . ولا يشغلك هذا التقسيم بما اشتمل عليه من غوامض عن حقيقة لا بد أن تمثلها لتستعين بها مزيداً من الإمام بشرف الإمام عليّ وفضائله . وحلاصة هذه الحقيقة أنه كرم الله وجهه كان له ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته وإشراقه نفسه . وإذا كان المحل قابلاً متبهماً وكان الفاعل المؤثر موجوداً والمانع منتفياً ، حصل الأثر على أتم ما يمكن ويكون . فلذلك كان عليّ — كما قال الحسن البصري — رباني هذه الأمة ، ولهذا تسميه العلاسفة « إمام الأئمة » وحكيم العرب .

وقد مضى ابن أبي الحديد — مع أنه شيعي — يقول :

اعلم — رحمك الله — أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة حمهم على وضعها عداوة خصومهم . فلما رأَت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة أحاديث الشيعة لصاحبهم عليّ عليه السلام . وذلك نحو الحديث الذي يقول : ( لو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر ) . فقد وضعت الشيعة في مقابلة هذا الحديث حديث الإخاء الذي قال فيه رسول الله لعليّ : ( أنت أحيى في الدنيا والآخرة ) . وعلى قدر ما ذكر الشيعة في صاحبهم عليّ من الفضائل ذكر البكرية مطاعن كثيرة في عليّ وفي ولديه — فسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان في غيبة عما اكتسباه واجترحاه ، إذ كان في فضائل عليّ الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ،

ما يغنى عن تكلف العصية لهما . فوق أن هذه العصية أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعدد المحاسن إلى تعدد المساوئ والمقايح . والله المستول أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصية ، وأن يحررنا على ما عودنا من حب الحق أينما وجد وحيثما كان ، سحق ذلك من سحقه ورضيه من رضيه . والله يحب المحسنين .

---



## سؤال يبحث جاهداً عن جواب

كان الإمام كرم الله وجهه يقيس الأشياء إلى نظائرها ، ثم يستنتج نتائج لا تستجيب إلا للإنسان سوى الفطرة بعيد النظرة طويل التجربة لا يتحكم هواه في عقله ، فإذا هو على ذلك إنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق . وقد كان كرم الله وجهه كثيراً ما يتحدث إلى أصحابه بهذه العجائب ، بل كان ربما قال لهم : « سلوني قبل أن تفقدوني » . فإذا سألوهم أنبأهم بما كان رسول الله ﷺ قد أخبره به صادقاً مصدوقاً . وقد كان يضيف إلى ذلك ما تهديه إليه فطرته ويدله عليه فكره سليماً من العلل والآفات ، فلا يملك الناس أمام ذلك إلا أن يرفعوه فوق منازل البشر ، وربما وصفوه بصفة من صفات الله ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوا كَبِيراً ﴾ (١) .

ولسنا نسوق إليك رحمك الله هذه الكلمات من عند أنفسنا ، بل نرويه لك عما دونه الرضى من خطبته التى يقول فيها كرم الله وجهه :  
 « أما بعد حمد الله والثناء عليه .. أيها الناس — فإني قد فقت عين الفتنة ولم يكن ليجتريء عليها غيري ، بعد أن ماج غيبيها واشتد كلبها ، فاسألوني قبل أن تفقدوني ، فولدني نفسى يده لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به » .  
 وهنا يرد ذهك السؤال ، لماذا غلا الناس في أمر المؤمنين كرم الله وجهه ، فادعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عياناً ، مع أنهم لم يخلوا في رسول الله ﷺ فيدعوا له الإلهية ، في حين أن الغيوب الصادقة قد سمعوها منه وعلموها علم اليقين ، ورسول الله كان أولى بذلك من على ، لأنه الأصل المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر ؟ .

وجواب سؤالك هذا—على ما ذكر الثقات—هو أن الذين صحبوا رسول الله ﷺ وشاهدوا معجزاته وسمعوا أخباره عن الغيوب الصادقة عيانا ، كانوا أسد آراء وأعظم أحلاما وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا الإمام في آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه فإنهم كانوا من ركافة البصائر على حال مشهورة ، فلا عجب من مثلهم أن تستخفهم الغرائب غير المألوفة فيعتقدوا في صاحبها أن الجوهر الأعلى قد حل فيه ، لأنه لا يصح من البشر هذا الذي سمعوه ورأوه إلا في إطار إيمانهم بنظرية الحلول . وربما كان من هؤلاء من سمع من أبيه وسلفه نظرية الحلول في أنبيائهم ورؤسائهم فاعتقدوا في الإمام مثل ذلك الذي ألفوه من قبل . على أنه يجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدين أرادوا إدخال الإلحاد في الإسلام فذهبوا إلى تلك المقالة توطئة لما يريدون . ولو قد كان هؤلاء في أيام رسول الله ﷺ لقالوا فيه مثل هذه المقالة إضرالا لأهل الإسلام ، وقصدوا لإيقاع الشبهة في قلوب المسلمين . غير أنه لم يكن في الصحابة مثل هؤلاء ولكن كان فيهم منافقون لم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة . وإنى لأعتقد أن الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، يتجلى على غاية الوضوح في أن أولئك الملاحدة كانوا من ساكنى الكوفة . وطينة هؤلاء وأمثالهم ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة . وأهل تلك الأقاليم التي عاش فيها الإمام هم أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد وعن شبه معترضة في المذاهب . وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ما كان في مزدك وغيره من أهل الفلسفة والزندقة والإلحاد .

ولكن طينة أهل الحجاز ليست من تلك الطينة ، ولا أذهانهم من فصيلة تلك الأذهان ، إذ الغالب على أهل الحجاز الجفاء وخشونة الطبع . والذين ( ١٠٣ — على إمام الأمة )

سكنوا المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف كانت طباعهم قرية من طباع أهل البادية يحكم المجاورة والتضارب ، فلم يكس فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ، ولا صاحب نظر وجدال ، ولا موقع شبيهة ، ولا متبوع نحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة ناشئة من حيث سكن الإمام كرم الله وجهه بالكوفة وما حوالها ، ولم تكن هذه المقالة في أيام مقامه بالمدينة وهي أكثر عمره ، فهذا الفرق — فيما ذكر الثقة — هو الخلق بالاعتبار .

---

## الحب بين الفكر والعاطفة

إن حب الناس إنسانا لا يخلو من أن يكون ناشئا عن الانتفاع به في شأن من شئون الدين . وربما أحبوا إنسانا حبا ناشئا عن الرثاء له والإشفاق عليه ، ومبلغ علمنا أن الحب نوعان .. حب التقدير والاحترام ، وحب الرثاء والإشفاق .

فأما حب الناس أمير المؤمنين حب تقدير واحترام ، فمرده إلى انتفاع الناس به في شئون الدنيا وشئون الدين . وآية ذلك وبرهانه ما أسلفناه لك من سيرته الشريفة في تمام مروءته وكآل زهادته ، وبعد نظره في شئون السياسة وصواب فقهه بأمور الدين ، إلى شجاعة فائقة لا تنهاب الموت في ابتغائها شرف الحياة ، مع بذل للمال وسماحة في العطاء لم يسبقه إليه أحد إلا ابن عمه محمد رسول الله الذي كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، والذي لم يمكن بخشى إلا الله وحده لا شريك له .

وأما حب الناس له كرم الله وجهه حب إشفاق ورثاء ، فقد أشار إليه نقيب الطالبين ، غير أن هذه الإشارة جاءت مجملة لا تستغنى عن تفصيل يوضح إجمالها في غير إطناب ممل ولا إيجاز مخل ، فذلك هو قضاء الحق لأمر المستحقين المحرومين كرم الله وجهه .

إن حبك إنسانا رثاء له وإشفاقا عليه لا يقل في باب الدعوة ولا يعدله إلا حبك إياه حبا يعود عليك بخير دنياك وآخرتك . ولعل حب الرثاء أدنى إلى المشاركة الإنسانية الشريفة من حب المنفعة وابتغاء الفائدة . وما أصدق ما قال الشاعر :

يرثى له الشامت .. مما به يا ويح من يرثى له الشامت

فيذا بلغ الأمر بالإنسان أن يرحمه عدوه ويرثي له الشامت به ، فإن حب الناس إياه على هذه الصورة أمر لا يختلف فيه من توافر لهم حظ من الإنسانية قل أو كثر .

ولكى تمثل ما أنزله أهل الجحود بآل البيت النبوي الكريم مما تنوء به شم الجبال ، نروى لك شيئا تستدل به ، والقليل يدل على الكثير والتماذج تعلن عن الحقائق ، فنقول وبالله المستعان :

إن أول ما يدعو إلى العبرة في حديث أئى طالب وبنيه وحفدته أن تتمثلهم موضع اضطهاد وقتل وتشريد ، فإذا هم بين مقتول ومفقود قد بلغ عددهم فيما أحصاه الثقات مائتين واثنين وعشرين بطلا من أبطال التاريخ ، كان أكثرهم يسعى إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ودعم قواعد العدل ورفع أريات السلام بين العالمين .

ولست ترتاب في أن جملة هؤلاء الأبطال المجاهدين من شأنها أن تجمع القلوب حول الإمام على كرم الله وجهه ، جمعا يتألف من الاعتزاز بعلمه ودينه ، كما يقوم على الرثاء له والإشفاق عليه وتمثله — رضى الله عنه — بين هم مقعد مقيم ، كلما ذكر أخا له أو ابنا أو حفيدا ، ثم ذكر أن الضرر من هؤلاء جميعا فالتقى بهم أو بكثير منهم إلى ظلمات القبور أو إلى ذل الحياة يكابدون لأواءها ويقاسون بلاءها ، وهم السادة الذين لا يرق إلى منازلهم الذين جحلتوا فضلهم وتكبروا لشرفهم ثم ساموهم الخسف الميين والعذاب المهين .

ومما يأكل القلب حرقه وألما أنك ترى الذين نكلوا بهؤلاء الأبطال لم يكونوا من المشركين ولا من أهل الكتاب ، ولكنهم كانوا من أبناء عمومتهم الأبعدين بسى أمية ، والأقرين بنى العباس . فكانوا شركاءهم في العرق والعقيدة .

وأول ما يرويه الثقة من ذلك عن الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما من طريق ابن سيرين قال : إن الحسن دخل المخرج ثم خرج فقال لأخيه الحسين : لقد سقيت السم مرارا فما سقيته مثل هذه المرة ، ولقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت أقلبها يعود معي .. فقال له الحسين : من سقاكه يا أخي ؟ فقال : أتريد أن تقتله ؟ إن يمكن هو هو ، فإله أشد نعمة منك ، وإن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بي يريء . ثم مات رضي الله عنه ودفن في البقيع في جنب فاطمة الزهراء ، وقد كان أوصى أن يدفن مع رسول الله فمنعه مروان بن الحكم من ذلك .

وثانية البليتين مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة . ولو أن أمر البلية بمقتله وقف عند القتل وحده لقال الناس رجل خرج بثأر لأبيه وأخيه فقتله أهل البغي والإجرام ، فكانت المصيبة بذلك أدنى إلى العزاء عنها والتجمل فيها . ولكن الذي يضاعف من وقعها على النفوس ويساير نكرها في التاريخ ماتت خاشع به أبصار وتنخاضع له أعناق ، هو أن يفقد قاتلوه شرف المروعة وكرم الدين فينبشوا قبره .. وقد كان من أخلاق الأشراف ألا يتبعوا مديرا ولا يجهزوا على جريح .

لقد فعل بنو العباس ذلك حتى قال شاعر عربي :

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيه مظلوما  
فلقد أتى ابن بني أبيه بمثله هنا لعمر كقبره مهلوما  
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا في قتله فتبعوه رميما  
ثم لو أن قتل الحسن بالسم والحسين بالسيف لم يكن خالطه هذا الصغار من محاربة القتلى في قبورهم ، وقتل الذين لا حول لهم ولا حيلة من أصحاب الحسين ، لكان لذلك التصرف وجه يحتمل الحديث . ولكن فقدان المروعة وهوان

فلما فرغ الرجل من إنشاد الشعر استحسنت البيتين وثاب إلي عظمي ، وقد تفاءلت بهما فأقبلت على الرجل أقول له : تفضل — أعزك الله — فأعد على هذين البيتين . فتغير وجه الرجل ثم قال : ويحك يا هذا ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك وأضعف مروءتك ! لقد دخلت ولم تسلم تسليم المسلم على المسلم ، ولا توجهت لي توجع المبتل للمبتلى ، ولم تسألني سؤال الوارد على المقيم ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر لم يجعل الله فيك خيرا ولا أدبا ، ولا جعل لك معاشا إلا منه لم تذكر ما سلف منك فتلافاه ، ولا اعتذرت مما قدمت وقرطت فيه من الحق ، فرحت تستشدين مبتدئا كأن بيننا أنسا قديما أو صعبة تبسط المنقبض . فلم أملك إلا أن أقول له : اعزني متفضلا فإن دون ما أنا فيه يدهشني . فسألني : وفي أي شيء أنت ؟ إنما تركت قول الشعر الذي كان جاهلك عند بنى العباس وسيلك إليهم فحبسوك حتى تقوله ، وأنت لا بد أن تقوله فيطلقوك . وأما أنا فسيدعي في الساعة إلى المهدي فأطالب بإحضار عيسى بن زيد بن رسول الله ﷺ ، فإن دلت عليه قتلوه فلقيت الله عز وجل بدمه وكان رسول الله ﷺ خصمي فيه ، وإن لم أدل عليه قتلوني ، فأنا أولى بالحجارة منك وأنت ترى احتسابي وصبري . فقلت : يكفيك الله عز وجل . وأطرقت إلى الأرض خجلا منه فقال لي : لا أجمع عليك التوبيخ والحرم . اسمع البيتين واحفظهما إن شئت . فأعادهما على مرارا حتى حفظتهما . ثم دعى به وني إلى الحضرة ، فلما وقف بين يدي المهدي قال له : أين عيسى بن زيد ؟ قال الرجل : وما يبرئني أين عيسى بن زيد . لقد طلبته وأخفته فهرب منك في البلاد فأخذتني وحبستني . فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوب ؟ .. فقال له المهدي : فأين كان متواريا ومتى كان آخر عهدك به وعند من لقيته ؟ فقال الرجل : ما لقيته منذ توارى ولا أعرف له خيرا . فقال المهدي : والله لتدليني عليه أو لأضربن عنقك

الساعة . قال الرجل : اصنع ما بدا لك أفتراى أدلك على ابن رسول الله ﷺ لتقتله فألقى الله عز وجل ورسوله ﷺ يطالبني بدمه ؟ والله لو كان عيسى بن مريم ثوى وجلدى ما كشفت لك عنه . قال المهدي : اضربوا عنقه . ثم دعاني فقال : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قلت : أقوله . قال : أطلقوه .

هنا ما يشير إلى الذين اختفوا عن أنظار بنى العباس خشية التشكيل بهم ، وأما الذين شردهم الحوف في الآفاق فإليك حديث أحدهم وهو عبد الله الأشر بن محمد بن عبد الله من آل علي كرم الله وجهه . وخلاصة ما ذكره ثقات المؤرخين ما يرويه ابن مسعدة المؤدب فيقول : لما قتل محمد بن عبد الله ابن الحسن ، خرجنا بابنه الأشر فأتينا الكوفة ثم انحدرنا إلى البصرة ثم خرجنا إلى السند ، فلما كان بيننا وبينها أيام نزلنا خان فكتب على جداره الأشقر هذه الأبيات ، ثم وضع اسمه عليها وهى :

منخرق الحفين يشكو الوجسى      تنكبه أطراف مرو حداد  
شرده الخوف وأزرى به      كذاك من يكـره حر الجلال  
قد كان في الموت له راحة      والموت حتم في رقاب العباد  
يقول راوى الخبر ابن مسعدة : ثم دخلنا المنصورة فلم نجد شيئا ، فدخلنا قندهار فأحلت الأشر قلعة فيها لا يرومها رائم ولا يطير بها طائر . ولقد كان الأشر — والله — أفرس من رأيت من عباد الله ، ما إخال الرمح في يده إلا قلما ، فنزلنا بين ظهراني قوم يتخلقون بأخلاق الجاهلية ، يطرد أحدهم الأرب فتأتى عند صاحبه فيمنعها من الطلب ويعتبرها جارا تحصى به .

ولقد حدثني من أتى به أن رجلا جاء إلى أئى جعفر المصور فقال له : لقد مررت بأرض السند فوجدت كتابة في قلعة من قلاعها . وقرأ له الأبيات فقال له أبو جعفر : هو هو — يعنى الأشر — ثم دعا هشام العلوى فأخبره بأن الأشر بأرض السند . ثم أصلر أبو جعفر أمره بتولية هشام هذا على السند ،



فشخص الرجل إليها فقتل الأشر وقطع رأسه فبعث به إلى أبي جعفر .  
وأما الذين استأثرت بهم السجون ثم قتلوا ، فإليك حديث شيخ من جلة  
شيوخهم .. عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي . وقد روى هذا الحديث  
الطبري وابن الأثير وغيرهما من علماء التاريخ ، وفيه أن ثقة كان يحدث عن عبد  
الله بن الحسن فيقول : بعثنا أمير المدينة فكلّم عبد الله بن الحسن في أمر ابنه :  
محمد وإبراهيم وقد كانا هارين من أبي جعفر المنصور ، وأبو جعفر يصبر على أن  
يستقدمهما أبوهما أو يخبره بمكانهما .

فلما دخل رسول أمير المدينة ، إذا عبد الله بن الحسن على حقيقة  
في بيت فيه تب ، فلما سئل عن ابنه قال لحدثه : « يا ابن أخي والله إن بلتي  
لأعظم من بلية إبراهيم عليه السلام . ذلك أن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يذبح  
ابنه إسماعيل وهو لله طاعة ، فقال إبراهيم : ﴿ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ  
الْمُبِينُ ﴾ (١) . وإنكم جئتموني اليوم تكلموني في أن آتي باني .. أدفعهما  
لهذا الرجل أبي جعفر فيقتلهما ، وذلك معصية لله عز وجل ، ولقد كنت على  
فراشي لا يأتيني النوم ، وإنى على ما ترى لأطيب نوما .

وما زال عبد الله بن الحسن مصرا على الاحتفاظ بسر ولديه ، فأمروا به إلى  
السجن ثلاث سنين ثم ذبح كما تذبح الشاة .

وإذ قد بلغنا بك هذه الغاية من القول في تفصيل الإجمال الذي قرره نقيب  
الطالين ، فإن من الحق أن نذكر الناسين بأن الإمام كرم الله وجهه يرجع  
حب الناس له إلى أمرين كلاهما يفضي بصاحبه إلى العلوفه ، إلا أن تتدرك عناية  
الله أهل الإسلام فتأخذ بأيديهم إلى القصد والاعتدال وتقديم أمر الله على أمر  
العاطفة التي تضرب بأهلها في آفاق لا خير فيها لدنيا ولا لدين .

على أن هذه الألوان القبيحة من سوء السلوك مع عليّ وبنيه قد حملت على حبه كثيرا من غير المسلمين . ولئن كان حب غير المسلمين لعليّ منقبة جليلة له وصورة إنسانية شريفة لمحبيه ، لقد دعا هذا السلوك المعيب الشعوية إلى التطاول على بنى العباس تطاولا يأنف منه أهل المروعات حينما كانوا ، في حين أن الذين يحملون أوزار ما ترمى به الشعوية بنى العباس إنما هم بنو العباس أنفسهم ، وفي ذروتهم أمراء المؤمنين في أعنف رحلة مربها تاريخ المسلمين . وإليك بعض ما قاله ابن الرومي في صدد نبش قبر الحسين على صورة يحقرها ذو المروعة ويفضبه لما صاحب الدين . وقد روى هذا الشعر الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب مقاتل الطالبين .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى : مستقيم وأعوج  
أكل أوان للنبي محمد قنيل زكى بالدماء مخرج  
تبيعون فيه الدين شر أئمة فله ديسن الله قد كان يرح  
أكلكمو أمي اطمأن مهاده بأن رسول الله في القبر مزعج  
نظار فإن الله طالب وتره ليالى لا ينفك منكم متوج  
وإني على الإسلام بعد لخائف بوائق شتى بابها الآن مرتج  
هنا ، ولئن كان ابن أبي الحديد — في سؤاله نقيب الطالبين عن سر حب  
الناس لعليّ قد ظفر منه بشيء ، إني لأعتقد أن عنوان هذا الفصل قد جمع لأمر  
المؤمنين كرم الله وجهه أسباب ذلك الحب في أمرين ، يرجع أحدهما إلى المنطق  
الذى لا يمازح فيه أحرار العقول ، ويرجع الآخر إلى العاطفة التي لا يحدد  
قدرها من ظفر من شرف الإنسانية بنصيب .

## على .. لسان مبین لدعوة الإسلام

إن الدعوة التى بعث الله بها محمداً عبد الله ورسوله إلى العالمين ، تقوم — أول ما تقوم — على الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . ثم يحىء بعد الدعوة إلى هذه العقيدة الدعوة إلى بقية الدعائم التى يقوم عليها الإسلام على ما ذكر ذلك رسول الله ﷺ فقال: « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » .

ففى هذا الحديث النبوى الشريف جعل رسول الله مثل الإسلام كمثل البيت من الشعر تجعله العرب على خمسة أعمدة ، أحدها أوسط والبقية أركان . فمادام العمود الأوسط قائماً فالبيت موجود مهما سقط من الأركان . فإذا سقط العمود الأوسط سقط البيت وزال مسماه . وقد تلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يذكر الجهاد فى هذا الحديث ، وذلك حق ، فإن الجهاد ليس ركناً من أركان الإسلام ولكنه حارس لبيائه ، فهو — بهذا الاعتبار — تستند إليه الأصول الخمسة استناداً أقوى وأوضح من استناد البناء إلى أصل من أصوله .

ولقد كان على كرم الله وجهه لساناً للدعوة الإسلامية مينا ، على ما تشهد لذلك خطبه ونصائحه ومواعظه التى جمعها له مشكورا مقدورا الشاعر الأديب الشريف الرضى رحمه الله وأحسن جرائه عن الإسلام والمسلمين . وأنت حين تطالع هذا المأثور عنه ، تتجلى لك على غاية الوضوح فلسفته فى وصفه خالق الخلق ومكون الأكوان ، وكذلك تتجلى لك قدرته الفائقة على تبيان المعانى الدقيقة التى هى عند التحقيق سر التشريع .

ونبدأ من ذلك بما بدأ به رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذى جعل الإيمان بالله وجودا وتوحيدا وتنزيها عن مشابهة الحوادث ، أصلا في بناء الإسلام . فذلك حيث قال كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ :

« كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركة والآلة ، بصير إذ لا ممتور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأ ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا هامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، ولأم بين مختلفاتها ، وعرز غرائرها ، وألزمها أشباحها ، علما بها قبل ابتدائها ، محيطا بمحدودها وانتهائها ، عارفا بقرائنها وأحنائها » .

يقول كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : إن الله تعالى موحد غير محدث ، فينفى بهذه الكلمة عن البارئ تعالى الحدوث الزمانى وينفى عنه الحدوث الدائى . ثم يقرر أن الله تعالى مع كل شيء من غير مقارنة ، وذلك يستلزم أن يكون علما بكل خلقه سواء في ذلك الجزئيات والكلديات ، لأن من يكون مع الشيء لا بد أن يعلم عنه كل شيء من خصائصه وحقائقه ، فإذا قاربه في الوجود كان حادثا مثله ولذلك نفى المقارنة عنه ، فأثبت له بذلك صفة مخالفة للحوادث . وإلى هذا تشير الآية الكريمة من سورة المجادلة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (١) .

وأما قول الإمام إن الله غير كل شيء لا بمزايلة ، فإنه قول حق . ذلك أنك لو نظرت إلى الواقع المشاهد لك لكى ترى أمرين مختلفين لوجدت كلا منهما يخالف صاحبه : إما بوجوده فى مكان غير مكانه ، وإما بوجوده فى غير زمانه . فإذا كان الله تعالى واحداً لا نظير له فإنه يكون غير كل شيء غيرية ناشئة عن اختلاف المكان أو عن اختلاف الزمان .

وإذا قد كان تعالى غير كل شيء ، فإن مغايرته للأشياء لا تعنى أنه مباين لها ، لأن المباينة تكون عن الزمان أو عن المكان .. والله تعالى منزّه عن الزمان وعن المكان . ولهذا قال الإمام : « إن الله تعالى غير كل شيء ، لا بمزايلة » .

وأما قوله إن الله فاعل لا بمعنى الحركة والآلة ، فواضح لأن فعله اختراع أو إبداع فهو يفعل لا بحركة ولا بآلة كما يفعل الواحد منا ، ثم هو لا يوجد شيئاً من شيء سبق مثاله .

وأما قوله : إن الله بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، فذلك حقيقة يذهب إليها العقلاء فيرون أنه سبحانه فى الأزل سميع بصير ، مع أنه ليس هناك ما تدركه الأسماع والأبصار ، ولذلك جاء الوصف الصحيح للحق تبارك وتعالى بكلمتى سميع بصير على ما يقوله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَنْزِلُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

ومعنى هاتين الكلمتين فى هذه الآية ، أنه تعالى بحال يصح منه إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت ، وذلك يرجع إلى أنه حى لا آفة به . وليس يخفى عليك الفرق بين الكلمتين سميع وسماع ، وبين الكلمتين بصير ومبصر . ذلك أنك تقول فى صفة الله تبارك وتعالى إنه سبحانه فى الأزل

سميع بصير ، ولا تقول إنه في الأزل سامع مبصر . لأن السامع المبصر وصف لمن يبصر شيئاً أو يسمع شيئاً حال وصفه بتلك الصفة . فلو وصفت الخالق بأنه في الأزل سامع مبصر ، لوجب أن يكون في الأزل مخلوق مسموع مبصر فعلاً ، فيكون معه قديم مثله والله ليس كمثله شيء . وهذا بخلاف سميع بصير ، فإن هذا البناء في اللغة العربية متضمن أن الله تعالى في الأزل بحال يسمع ويبصر إذا وجد ما يسمع ويبصر .

وأما قوله : إن الله متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقله ، فحملة القول في معناه أن العادة جرت بإطلاق كلمة متوحد على من كان له من يستأنس بقربه ويستوحش لبعده فيفرد عنه . والله تعالى متوحد في الأزل ولا موجود سواه ، والله تعالى أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً ، بغير فكرة ردها ولا تجربة أعانته على خلقه .

وأما قوله : إن الله أحال الأشياء لأوقاتها ، فإنه يعنى أنه جعل محل كل شيء وقته كما يحل الدين على المدين . وقد جعل سبحانه المختلفات ملتزمة ، كما قرن النفس الروحانية بالجسد الترابي ، ثم هو سبحانه غرز غرائزها فجعلها غرائز وذلك كقولهم : سبحانه من ضوء الأضواء .

وأما قوله : « ألزمها أشباحها » فإنه يعنى أنه ألزم الغرائز أشباحها وأشخاصها ، لأن كل مخلوق مطبوع على غريزة لازمة فالشجاع لا يكون جباناً والبخيل لا يكون جواداً . وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل .

وأما قوله : « ولا هامة نفس اضطرب فيها » فإن المعنى المراد من هامة النفس أنه تعالى منزّه عن التردد بين الإقدام على أمر والإحجام عنه .

وأنت إذا تأملت هذه المعاني على دقتها وخفائها ، رأيت أن الأمام كرم الله وجهه كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ، وذلك على فطرته وشرف نشأته ليس يبعد .

هنا ، وقد رتب الإمام كرم الله وجهه خطبه وكلماته على مثل ما جاء في الحديث النبوي الشريف ، فبدأ بالحديث عن الخالق مثباً عليه سبحانه بما هو أهله ، ثم تلى بذكر النبي ﷺ مع سائر الأنبياء ، وكأنه كرم الله وجهه كان يتمثل في كلمته هذه حديث رسول الله ﷺ : ( الأنبياء إخوة ) وإليك كلماته عن محمد رسول الله ﷺ ، فذلك حيث بدأ كرم الله وجهه بوصف الأنبياء كافة ثم اختص منهم محمداً في آخر كلمته فهم صلوات الله عليهم أجمعين فذلك حيث قال :

« إن الله قد استودع الأنبياء في أفضل مستودع ، وأقرهم في خير مستقر ، تناسخهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام . كل ماضى منهم سلف ، قام منهم بدين الله خلف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعز الأرومات مغرساً . من الشجرة التي صدع منها أنبياءه ، وانتخب منها أمناه . عثرته خير العثر ، وأسرت به خير الأسر ، وشحرت به خير الشجر ، نبئت في حرم ، ونبقت في كرم ، لها فروج طوال ، وثمر لا يال . فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى . سراح لمع ضوؤه ، وشهاب سطع نوره ، وزند برق لمعه . سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحكمه العدل . أرسله على حين فطرة من الرسل ، وهفوة عن العمل ، وغبوة من الأمم » .

يقول كرم الله وجهه : إن الله قد أودع أنبياءه في أكرم الآباء وأطهر الأمهات ، يتلو بعضهم بعضاً في إيلاغ رسالة الله إلى العالمين ، ولكل سلف منهم خلف ، فإذا أدى السالف رسالته قام الخالف من بعده يؤدي رسالته . ودين الجميع واحد ، وشرائعهم قد تختلف باختلاف حاجات الناس في الزمان والمكان . وما زال الأمر على هذه الصورة ماضياً حتى إذا أراد الله كرامة الإنسانية جمعاء ، ابتهت إليها محمداً وقد أخرجته من أفضل المعادن وأعز

الأصول . ثم مضى كرم الله وجهه في لغته المبية يذكر عن رسول الله ﷺ أن  
عرة محمد خير العتر ، وأن شجرته خير الشجر ، لأنها نبتت في حرم آمن ،  
وظهرت في كرم شامل ، وذلك لا ريب فيه . فقد جاء عن رسول الله ﷺ  
الحديث بتشريف قريش حتى شرف رسول الله ﷺ نساءها فقال : « خير نساء  
ركبن الإبل نساء قريش . أحناهن على ولد في صغره ، وأرعاهن لزوج في  
ذات يمه . وعلى هنا قال رسول الله ﷺ أيضا : ( الأئمة من قريش ) . وكذلك  
قوله : ( قدموا قريشا ولا تتقدموها ) . وأما فيما يتصل بنسب رسول الله  
ﷺ : ( إن الله اصطفى من العرب معنا ، واصطفى من معد نبى  
النضر من كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفاني من بنى هاشم .  
وكذلك قوله ﷺ : ( إن الله تعالى أخرجني لم يمسنى سفاح في أرومتي ،  
منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله بن عبد المطلب .

---



## بقية الدعائم في كلمات للإمام

لعله لم يغيب عنك حديث رسول الله ﷺ الذي جعل بناء الإسلام يقوم على أعمدة خمسة ، وأن هذه الأعمدة الخمسة تنتظم أصل الأصول « الإيمان بالله رب العالمين » ، ثم تحيى شعائر الإسلام أصولاً فرعية تساند الأصل في إقامة البناء .

وقد سلك الإمام كرم الله وجهه في أحاديثه وخطبه ومواعظه هذه الطريقة نفسها ، مبتدئاً بخطبة التي تضمنت صفة الله الذاتية وهى الوجود ، ونفت عنه الخلدوت ومشايبته للحوادث ، ثم وصفه سبحانه بأنه السميع البصير . وقد أعقب الإمام حديثه عن الذات الإلهية بحديث عن رسول الله ﷺ وصفه به أصدق وصف وأجمله . ثم لم يكن له بد بعد ذلك من أن يشير إلى سائر شعائر الإسلام وهو ما ذكره لك فى كلمته التالية ، فذلك حيث قال كرم الله وجهه : إن أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه هو الإيمان به وبرسوله ، ثم الجهاد فى سبيله فإنه ذروة الإسلام ، وكذلك كلمة الإخلاص فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها لله ، وإيتاء الزكاة فإنها الفريضة الواجبة ، وصوم رمضان فإنه جنة من العقاب ، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب ، وصلة الرحم فإنها مائة فى المال ومنسأة فى الأجل ، وصدقه السر فإنها تكفر الخطيئة ، وصدقه العلانية فإنها تدفع ميتة السوء ، وصنائع المعروف فإنها تقى مصارع الهوان . أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فإنها أهلى السنن ، وتعلموا القرآن ( ١١ م — على إمام الأئمة )

فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ، وإن العالم بغير علمه كالجاهل الخائر الذي لا يستفيق من جهله . بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوَم .

يذكر الإمام كَرَّمَ الله وجهه في كلمته هذه ثمانية أشياء :  
أولها الإيمان وهو التصديق بالقلب تصديقا يدفع إلى العمل لا ترقى إليه شبهة ولا يدركه وهن .

وغير خفى عن العلماء بخفايا القلوب أن العمل بمقتضى الإيمان خير معوان للمؤمن على اكتمال إيمانه ، وحياطته له من آفات الهوى وشهوات النفس . فالؤمن الذى يعمل بمقتضى إيمانه لا يزال إيمانه يهده صراط الله المستقيم .

والأمر الثانى ، الصلاة التى هى عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربّه ياجئ فيها المسلم مولاه بما يختلج فى نفسه وما يعجز عن تحقيقه ، فيستعين الله تعالى فى صلاته على كشف الضر ، فكذلك قال سلفى صالح : كنت إذا ضاقت فى الدنيا قمت إلى الصلاة أسرى إلى ربي ما لا أعلنه إلى أحد ، فإذا الحاجة مقضية والكرامة مصونة والسر مستور .

والأمر الثالث ، الزكاة التى هى صلة الغنى والفقير توثق بين الجميع علائق المودة وتقيم وقنة الأحقاد ، وتجعل التكافل الاجتماعى بينهم منجاة لهم من عبث العابثين وفساد المفسدين وترعى المتريعين .

والأمر الرابع ، الصيام فإنه تدريب على لأهل الإسلام على كبح جماح النفوس وقهر سلطان الشهوات ، فإذا الصائم سيد نفسه ، يوجهها ولا توجهه ، ويستبد بها ولا تستبد به . فإذا المؤمن على ذلك أبعد ما يكون عن مساخط الله وأذى ما يكون إلى مرضيه .

**والأمر الخامس ،** حج البيت واعتماره ، فإنهما خيرُ معوان على توثيق علائق الود بين المسلمين في مختلف أوطانهم وتباعد زمانهم ، ثم هما مع ذلك سياحة في سبيل الله يتنقى المسلم من ورائها الخير العاجل في الدنيا ، كما يتوقع الخير الآجل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

**والأمر السادس ،** صلة الرحم فإنها مثارة للمال ، منسأة للأجل ، وهذه الكلمة في خطبة الإمام كرم الله وجهه تنظر إلى الحديث الصحيح الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : ( مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبَارَكَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي عَمْرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَجْمَهُ ) .

**والأمر السابع ،** صدقة السر فإنها تكفر الخطايا ، وتأخذ يده المسلم إلى ظل العرش يوم تدنو الشمس من الرعوس فلا يكون ظل إلا ظل الله . كما جاء في الحديث الصحيح أن من المسلمين من يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم ﷺ الرجل يتصدق في خفاء حتى لا تعلم شماله ما تعطى يمينه . وقد كان أسلافنا الصالحون يتكرون أساليب لم يسبقهم إليها سابق في إخفاء صدقاتهم ، حتى إن أحدهم ليقوم بين يدي الفقير يستجديه أن يقبل صدقته ، فيمد يده بالصدقة إليه وكأنه يأخذ منه ولا يعطيه .

**والأمر الثامن ،** الجهاد الذى كتبه الله على عباده ليدافعوا عن شعائر دينهم ومقدسات حياتهم . فمثل الجهاد الذى شرعه الله للمسلمين مثل الحارس الذى يحمى البيت أو المنزل أو الدار من ولى متربص أو عدو مغير ، والله ولى المؤمنين .

## علی فی الرعية حاکم معلم

غير ذی حاجة إلى مزيد بیان أن ولی الأمر فی النظام الإسلامی يستمد سلطانه علی رعاياه من قوة الدين وقوة الدولة ، فهو فی مقامین لا مُتَدَح له عن القيام فیهما معا : أن یرشد ویعظ ویوجه إلى الحق ، ثم یؤدب الخارجین علی حدود الله بما انتظمته الشریعة المحمدية من مثوبة المحسن وعقوبة المسیء .

وقد مضى علی هذا النهج الخلفاء الراشدون من الخليفة أئى بکر إلى آخر الخلفاء الحسن بن علی بن أبى طالب رضی الله عنهم وأرضاهم أجمعین ، وقد كانوا جميعا یتبنون بهدى رسول الله ﷺ هداة مرشدين وحکاما عادلین مدة ثلاثین عاما قررھا الحديث النبوی الشریف : ( الخلافة ثلاثون ثم ملک بعد ذلك ) .

ومع أنك مستطیع أن تجد لكل خليفة منهم کلمات شریفة يأمر فیها بالمعروف وينهى عن المنکر ویعلم الجاهل وینبه الغافل ، إلا أنك ترى صاحب الحظ الأوفى فی هذا الباب أمیر المؤمنین علی بن أبى طالب کرم الله وجهه ، وأوضح مثل نصره لذلك کلمته کرم الله وجهه فی النهج عن غیبه الناس ، فذلك قوله :

« إنما ینبغى لأهل العصمة والمصنوع إلیهم فی السلامة أن یرحموا أهل الذنوب والمعصية ، ویكون الشکر هو العالب علیهم والحاجز لهم عنهم . فكیف بالغایب الذی غاب<sup>(١)</sup> أخاه و غیره بلواه ؟ .. أما ذکر موضع ستر الله علیه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذی غابه به . و کیف یذمه بذنب قد

---

(١) غابه علی مثال غابه ورننا ومعنى : تقول العرب غاب فلان فلان تعنى أنه ذکره بما یسوءه . فإن ذکره بما فیه فقد غابه واعتابه وإن ذکره بما لم یس فیه فقد سته وقنده بالباطل .

ركب مثله ؟ فإن لم يكن قد ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه . وإيم الله ثن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير ، لجبرأته على عيب الناس أكثر . يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعله مغفور له ، ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلك معذب عليه ، فليكف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشكر شاغلا له على معافاته مما ابتلى به غيره . »

ففى هذه الكلمات يذكر أهل العلم لُمعاً نافعة يقتضيها المقام ، ويستدعيها الحرص على حر الكلام ، فقد ورد في الكتاب العزيز ذم الغيبة ، وجاء عن رسول الله ﷺ النهى عنها في الحديث الشريف ( لا تحاسدوا ولا تباعضوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً وكونوا — عاذ الله — إخواناً ) .

وقد روى جابر وأبو سعيد أنه ﷺ قال :

( إياكم والغيبة فإن صاحب الذنب يتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه ) . وكذلك روى أنس عنه ﷺ : ( مررت ليلة أُسرى بى فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم فقال : هؤلاء الذين يفتابون الناس ) وكذلك جاء حديث سلمان : ( قلت يا رسول الله علمنى خيراً يفغنى الله به . قال : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلق أخاك بوجه طلق ) .

ومن كلمات الحسن البصرى رحمه الله : « أن الغيبة أسرع في دبر المؤمن من الأكلة في الجسد . ولقد أدركنا سلف هذه الأمة وهم لا يرون العبادة في صوم ولا صلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس . »

ومن كلمات أئى هريرة رضى الله عنه : « إن من الناس من يصير القذى عين أخيه ولا يصير الجذع في عين نفسه . »

ومن الكلمات التي ترضى الحق وتهدى سواء السبيل كلمة ينسبها الثقات إلى أعرابي يستمد معارفه من شرف الفطرة فيقول : « من غاب وضيعا فقد رفعه ، ومن غاب شريفا فقد وضع نفسه » .

وقالت رابعة العدوية : إذا نصبح الإنسان لله أطلعه على مساوئ عمله ، فتشاغل بذلك عن ذكر مساوئ خلقه .

ومن الطرائف في هذا الباب ما نؤثر أن نذكره لك بغير تعليق ثقة بقدرتك على التفتن له ، وحرصا على مصلحتك في الانتفاع به انتفاع معرفة وثقافة ، أو انتفاع موعظة وسلوك .

دخل فيلسوف عرى على الخليفة المتوكل — وعنده جلساؤه — فقال له الخليفة : يا فيلسوف العرب لقد كان هؤلاء كلهم يفتابونك ، سوى فإني لم أذمك . فأجابه الفيلسوف على البديهة :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباننا على ثامها  
فجمع الله له بهذا البيت مكافأة الخليفة بأكرم مدح ، ومعاقبة جلسائه بأفحش هجاء . ثم أظفروه بجائزة سنية كفلت له ولأولاده من بعده عيشة راضية وحياة مطمئنة .

كان محمد بن سهرين قد جعل على نفسه أن يتصدق بدينار كلما اغتاب واحدا من الناس ، وكان إذا مدح إنسانا قال هو كما يشاء الله ، وإذا ذمه قال هو كما يعلم الله . فلم يكن يزيد في وصف الناس عن هذه الكلمات بكل الأمر فيها إلى الله ، فيقول الحق النبي يئسني من رضوان الله ويحميه من ألسنة الناس .  
ومن أكرم الوصايا ما وصى به أحد السلف ابنه فقال له : يا بني عليك بالدين واحذر الدنيا ، فإن الدين يبنى والدنيا تهلم : ألا ترى علي بن أبي

طالب وما يقوله فيه خطباء بنى أمية يذمونهم ويعيبونه ويغتابونه ؟ إنهم يا بني — كأنما يأخذون باصيته إلى السماء . ثم ألا ترى هؤلاء أنفسهم يندبون موتاهم ويرثيهم شعراؤهم ، فوالله الذي لا إله إلا هو لكأنهم يندبون جيف الحمر .

سئل رجل من العرب : من السيد فيكم ؟ قال : هو الذي إذا أقبل هبتاه ، وإذا أدبر اغتبتاه .

بلغ الحسن أن رجلا اغتابه فأهدى إليه طبقا من رطب ، فجاء الرجل يشكر على الهدية ويسأل عن الداعي إليها . فقال له : أهديت إلى حسناتك ولم أجد عندي كفاء فضلك ، فأهديت إليك ما أملك هذا الطبق من الرطب . فبكى الرجل واعتذر إلى صاحبه ، وأعطى الله عهداً ألا يفتاب أحدا بعد ذلك .

ومما تم به العظة التي ذكرها الإمام كلمة له جلية ، يقول فيها كرم الله وجهه :

« أيها الناس ، من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق ، فلا يسمعن فيه أقواليل الرجال . أما إنه قد يرمى الرامي ، وتخطئ السهام ، ويحيل الكلام . وباطل ذلك يور ، والله سميع وشهيد . أما إنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع ، فصحروا الحق واحرصوا عليه ، وتحروا الباطل وتجنبوا كل سبيل إليه » .

وليس يغيب عنك أعزك الله أن هذا الكلام نبي عن التسرع إلى التصديق بما يقال من عيب وقدح في أعراض الناس . وقد ضرب كرم الله وجهه مثلا خليقا بالتأمل وحمل النفس عن العمل بمقتضاه ، فذلك حيث قال :

« إن الرامي عن القسي بالسهم ، قد يرمى فلا يصيب الغرض ، وكذلك الطاعن في أعراض الناس قد يطعن فلا يصيب ما يريد .

وما زال الفصحاء يستعينون بالأمثال يضربونها للناس ، فإذا سمعوا القول كانوا كأنهم يرون المعنى المراد به على غاية الوضوح وتمام الجلاء .  
ومن أحسن الأمثال التي ضربها الإمام كرم الله وجهه لبيان الفرق بين الحق والباطل ، قوله : « ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع » فلما سئل عن معنى ذلك جمع أصابعه الأربع ثم وضعها بين عينيه وأذنيه ثم قال والقوم يشاهدون ويسمعون : « الباطل أن تقول سمعت ، والحق أن تقول رأيت » وتلك المقالة من الصدق بمكان مكي .



## على ومنصب القضاء

لا يرتاب أهل العلم في أن أحق الناس بمصب القضاء وأقربهم إلى الإصابة فيه ، من توافر له الفقه بالقرآن في لغته وأسلوبه وأحكامه . فإذا توافر له ذلك ، إلى جانب قربه من رسول الله ﷺ ، فإن ذلك معاون له على إصابة الحق في شئون القضاء .

وقد توافر للإمام على — كرم الله وجهه — كل ذلك الفضل الذي لم يتوافر لغيره من الصحابة رضي الله عنهم ، حتى كان أمير المؤمنين عمر يقول : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » ولم يكن أمير المؤمنين عمر ليقول هذه الكلمات الشريفة إلا ونصب عينيه قول رسول الله ﷺ : ( أقضاكم على ) . حتى لقد أصدر أمير المؤمنين عمر أمره بأن يكون على هو المفتي ، فذلك حيث قال : « لا يفتين أحد في المسجد وعلى حاضر » .

وباستصحاب هذه المعاني الشريفة يتراءى وجه العدل ضاحك القسمات طلقا في تولية رسول الله ﷺ — عليا منصب القضاء ، في حديث شريف خلاصته ما أخرجه النسائي عن أبي زكريا يحيى بن آدم بن سليمان الأموي قال : حدثنا شريك عن سماك بن حرب عن حنش بن المعتمر عن علي كرم الله وجهه قال : « بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا شاب فقلت : يا رسول الله ، تبعثني وأنا شاب إلى قوم ذوى أسنان أقضى بينهم ، وليس لي علم بالقضاء ؟ فوضع يده — عليه السلام — على صدرى ثم قال : ( إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك ) . ثم أوصاني فقال : ( إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنك إذا فعلت ذلك تبدي لك وجه القضاء ) . وها يقول الإمام كرم الله وجهه : فلا والله ما أشكل على قضاء بعد ذلك .

وأحسب أنك — حفظك الله — تتناول إلى أمثلة من أقضية كرم الله وجهه لترداد إيماننا بأن الله تعالى قد استجاب لرسوله الكريم دعوته لعل ، فهدى قلبه وثبت لسانه .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكن ليخفى عليهم شأن الإلمام كرم الله وجهه مع رسول الله في توليته إياه منصب القضاء ، ودعوته له بأن يهدى الله إلى الحق قلبه ويثبت على طريقه لسانه ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر يقول : « لولا علي ، لهلك عمر » .

وقبل أن نذكر ما يتسع له المقام من أقضية الإمام ، نرى من الحق أن نشير إلى أمر لا بد من الالتفات إليه في هذا المقام وهو الفرق بين إبداء الرأي وبين إمضائه ، إذ كان إبداء الرأي داخلا في النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، وأما إمضاء الرأي إلى غايته فإنه داخل في باب الإلزام الذي هو حق لولى الأمر ومن ينوب عنه .

وبملاحظة هذه التفرقة يكون ما أثر عن الإمام كرم الله وجهه من آراء وأحكام دائرا بين أمرين :

أحدهما : الصيحة التي لا سبيل لسلطان الدولة عليها قبولاً أو رفضاً .  
وثانيهما : القضاء الذي تلتزم الدولة بالقيام عليه وإمضائه إلى غايته إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل .

ولكى يتضح لك هذا الفرق اتضاحاً يكون به على طرف الثام ، ينسب لك أن تمثل أحكام الإمام وآراءه وهو واحد من المسلمين في دولة الإسلام ، ثم أن تمثله كرم الله وجهه وهو رأس الدولة وأمير المؤمنين . فإذا كانت معه قوة الدولة فهو حينئذ القاضى العادل ، وإذا لم تكن معه قوة الدولة فهو حينئذ التامع الأمين .

وإذ قد استبان لك هذا الفرق ، فإن أحق ما نبداً به أحكامه وآراءه وأفضيته ما كان قد أشار به على أمير المؤمنين عمر بأن لا يخرج على رأس الجيش في فتح فارس ، ذلك أنه رضى الله عنه كان قد أشار على أمير المؤمنين عمر بأن لا يخرج على رأس الجيش في فتح فارس ، وقد أخذ عمر رضى الله عنه برأى الإمام إيثراً له على ما خالفه من الآراء .

وأول ما يقتضى حقه من البيان في هذا العنوان ، أن ثم فرقا بين القتال عن الإمام ، والقتال مع الإمام .

وليس يخفى على أولى النهى أن من التضييع تعريض رأس الدولة للأعداء يجعلون مهمهم كله في الإحاطة به ليقتلوه أو يأسروه ، فتباً لهم بذلك فرصة ينقضون فيها على الأمة يصنعون بها ما ينكسر راياتها بين العالمين ، فإذا الأمة — على ذلك — تحيا حياة السواثم بغير غاية تسعد بها دنياها أو يرضى عنها دينها ومذهبها ، وذلك هو الخسران المين .

والذين يستعرضون تاريخ الحروب في القديم والحديث لا يعوزهم أن يجعلوا لهذا رأى شواهد ينصرها المنطق ويذكرها التاريخ ، وخاصة هذا العصر الذى نعيش فيه في القرن العشرين .

فقد أنفق الغرب زهرة شبابه يتغنى بذلك القضاء على زعيم ألمانيا الحديثة في الحرب العالمية الثانية التى انتصر فيها الحلفاء سنة ١٩٤٥ ميلادية ، ولم يكن لعقلاء الغرب وحكمائهم غاية من وراء ذلك التصرف إلا أن يضعوا أيديهم على ذلكم الزعيم حيا كان أو ميتا .. وذلك أمر لا يخفى إجماله وتفصيله على البصراء بأحداث ووقائع تلكم الحرب التى لم يتمكن المؤرخون من الوقوع على آثارها السيئة ونتائجها المخيفة ، حتى يوم الناس هذا .

وجملة ما نحب أن نقوله : أن رأس الدولة هو الهدف الأكبر الذى يتغيا عدو الأمة القضاء عليه على أى وجه وبأى أسلوب ، لأنه يعلم — على وجه

اليقين — أن في القضاء عليه قضاء على قوة العدو وتيسيرا لسبيل النصر المبين .  
وحق ذلك على أهل الحزم أن يضعوا رأس الدولة بمأمن من مثل هذا التفكير  
الذى قامت الشواهد على أنه تدبير مكر يرمى إلى أبعد الغايات بأيسر سبيل .  
وأحسب أنك حفظك الله قائل : إن رسول الله ﷺ قدوة لأمة ، وقد  
كان يخرج على رأس الجيوش : خرج في بدر ، وخرج في أحد ، وخرج في  
الأحزاب ، وخرج في فتح مكة ، وقد كان مستطعيا أن ينهب عنه من يرى أنه  
كفء ولكنه لم يفعل . فدل ذلك على أن الإمام يدافع عن الأمة ، وأن الأمة  
لا تدافع عن الإمام لأنه لا يسوغ له بمقتضى — الحزم — أن يغشى ميادين  
القتال .

فإن كنت مصرا على أن تتوجه بهذا السؤال ، فاعلم — رحلك الله — أن ثم  
فرقا بين رسول الله ﷺ وبين غيره من سائر المسلمين . ذلك أن الله تعالى تولى  
حفظه وأنزل عليه في كتابه هذا الوعد الموثوق : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ  
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ  
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآية — على ما ترى ، ضمنت لرسول الله ﷺ العصمة من أعدائه  
عصمة تستبقى حياته الشريفة للإنسانية جمعاء ، يرفع — ﷺ — بالإسلام  
خصيستها في إحقاق الحق وإبطال الباطل ودعم قواعد العدل ورفع أُلوية  
السلام . وقد يعينك على إدراك هذه المعاني من الآية الشريفة أن تراجع ما كتبه  
الموثوقون من أهل السير حول هذه الآية ، إذ أن بعض أصحابه كان يقوم على  
حراسته في خيمته في بعض غزواته ، فلما نزلت الآية صرف ﷺ حراسه ،  
ثقة بعصمة الله إياه .

ويتدبر هذا المعنى ، لا يستعصى عليك أن تسيع ما تقضى به الفطرة وتنصره أحداث التاريخ من أن الإمام أو رأس الدولة أو أمير المؤمنين ، إنما يقاتل عنه دون أن يخرج هو إلى ميادين القتال ، إذ كان هم الأعداء منحصرًا في التخلص منه والاستيلاء عليه حيا أو ميتا ابتغاء توهين قوة العدو ، وتحصيل الانتصار عليه بأى ثمن ومن أى طريق .

ومما يزيلك اطمئنانا إلى هذا الذى قررناه ونقرره ، أن أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه قد قضى هذا القضاء وأعلن إلى أصحاب رسول الله ﷺ هذا رأى ، فأخذ به عمر ونزل على حكمه ، وهو الذى كان يقول : « لولا على هلك عمر » . ويطيب لنا أن نروى هذا القضاء مع ما يتصل به ويدور فى فلكه من أنباء موثوقة ووقائع مأثورة .

\*\*\*

روى صاحب النهج أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه استشار الإمام فى الشخص لقتال الفرس بنفسه ، فقال كرم الله وجهه ينصح أمير المؤمنين عمر بعدم الخروج بأن لا يشخص لقتال الفرس بنفسه ، فذلك حيث قال كرم الله وجهه :

« إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقله ، وهو دين الله الذى أظهره وجنده الذى أعدّه وأمدّه حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جده . ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بخلافه أبداً — والعرب اليوم — وإن كانوا قليلا — فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع . فكن قطبا واستدر الرجا بالعرب ، واصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما

بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحم . فيكون ذلك أشد لكلهم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما كره . وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة .  
كذلك قضى الإمام في هذه القضية قضاء لا تصرفك روعة نظمه عن صحة حكمه .

ومما يعين على قضاء الحق لهذا الموضع الجليل في قضية الإمام أن نلفتك — أعزك الله — إلى ما ذكره في هذه الواقعة الإمام الجليل محمد بن جرير الطبري حيث قال رحمه الله :

لما بنا لعمر المقام بعد أن كان عزم على الشخص نفسه ، أمر سعد بن أبي وقاص على المسلمين ، وبعث يزيد جرد رستم الأرمني أميرا على الفرس ، فأرسل سعد النعمان بن مقرن رسولا إلى يزيد جرد فدخل عليه وكلمه بكلام غليظ . فقال يزيد جرد : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك . ثم حمله وقرا من تراب على رأسه وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن قائلا له : ارجع إلى صاحبك فقد كتبت إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب في خندق القادسية ، ثم لأشغلن العرب بعدها بأنفسهم ولأصيبهم بأشد مما أصيبوا به في الدهر الطويل . فرجع النعمان رضى الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص فأخبره ، فقال له سعد : لا تخف فإن الله قد ملكنا أرضهم . وكان سعد رضى الله عنه من الذين يتفاءلون فتفاءل في هذه اللحظة بالتراب الذى وضعه يزيد جرد على رأس النعمان . وقد تثبط رسم عن القتال وكرهه فاستعجله يزيد جرد مرارا واستحثه على الحرب ، ولكنه كان يرى المطالوة ، وكان عسكره مئة وعشرين ألفا وعسكر سعد بضع وثلاثون ألفا . فأقام رسم يريها من الرجال

الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن ، فكلما تكلم رسم كلمة أداها جندهم بعضهم إلى بعض حتى تصل إلى سمع يزدجرد في وقتها . وقد شهد وقعة القادسية مع المسلمين طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب والشماع بن ضرار وعبد بن الطيب وأوس بن معن الشاعر ، فقاموا في الناس ينشدونهم الشعر ويحرضونهم . وقرن أهل فارس أنفسهم بالسلاسل لئلا يهربوا فكان المقترون نحو ثلاثين ألفا ، ثم التحم الفريقان في اليوم الأول فحملت الفيلة التي مع رسم على الخيل فطحتها وثبت لها الرجال ، فضرب الرجال خراطيم الفيلة بالسيوف فقطعوها وارتفع عواؤها . وفي اليوم الثاني وصل أبو عبيدة بن الجراح من الشام في عساكر من المسلمين فكانوا مددا لسعد . ولعل في ذلك اليوم أسرت بنت كسرى الثلاث وجرى إلى أمير المؤمنين عمر ، فحماه من الإمام كرم الله وجهه من السباء ثم زوجها من أكفاء من أشراف العرب .

\* \* \*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما رواه الإمام الجليل شمس الدين بن القيم في الخلف بالطلاق متسائلا : هل الخلف بالطلاق يمين أولا ؟ وقد أجاب على تساؤله فقال في « إعلام الموقعين » :

إن الخلف بالطلاق لا يلزم ولا يقع على الحادث به طلاق ولا يلزمه كفارة ولا غيرها ، وهذا مذهب خلق من السلف والخلف ، صح ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وقد قال بعض فقهاء المالكية وأهل الظاهر : ولا يعرف لعل في ذلك مخالف من الصحابة ، على ما قرر ذلك أبو القاسم التيمي في « شرح أحكام عيد الحق » . وقد قاله قبله أبو محمد بن حزم ، وصح عن طاووس أجل أصحاب ابن عباس وأفقههم على الإطلاق . قال عبد الرزاق — في مصنفه — أنبأنا ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أنه

كان يقول : « الحلف بالطلاق ليس شيئا » . قلت له : أكان يراه يمينا ؟ قال : لا أدري . وهذا أصح إسناد عمن هو من أجل التابعين وأفقههم ، وقد وافقه أكثر من أربعمئة عالم من الذين بنوا فقههم على نصوص الكتاب والسنة دون القياس ، ومن آخرهم أبو محمد بن حزم حيث قال في كتابه المحلى : اليمين بالطلاق لا يلزم سواء برأؤ حث ، لا يقع به طلاق ، ولا طلاق إلا كما أمر الله تعالى ، ولا يمين إلا كما شرع الله تعالى على لسان رسوله ﷺ . ثم قرر ذلك وساق اختلاف الناس في هذا ثم قال : فهؤلاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وشرح ، وطاووس ، لا يقضون بالطلاق على من حلف به فحث ، ولا يعرف في ذلك لعلى كرم الله وجهه مخالف من الصحابة رضى الله عنهم .

\*\*\*

قال شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه « إعلام الموقعين عن رب العالمين » . والأثر المروى عن على رضى الله عنه هو : أن رجلا تزوج امرأة وأراد سحرا فأخذته أهل امرأته ، فجعلها الرجل طالقاً إن لم يبعث بنفقتها إلى شهر ، فجاء الأجل ولم يبعث إليها شيء . فلما قدم الرجل من سفره خاصموه إلى على ، فقال كرم الله وجهه : إنكم اضطهدتموه حتى جعلها طالقاً .. ثم رد عليه زوجته . ولا متعلق لهم بقوله اضطهدتموه لأنه لم يكن هناك إكراه ، فإنهم إنما طالبوه بحق نفقتها فقط . ومعلوم أن ذلك ليس بإكراه على الطلاق ولا على اليمين . وليس في القصة أنهم أكرهوه بالقتل أو بالضرب أو بالحبس أو أخذ المال على اليمين حتى يكون يمين كره . والسائلون لم يقولوا لعلى شيئا من ذلك أثبتة وإنما خاصموه في حكم اليمين فقط ، فنزل الإمام كرم الله وجهه الأمر في ذلك بمنزلة المصطهد ، حيث لم يرد طلاق امرأته وإنما أراد التخلص إلى سفره بالخلف . والحالف والمُستَظْهَد كل منهما لم يرد طلاق امرأته . فالمُستَظْهَد محمول على الطلاق وقد تكلم به ليتخلص من ضرر الإكراه . والحالف حلف



به ليتوصل إلى غرضه من الحصن أو المنع أو التصديق أو التكذيب . ولو اختلف حال الخالف بين أن يكون مكرها أو مختارا ، لسأله الإمام كرم الله وجهه عن الإكراه وشروطه وحقيقته وبأى شيء أكره ، فهذا ظاهر بمحمد الله ، وعليك أن ترضى للمقلد بما فيه لنفسه .

\*\*\*

هنا وأما أثر شريح رحمه الله ففى مصنف عبد الرزاق عن محمد بن سيرين عن شريح ، أنه خوصم إليه فى رجل طلق امرأته إن أحدث فى الإسلام حدثا ، فاكترى بغلا إلى مكان ثم تعدى به المكان إلى أصفهان فباع البعل واشترى به خمرا . فقال شريح : إن شئتم شهدتم عليه أنه طلقها . فجعلوا يرددون عليه القصة وجعل هو يردد عليهم القول فلم يره حدثا ، وكيف لا يكون حدثا وأى حدث أعظم ممن تعدى المكان الذى اشترط عليه ، ثم باع بغل مسلم ظلما ، ثم اشترى بشئنه خمرا ؟

قال ابن القيم : الظاهر أن شريحا لما ردت عليه المرأة ، ظن من شاهد القصة أنه لم يرد ذلك حدثا ، إذ لو رآه حدثا لأوقع عليها الطلاق . وشريح لما ردها لأنه علم أنه لم يقصد طلاق امرأته وإنما قصد البين فقط ، فلم يلزمه بالطلاق . وشريح أفقه فى دين الله من أن لا يرى مثل هذا حدثا .

\*\*\*

ومن روى عنه عدم وقوع الطلاق على الخالف إذا حنث ، لعكرمة مولى ابن عباس كما ذكره ستيد بن داوود فى تفسيره أول سورة النور ، أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه لا يكلم أخاه فكلمه ، فلم يرد ذلك طلاقا . ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَتَوَلَّى فَضَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ( م ١٢ — على إمام الأئمة )

وَرَحِمَتْهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

وهنا نروى لك — حفظك الله — ما كان يرويه العلامة الأزهري محقق كتاب ابن القيم بعد أن روى هذه الكلمات الطيبات لأئمة الفقهاء في باب الجبن ، فذلك حيث كان يقول رحمه الله منشدا شعرا معروفا للأدباء والمتأدبين :

فقل للعيون الرمد للشمس أعين      سواك تراها في مغيب ومطلع  
وسامح نفوسا بالقشور قد ارتضت      وليس لها بالأسب من متطلع

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — قضية الزية ، وهي الحفرة في الموضع المرتفع لا يبلغه السيل ، يحفرونها ثم يغطونها بالقش ونحوه تسمية على الأسد حتى يسقط فيها .

وخلاصة القول في هذه القضية أن جماعة من أهل اليمن أرادوا أن يصطادوا أسدا فحفروا حفرة في موضع عال ثم غطوها بالقش ، فجاء الأسد يمشي غثالا كعادته فسقط في الحفرة التي يسميها أهل اللغة « الزية » ، فاجتمع الناس على رأسها يستمتعون برؤية الأسد ذليلا لا حول له ولا حيلة وقد كان من قبل يزأر فنادك تنخلع لزيته القلوب . وفيما هم على ذلك يتزاحمون ، هوى أحد الواقفين في الزية فجذب ثانيا ، وجذب الثاني ثالثا ، وجذب الثالث رابعا ، فقتلهم الأسد جميعا ثارا لكرامته أو إشباعا لغريزته .

ولم يكن للقوم بد من أن يرفعوا الأمر إلى قاضي اليمن على كرم الله وجهه ، ف قضى للأول بربع الدية ، وللثاني بثلث الدية ، وللثالث بنصفها ، وللرابع

بالدية كاملة . ثم قال : اجعلوا الدية على من حفر رأس البئر . فلما رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ قال : ( الأمر كما قضى على ) .

وليس في وسع فقيه بروح الشريعة الإسلامية ، أن يجاوز قضاء الإمام في صورته هذه دون أن يقف وقفة لا منتدح عنها لأولى الأبواب . وخلاصة هذه الوقفة أن الإمام ابن القيم عني بمسألة الزية وقضاء الإمام على فيها ، حتى ذكر في كتابه « الإعلام » أنها مسألة مشككة ، وأن قضاء علي فيها بعيد عن القياس . ثم مضى رحمه الله يصوب أن قضاء الإمام جلي على مقتضى القياس ، وكأن الأمر هنا أمر قياس يحتمل التخطئة والتصويب !

ولولا أن الثقة بشيخ الإسلام ابن القيم موفورة لا يرق إليها الشك ، لكان من الحق أن يلومه أهل العلم على تصرفه هذا ملامة لا تعوزها حجة ، ولا تعمى إليها سبيل . ذلك أن قضاء الإمام كرم الله وجهه رضي رسول الله ﷺ . ومعروف عند أهل العلم أن رضوان رسول الله ﷺ عن كلمة يقال أو فعل يحدث إنما هو إقرار للقول أو الفعل ، وبذلك يصبح هذا الإقرار سنة . وليس يسوغ لمسلم أن يواجه سنة رسول الله ﷺ باعتباره إشكالا أثاره الفقهاء ومحاولته الرد عليه بتصويبه القياس فيه .

ولو أن الأمر كان أمر قضاء الإمام وحده لكان ذلك الاعتبار سائغا مقبولا ، لأن الإمام كرم الله وجهه يجوز عليه الخطأ في الحكم وعدم الإمام المستوعب بما يصوب غاية القياس ويصحح نتيجته . ولكن منزلة رسول الله ﷺ فوق منازل المجتهدين من أمته فلا يسوغ أن يظن به الخطأ . ولو افترض ذلك افتراضا جدليا ، لانفسح الطريق إلى قاعدة أصولية مسلمة عند كل ذي عقل ودين ، وهي أن عناية الله تعالى تندخل في هذه الحال لتصوب لرسول الله ﷺ الخطأ الذي لا يس اجتهاده الشريف .

وأياً ما كان الأمر ، فإن قضاء الإمام في المتراحمين على رأس البحر مع إقرار رسول الله لهذا القضاء ، هو إلى النص أدنى منه إلى القياس . ومعلقة إلى شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله ، على أن لكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبة ، ولكل صارم نبوة ، وما أخطأ طريق الحق من أثر أساليب العلماء في البحث والتنقيب مهما يكن حفظه من الخطأ أو من الصواب ، فهو مثوب مأجور في كل حال .

\* \* \*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ، قضاؤه في بنات يزدرج آخر ملوك فارس ، وذلك على ما يرويه العلامة الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار » . فيقول رحمه الله « لما جرى إلى المدينة بسى فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان في هذا السبي ثلاث بنات ليزدجرد ، فأمر عمر رضى الله عنه ببيع البنات الثلاث . فقال الإمام على كرم الله وجهه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق . فسأله أمير المؤمنين عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن يا أبا الحسن ؟ فقال كرم الله وجهه : يُقَوِّمن يا أمير المؤمنين ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن » . وقد أخذ عمر برأى الإمام فأحذهن على رضى الله عنه ، ثم دفع بواحدة لعبد الله بن عمر ، ودفع بالثانية إلى محمد بن أبى بكر ، ودفع بالثالثة إلى الحسين ، على أن يكون البنات الثلاث زوجات لأكفائهن من العرب . وقد ولدت زوجة الحسين عليا زين العابدين الذى ينتسب إليه كل شريف حسينى على وجه الأرض ، فيكون له بذلك في العرب أشرف الأصلا ب إلى جانب أن له في الفرس أكرم الأرحام .

وذلك القضاء بلا ريب قضاء لا يتأتى إلا لمثل الإمام في شرف نفسه وغزارة علمه وفقهه ، لما انطوى عليه الإمام من معرفة لأقدار الناس وإحسان لوزن الأمور .. على ما يقول عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه : « لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإن تساوا هلكوا » .

وأنت إذا تدبرت التاريخ على هذا الضوء في هذا القضاء ، فإنك لن تجد مناصا من القول بأن السر الحقي في تشيع الفرس للإمام يقوم على النظر إلى قضاء الإمام نظر الذي أكرمهم في إكرام بنات آخر ملوكهم . والإنسان مجبول بفطرته على التعصب لقومه في هذا الباب من أبواب الاحترام ، لمن تربطهم بهم صلة ، ويجمعهم معهم تاريخ . ولولا أن الشيعة قد غلوا غلوا شديدا خرجوا به عن العقل وتجهموا للإسلام ، لكان من الحق أن ننظر إليهم نظرة مودة واحترام . ولكن الغلو الذي حملهم على كره العرب كراهية اعتدت على أصول الإسلام ، هو الذي يحمل المسلم على الغض من أقدار العلة في التشيع . ولكن الأمل في رحمة الله لن يدعنا فرائس بأس من اجتماع الشمل ووحدة الصف ، في ظلال وارفة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بمنأى عن الغلو والمالغة والإغراق ، والله يتولى الصالحين .

\* \* \*

ومن أفضيته كرم الله وجهه ما يأنثه الثقات عن الإمام جعفر الصادق رحمه الله ، قال : بينا أمير المؤمنين على في ملأ من أصحابه ، إذ جاءه رجل فقال : إني أوقبت على غلام فجئت إليك أسألك أن تطهرني يا أمير المؤمنين . ولم تكده هذه الكلمات توافق سمعه كرم الله وجهه حتى تغير لونه تغيرا يوحى إلى من يراه أنه نضو<sup>(١)</sup> هم مقعد مقيم . ذلك أن العرب لم تكن تعرف هنا اللون الفاحش من الشلوذ في إرواء الشهوات الحيوانية ، حتى إنهم لم يضعوا له كلمة تعبر عنه في لغتهم العربية الشريفة كما وضعوا للمفاحشة بين الرجل والمرأة كلمة « الزنا » ، وللمفاحشة بين المرأة والمرأة كلمة « السحاق » ، فإذا ما أرادوا التعبير عن المفاحشة بين الذكور ، استخدموا كلمة « اللواط »

(١) النضو : المهزول من هم ونحوه ، تقول العرب ملاك نضو سفر يعنون أنه مجهد مكثود .

يأخذونها عن قوم لوط عليه السلام ، وقد كانوا — لعنهم الله — أول الذين ابتكروا هذه الفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

فلما هدأت العاصفة في صدر الإمام كرم الله وجهه ، توجه بالحديث إلى ذلك الذي جاء إليه راجيا أن يطهره ، فقال له : يا هذا عد إلى منزلك فلعن سوء مزاجك حاج بك فأوقعك في هذا البلاء المبين . ولم يسع الرجل إلا أن يصدع بأمر أمير المؤمنين فرجع إلى منزله كما أمر ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى ما قد اقترفه من قبل فحاء إلى أمير المؤمنين يطلب إليه أن يطهره ، فقال له كرم الله وجهه : يا هذا إن تطهيرك مما قارفته يقتضى أحد أمور ثلاثة .. أن يضرب عنقك بالسيف ضربة بالغة ما بلغت ، أو أن تقذف من شاطئ جبل مشدود اليدين والرجلين ، أو أن تحرق بالنار . فاختر أيهن شئت .

ولم يشأ الرجل أن يختار حتى أقبل على أمير المؤمنين يسأله : أى الثلاثة أبلغ أذى وأشد إيلاما يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه كرم الله وجهه : الحرق بالنار هو الأبلغ الأشد . فقال الرجل : فإني قد أخذت هذا على ما سواه فطهرني به رضى الله عنك . فأجابه أمير المؤمنين : خذ لذلك أهبتك واستعد . ولم تكن أهمة الرجل إلا أن يفزع إلى الصلاة ، فقام فصلى ركعتين ثم جلس في تشهده يدعو الله تعالى ويقول : « اللهم إني قد أتيت من الذنب ما قد علمت ، وقد جئت لابن عم نبيك أسأله أن يطهرني فخيرني بين ثلاث شتائد فاخترت أشدها الإحراق بالنار . اللهم إني أسألك أن تجعل ذلك كفسارة لذنبى وألا تحرقني بنار الآخرة . ثم قام يبكي حتى جلس في الحفرة التي حفروها له وهو يرى النار تتأجج ، ولم يتالك أمير المؤمنين أن يبكي وبكى معه أصحابه ، ثم قال للرجل : يا هذا إنك أبكيت ملائكة الله في سمائه وأرضه وإني أرى بذلك لك توبة ، فقم وإياك أن تعاود شيئا مما فعلت ، والله غفور رحيم . »

هنا ، ولست أجد بدا من أن أقف بك وقفات حول هذا القضاء في هذه الجريمة الشنعاء .

فأما الوقفة الأولى ، فجملة القول فيها أن العلماء اختلفوا فيما يجب على من فعل ذلك — بعد إجماعهم على تحريره — فقال مالك : يرجم محصنا أو غير محصن ، وكذلك يرجم المفعول به إن كان بالغا ، ويجبس ويؤدب إن كان غير محصن . وقال أبو حنيفة : يحزر المحصن وغيره . وقال الشافعي : يحد حد الزاني قياسا عليه .

وأما الوقفة الثانية ، فجملة القول فيها ما رواه العلامة القرطبي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، من أنه حرق رجلا يسمى الفجاعة حين عمل عمل قوم لوط ، وذلك هو رأى على بن أبي طالب . فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك ، جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم في هذه النازلة ، فكان من رأى على كرم الله وجهه أن يحرق الفاعل بالنار ، قائلا : إن هذا الذنب لم يُعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم . وقد نزل مجلس الخليفة أبي بكر على رأى الإمام كرم الله وجهه . وبناء على ذلك كتب الخليفة الأول إلى خالد بن الوليد أن يحرق ذلك المفاحش بالنار فأحرقه . ثم مضى الإحراق بالنار في المجتمع الإسلامي قانونا نافذا أخذ به عبد الله بن الزبير في زمانه ، ثم أحرقهم هشام بن عبد الملك في الشام ، ثم أحرقهم خالد القسري في العراق . فلما أفضت إمارة المؤمنين إلى الإمام كرم الله وجهه أمضى ما كان قد رآه لأبي بكر ومن كان في مجلسه من أصحاب رسول الله ، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وأما الوقفة الثالثة ، فجملة القول فيها ما ذكره شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في شأن قوم لوط الذين ابتدعوا هذه الفاحشة في العالمين : إن جبريل عليه السلام نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها

وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها ، فضعها في جناحه ، فحواها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب ، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ، ثم دمدم<sup>(١)</sup> بعضها على بعض ففعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها حجارة من سجيل .

ولعل الإمام كرم الله وجهه استند في قضائه بقذف المجرم من شاهق جبل ، إلى ما تضمنته الآية الكريمة في سورة هود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ ۝ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ففى هذه الآية يقول تعالى ذكره : ولما جاء أمرنا بالعذاب وقضائنا فيه بالهلاك جعلنا عالي قريتهم سافلها .

وأما الوقفة الرابعة : فجملة القول فيها أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أشفق على المذنب إشفافاً شديداً حتى بكى واستبكى ، ثم أمره بالانصراف ولم يقم عليه الحد . وفي هذا ما يدعو إلى التساؤل عن سر هذا التصرف في تعطيل حد من حدود الله ؟ .

ونبادر إلى القول بأن الإمام رضى الله عنه لا يمكن أن يحكم حكماً أو يقضى قضاء إلا وله في ذلك سند من فقه لا يشوبه هوى ولا نفسه مجاملة ، كما تشهد بذلك سيرته العطرة في جميع تصرفاته مع عامة المسلمين ومع خاصة أهله وذوي قرباه .

ومبلغ ما يستد المرء إليه في تسوية تصرف الإمام كرم الله وجهه في هذه القضية ، هو أن الشريعة المحمدية المسماة جعلت من حق الإمام أن

(١) الدمدمة : الطحن والإهلاك ، وذلك هو ما أشير إليه الإمام كرم الله وجهه في نصائه بقذف ذلك المعاصي اللعين من شاهق الجبل .

(٢) هود ٨٢



يستصحب المصلحة في سياسته رعيته ، وهو على ذلك قوى أمين . وفي ظل هذه القاعدة الشرعية وعلى هديها مضى أمر المؤمنين عمر ، ومضى أمر المؤمنين عثمان . وقد كان القوم يستفتون الإمام فيما يأخذون ويتركون ، فلهذه كرم الله وجهه قد ألقى في روعه أن ذلك المذنب قد تاب توبة نصوحا ، وأن التوبة الصوح يرضى الله بها عن عبده ، والله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَورًا وَغُفِّرَ لَنَا ذُنُوبَنَا كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وكذلك الآية الكريمة من سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢) .

فلهذا أمر المؤمنين كرم الله وجهه باستصحابه هذه المعاني التي هو أبو غلرتهما وسيد فقهائها ، لعله رأى أن الله تعالى قد قبل توبة الرجل بما كان قد اختاره من الحرق بالنار لأنه أشد ألوان العذاب ، وإلقاء الله تعالى الحق في روع (٣) المصطفين من عباده أمر ترضاه الفطرة ، وتقتضيه المصلحة ، ويزكيه الإسلام . وفي الحديث الشريف قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر بن الخطاب . على أن ها هنا احتمالا يسوقا إليه الإيمان بأن

(١) التحريم ٨ (٢) الفرقان ٦٨ — ٧٠

(٣) الروع : — بصم الرء — القلب .

الإمام كرم الله وجهه - أجل قدرا ، وأعلى منزلة ، وأعرق فقها ، وأشد توفيرا لله من أن يتجهم حدا من الحدود التي يأتريها الثقات عن رسول الله ﷺ .  
 وخلاصة هذا الاحتمال يرجع إلى توجيه من رسول الله إلى أن الذي يفر من الحد ينهى لأهل الإيمان أن يتركوه ، كما جاء ذلك في قصة ماعز الأسلمي ، فقد جاء إلى رسول الله ﷺ معترفا بأنه قد فاحش مفاحشة تستحق الرجم بالحجارة حتى يموت . ولكن رسول الله ﷺ أعرض عنه ، فعاء إليه ماعز من شقه الآخر مصرا على اعترافه فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم جاءه ماعز مرة أخرى معترفا أيضا بما كان قد اعترف به أولا ، فيكون قد اعترف أربع مرات ويكون اعترافه على هذه الصورة كشهادة أربعة من الشهود توافرت فيهم العلة التي تقتضى أن يرجم ماعز . ولم يجد رسول الله ﷺ مندوحة من أن يأمر برجمه ، فأخرج الرجل إلى الحرة وبدأ القوم يرمونه بالحجارة . فلما وجد مس الحجارة فرمشتد هاربا ، غير أنه لسوء حظه لقيه رجل معه عظمة جمل شديدة حادة فحضر بها ماعزا فقتله . فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال : ( هلا تركتموه ؟ ) يشير رسول الله ﷺ بكلمته هذه إلى سقوط الحد بالفرار ، فإذا ضمنت إلى ذلك أن رسول الله ﷺ كان يعرض له بالرجوع عن الاعتراف سترا على نفسه ، فإنك سوف ترى أن الشريعة المحمدية المسموح كانت تؤثر الستر على الفضيحة ، أخذا بمفهوم الحديث الشريف : ( من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ) . وكذلك الحديث : ( إن الله يستر يحب الستين ) .

هذا ولنا نزع أن الرجل الذي قبل أن يحرق بالنار قد رجع عن إقراره الذي رفه إلى الإمام أول الأمر ، ولكننا نستطيع أن نلفت القادرين على استصحاب روح الشريعة إلى أن يحثروا بكاء الرجل وما كان يتجلى في وجهه من الرعب وخشية العذاب بالنار ، نستطيع أن نحير ذلك بمنزلة الفرار من إقامة

الحد عليه من طريق الإحراق بالنار ، على نحو ما وجد ماعز الأسلمي من مس  
الحجارة ما دعاه إلى الفرار .

والإمام — كرم الله وجهه — لا يغيب عنه مثل هذا الاحتمال ، ولأن  
يلتمس أهل العلم وجهها لتصرف الإمام يستند إلى قضاء لرسول الله ويستتر  
عرض مسلم ، خير من أن يترك الأمر للعواطف والرغائب تصرفه كيف تشاء  
حيث تشاء .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه العلامة التستري من أن أمير  
المؤمنين عمر حىء إليه بخمسة نفر أخذوا في قضية زنا ، فأمر رضى الله عنه أن  
يقام على كل واحد منهم الحد . فجاء الإمام كرم الله وجهه فقال : ليس هذا  
حكمهم يا أمير المؤمنين . فقال له عمر : أقم أنت الحد عليهم يا أبا الحسن .  
فقام فقدم واحدا منهم فضرب عنقه ، ثم قدم الثانى فرجمه ، ثم قدم الثالث  
فضربه الحد ، ثم قدم الرابع فضربه نصف الحد ، ثم قدم الخامس فعززه. فتحير  
أمير المؤمنين عمر وتحير الناس معه ، فقال له : يا أبا الحسن ، خمسة نفر في  
قضية واحدة أقمت عليهم خمسة حدود وليس منها شيء يشبه الآخر . فقال  
الإمام كرم الله وجهه : أما الأول فكان ذميا خرج عن ذمته فلم يكن له حكم  
إلا السيف . وأما الثانى فرجل محصن فكان حله الرجم . وأما الثالث فقير  
محصن فحله الجلد . وأما الرابع فعبد فضربناه نصف الحد . وأما الخامس  
فمجنون مغلوب على عقله فعزرناه .

وقد يذكرنا اختلاف الحكم في هذه القضية بقضية تضمنتها قصة ذكرها

---

(١) التحريم — كما في اللسان — ضرب الخاني دون الحد لردعه وسمعه من الموطودة . وفي ذلك  
يقول الشاعر :

وليس بتسلير الأمور حزامه      عليها إذا ما كنت غير مربى

العلامة الأديب الميرد في كامله ، وهى أنه تقاذف عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص ، فبلغ ذلك معاوية فكتب إلى مروان بتأديبهما ، فضرب مروان عبد الرحمن ثمانين وضرب أخاه عشرين .  
فقبل لعبد الرحمن بن حسان : لقد ضربك ثمانين وضرب أخاه عشرين فقسى عليك ورحم أخاه ، فارفع إلى أمير المؤمنين معاوية أمرك ، وسينتقم لك من مروان فتشفى صدرك وصدر الذين يعطفون عليك . فقال عبد الرحمن : لا والله لا أفعل ، فإن مروان ضربنى كما يحذ الرجال الأحرار ، ثم جعل أخاه على الصف كما يحذ العبيد ، فهو بشكرى له أحق منه بلومى إياه .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقات من أن أمير المؤمنين عمر جىء إليه بامرأة حامل ليقيم عليها الحد وقد اتهمت عنده بالمحور ، فأمر بهارضى الله عنه أن ترحم ، ولكن رحمة الله ساقط إليها الإمام كرم الله وجهه فردها عن الحفرة ، ثم قال لأمر المؤمنين عمر : هل أمرت بها أن ترحم ؟ قال نعم ، اعترفت عندى بالفجور . فقال الإمام كرم الله وجهه : لعلك انتهرتها أو أخفتها . فقال عمر : قد كان ذلك . فقال الإمام : إن رسول الله ﷺ يقول : ( لا حد على معترف بعد بلاء ) . ومن قيد أو حبس أو هدد فلا إقرار له . ولم يجد عمر رضى الله تعالى عنه ندحة عن إحلاء سبيلها ، فتركها ثم قال : عجز النساء أن يلدن مثل على . ثم قال : لولا على هلك عمر .  
وقد تكررت هذه الكلمة من أمير المؤمنين عمر في أقضية الإمام كرم الله وجهه .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقة من أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جىء إليه بسارق فقطعه ، ثم جىء إليه به مرة ثانية فقطعه ، ثم جىء به

إليه مرة ثالثة فهم بقطعه ، فقال له الإمام : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنك قطعت يده ورجله ، احبسه . فحبسه .

\* \* \*

ومن أفضيته كرم الله وجهه ما رواه الصدوق ، من أنه جاء رجل إليه فأقر بالسرقة ، فقال له أنقرأ شيئاً من القرآن ؟ قال الرجل : نعم أقرأ سورة البقرة . قال الإمام : لقد وهبت يدك لسورة البقرة . فقال الأشعث الكندي : أتعطل حلاً من حدود الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما يدريك ما هذا ؟ . إن البينة إذا قامت فليس للأمير أن يعفو ، ولكن الرجل إذا أقر على نفسه فذاك إلى الإمام : إن شاء عفا وإن شاء قطع .

ولعلك سائل — حفظك الله — عن وجه التفرقة بين ثبوت التهمة من طريق البينة ، وثبوتها من طريق الإقرار : لماذا يؤخذ بذنبه في حال البينة ، ثم يعفى عنه في حال الإقرار بالذنب ؟ .

والذى حفظناه عن شيوخ من شيوخ الأزهر الشريف ، أد العفو في حال البينة ربما أوقع في الفوس نوعاً من الارتياب فيهم والتحريم لهم ، وفي ذلك فساد كبير لا يحفى وجهه على المتأملين .

وأما العفو عن المذنب في إقراره بالذنب ، فلعله أن يكون من قبيل إقالة أهل المروعات عثراتهم أو تألف قوم تنفع الأمة بتأليفهم . والثقة بأمر المؤمنين كرم الله وجهه لا تأذن لمسلم أن يشك في قضايه رضى الله عنه وأرضاه .

\* \* \*

ومن أفضية الإمام كرم الله وجهه ما ذكره شيخ الإسلام ابن القيم عن الشعبي رحمة الله ، من أن ثلاث جوار احتمعن فركبت إحداهن على عنق الأخرى ، فقرصت الثالثة المركوبة فقمصت فسقطت الراكبة فوقصت أى كسرت عققها فماتت . فلما رفع ذلك إلى على رضى الله عنه قضى بالدية أثلاثاً

على عواقلهن<sup>(١)</sup> ، وألغى الثلث الذى يقابل فعل المقتولة لأنها أعانت على قتل نفسها .

وربما دعانا الحرص على المزيد من المعرفة إلى أن نقف بك حول كلمة واقصة التى جاءت فى سياق القصة . وخلاصة القول فى هذه الكلمة أن البناء اللغوى ينبى أن يكون قائما على اسم المفعول حتى تكون البنت التى ماتت موقوصة لا واقصة ، فذلك هو ما ذكره العلامة الفيومى حيث قال فى المصباح المنير : تقول العرب وقصت الناقة براكبها وقصا : تعنى أنها رمت به فدفقت عنقه ، فالناقة واقصة والعنق موقوصة .

وبناء على ما قاله اللغوى المصرى ينبى أن تكون البنت الثالثة التى قُتلت أحق باسم الموقوصة ، فكيف يطلق عليها أهل اللغة كلمة واقصة ؟ بمعنى اسم الفاعل مع أنها موقوصة ؟ فهى أحق باسم المفعول ؟

وقد أجاب عن سؤالك هذا العلامة أحمد المقرئ الفيومى الأندلسى المهاجر إلى مصر — فقال : إن من حق القياس اللغوى أن يقال « الموقوصة » بدلا من « الواقصة » ، ولكن القوم حافظوا على مشاكلة اللفظ حتى نعى الألفاظ الثلاثة على نمط واحد ، فهن : القارصة والقامصة والواقصة .

ولك — فى مبلغ علمى — أن تقول : إن القوم إنما أطلقوا عليها اسم الفاعل ، مع أنها خليقة باسم المفعول ، من أجل أنها أعانت على نفسها بركوها على عنق القامصة فكأنها بذلك قتلت نفسها فهى — بهذا الاعتبار واقصة وإن كانت موقوصة .

\*\*\*

ومما ينتظمه سلك أقبضته كرم الله وجهه ، ما رواه الزبير بن بكار حيث قال : خطب عمر رضى الله عنه أم كلثوم بنت الإمام من فاطمة الزهراء ، فقال

(١) المراقب : قرأب الإسلام من جهة أنه الذين يشتركون فى احتفال جرائمه .

لأنها صغيرة . فقال : زوجنيها يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرامتها مالا يرصده أحد . فقال : أنا أبعثها إليك فإن رضىتها زوجتكها . فبعثها إليه يبرد وقال لها : قول له هنا هو البرد الذى ذكره لك أوى . فقالت له أم كلثوم ذلك .

فقال عمر : قول له قدر رضىت البرد الذى بعثت به رضى الله عك . ثم أجلسها إلى جانبه وجعل يربت على كفها ، ولكنها — فى حية هاشمية — قالت له : أتفعل معى هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك . ثم انصرفت إلى أبيها فأخبرته الخبر وقالت له : لقد بعثنى يا أبنى إلى شيخ سوء . قال الإمام لها : مهلا يا بنية فإنما هو زوجك .

ووجه القضاء فى هذه القضية ، أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إنما ربت على كفها تأنيسا لها وحرصا على أن يعرف مقدار إدراكها فى مثل منها ، ولا ريب فى أنه كرم الله وجهه كان يستصحب فى صنعه هذا أدب رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف : ( إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى الزواج بها فليقبل ) . وقد أقر الإمام كرم الله وجهه أمير المؤمنين عمر على ما صنع بأمر كلثوم ، فأصبح من حق الخاطب بحكم هذا القضاء أن يصنع ما صنعه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، كما أصبح من واجب أولياء المخطوبة أن يرضوا بما رضىه الإمام على كرم الله وجهه .

ثم إن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جاء إلى الروضة الشريفة حيث كان يجلس فيها مع قدامى المهاجرين ، ثم قال لهم رضى الله عنهم : رضىونى ، رضىونى : أى قولى لى بالرفاء . فقالوا له بم يا أمير المؤمنين نرضك ؟ . قال : تزوجت أم كلثوم بنت علي بن أبى طالب ، لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سبى ونسبى وصهرى ) فتزوجت أم كلثوم .





ومن أقضيته كرم الله وجهه — ما صح عن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال : جىء إلى أمير المؤمنين علي بامرأة مع رجل قد فجر بها ، فقالت المرأة لقد استكرهنى والله يا أمير المؤمنين . فقرأ عنها الحد .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ، أن امرأة شهد عليها الشهود بأنهم وجئوا في بعض مياه العرب رجلا معها يفاحشها وليس بهلا لها . فأمر عمر برجمها . فقالت : اللهم إنك تعلم أنى بريئة . فغضب عمر ثم قال : تفاحشين ثم تهرجين الشهود أيضا ؟ فلما جاء الإمام سئل عن تلك القضية فقال : ردوها فاسألوهما فلعل لها عنرا يقبل . فردت المرأة وسئلت فقالت : كان لأهل إبل فخرجت في إبلهم وحملت معى ماء ولم يكن في إبل أهل لب ، وخرج معى غليظنا وكان في إبله لب . فنفد ما كان معى من ماء فاستسقيته فأنى أن يسقيني حتى أمكنه من نفسى ، ولكنتى أبيت . فلما كادت نفسى تخرج من شدة الظما أمكنته تحت سلطان الإكراه . فقال الإمام — كرم الله وجهه : الله أكبر . ثم تلا : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . فلما انتهت القضية إلى أمير المؤمنين عمر ، خلى سبيل المرأة . هذا ، ولسنا نستطيع أن نجاوز هذه الصورة من أقضية الإمام ، دون أن نقف حيالها وقفات لا نرى منها بدا ولا عنها ندحة .

وأولى هذه الوقفات حول الآية الكريم التي ذيل بها الإمام قضاءه : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

فإن هذه الآية ونظيرتين لها وردن في معرض المضطر إلى الطعام ، وأولاهن

قول الله جل ثناؤه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وثانيتين قول الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وثالثة الآيات قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

وهذه الآيات الثلاث أبجى للمضطر إلى طعام محرم بخصوص هذه الآيات ، أن يأخذ منه ما يسد الجوعة ويستبقى المهجة على ما تشير إلى ذلك الكلمتان : ﴿ غير باغ ﴾ ﴿ ولا عاد ﴾ . فإن المراد بالكلمة ﴿ غير باغ ﴾ : أن لا يبغي الجائع المضطر على جائع مضطر مثله ، وكذلك المراد بالكلمة ﴿ ولا عاد ﴾ .

والمعنى — على ذلك — أن من أُلجأته الضرورة إلى استبقاء حياته بالأكل من هذه المحرمات المذكورة في هذه الآيات الثلاث ، فإن له أن ينال من هذا الذي حرم الله ما يمسك عليه حياته ، بشرط أن لا يبغي على مضطر مثله ، وأن لا يتجاوز حاجته إلى ما وراءها .

وثانية الوقفات أن أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — وافق الإمام عليا كرم الله وجهه ، ولم ينكر هذا القضاء أو يتجهمه أحد من أصحاب رسول الله

ﷺ . فدل ذلك على أن هذا القضاء لا غبار عليه ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ لا يجتمعون على حكم يخالف الإسلام .

وفي تسويغ هذه الصورة من أقضية الإمام كرم الله وجهه ، يقول ثقة فاضل : إن ها هنا أمرين لا بد من ملاحظتهما :

أحدهما قول الخليط : لن أسقيك إلا بتمكين منك .

وثانيهما : أن المرأة قبلت ذلك ، وباجتماع الأمرين أحدهما إلى الآخر تدخل القضية في إطار زواج المتعة ، وهو زواج شرع للضرورة كما يقرر ذلك الإمام الجليل ابن القيم ، في كتابه « زاد المعاد في هدى خير العباد » .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يآثره أهل الثقة من أنه قد جرى إلى عمر برجل وامرأة ، فقال الرجل للمرأة : « يا زانية » . فأجابته المرأة بقولها : « أنت أزنى مني » . فأمر عمر رضي الله عنه بأن يجلد كل منهما ثمانين جلدة حد الفذف . ولكن الإمام — كرم الله وجهه — قال في المجلس : لا تعجلوا . ثم قضى على المرأة بأن يقام عليها حدان ، وقرر أن الرجل لا شيء عليه . ثم علل ذلك القضاء بقوله إن على المرأة حدا لقاء افترائها وحدا آخر لقاء إقرارها على نفسها ، غير أنها لا بصار بها إلى غاية الحد .

ومعنى ذلك أنها لا تضرب حد المفاحشة كاملا لأن من الحد الكامل الإقرار أربع مرات ، على ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى : ﴿ وَبَيِّنْ لَهُمَا جُزْءَ الذَّنْبِ وَأَنَّ الذَّنْبَ أَزْيَرُ مِنْهُمَا شَرًّا ۚ وَلَئِنْ لَّمْ يَأتِ بِالشَّاهِدَيْنِ عَلَيْهِمَا غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا إِنْ كَانَا مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ <sup>(١)</sup> يعنى تعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه تعالى

لم يعاجلكم بها لفضله ورحمته ومقتضى حكمته وإيثاره لأهل الإيمان التوبة على العقوبة وسوء الأحداث .

هذا ، وإذ لم يأذن الشارع بإقامة الحد عليها لعدم توافر الشروط ، فإن الأمر قد عاد إلى التعزير والتعزير لا يبلغ إلى منزلة الحد . هذا ما يتصل بشأن المرأة في هذا القضاء ، وأما ما يتصل بشأن الرجل فإنها بإقرارها على نفسها أسقطت حد القذف عن الرجل .

\* \* \*

ومن أفضيته كرم الله وجهه في قضاء ما قضى به أحد قبله ، وكان ذلك أول ما قضى به بعد رسول الله ﷺ . وذلك أنه لما قبض رسول الله وأفضى الأمر إلى أبي بكر ، جرى إليه برجل شرب الخمر . فقال له أبو بكر : هل شربت الخمر ؟ فقال الرجل : نعم شربتها . فعاد أبو بكر يسأله : ولم تشربها وهي محرمة ؟ قال الرجل : لقد أسلمت يا خليفة رسول الله ومنزلى بين ظهرائي قوم يشربون الخمر ويستحلونها . ولو علمت أنها حرام لاجتبتها . فالتفت أبو بكر رضى الله عنه إلى عمر قائلا له : ما تقول يا أبا حفص في أمر هذا الرجل ؟ فقال عمر رضى الله عنه : معضلة ليس لها إلا أبو الحسن . فدعا أبو بكر بخلام ثم أمره أن يذهب إلى الإمام فيدعوه إليه ، غير أن عمر رضى الله عنه قال : « يؤتى الحكم في منزله » . ثم قام عمر ومعه أبو بكر وسلمان الفارسي فأخبروا الإمام بقصة الرجل . فقال — كرم الله وجهه — لأبي بكر رضى الله عنه : ابعث مع الرجل من يدور به على مجالس المهاجرين والأنصار . فمن كان قد تلا عليه آية تحريم الخمر فليشهد عليه ، فإن لم يكن من يشهد بذلك فعليهم أن يتلوا عليه آية التحريم ثم لا شيء عليه بعد . ففعل أبو بكر ما أشار به الإمام ولكن أحدا لم يشهد عليه ، فخل سبيله .

وهنا تحمس سلمان رضى الله عنه فقال : لقد أرشدتهم وكأنه إنما أراد أن يعترض على قضاء الإمام . فقال — كرم الله وجهه : إنما أردت أن أجدد تأكيد هذه الآية فى وفهم : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِلَاوَةَ وَالْبِلْعَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ۙ ﴾ <sup>(١)</sup> . ثم توجه بالحديث — كرم الله وجهه — إلى سلمان ومظاهرة على رأيه فلا عليهم قول الله تعالى : ﴿ آمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۙ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الإمام الباقر رضى الله عنه قال : جئى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقدامه بن مظعون وقد شرب الخمر ، فشهد عليه رجلان أحدهما خصى وهو عمرو التميمى ، والآخر المولى بن جارود ، فشهد أحدهما أنه رأى قدامه يشرب الخمر ، وشهد الآخر أنه رآه يقيم الخمر . فأرسل أمير المؤمنين عمر إلى أناس من الصحابة فيهم الإمام على فقال له : ما تقول يا أبا الحسن فى هذه القضية ، فإنك الذى قال فىك رسول الله ﷺ : إنك أعلم هذه الأمة وأقضاها بالحق . وقد اختلف هذان الرجلان فى شهادتهما على قدامه بن مظعون . فقال الإمام كرم الله وجهه : إنهما لم يختلفا فى شهادتهما ، فقد شرب الخمر فشهد عليه عمرو التميمى بأنه رآه يشرب ، ثم شهد الآخر بأنه رآه يقيم الخمر . فالذى قاءه هو الذى شربه فهما لم يختلفا فى شهادتهما عليه .

فسأله أمير المؤمنين عمر : هل تجوز شهادة الخصى يا أبا الحسن ؟  
فأجابه — كرم الله وجهه قائلا : ما ذهاب لحيته إلا كذهاب بعض  
أعضائه ، فلا مانع من إمضاء شهادته .

\*\*\*

ومن أقضية كرم الله وجهه قضاؤه في مولود تنازعه ثلاثة نفر كلهم يدعيه  
نفسه ، وكان أولئك الثلاثة قد وقعوا على أم ذلك الولد في طهر واحد . فدعا  
كرم الله وجهه باثنين منهم فقال لهما : طيبا لهذا الولد . قالوا : لا . ثم قال  
لاثنين : طيبا بالولد لهذا . فقالوا : لا . ثم قال لاثنين آخرين : طيبا بالولد  
لهذا . فقالوا : لا . فقال لهم كرم الله وجهه : أنتم شركاء متشاكسون ،  
وإني أقرع بينكم فمن قرع فله الولد وعليه لصاحبه ثلثا الدية . ثم أقرع بينهم  
فجعله لمن صارت له القرعة ، وجعل لصاحبه عليه ثلثي الدية .

فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ضحك حتى بدت تواجذه ، وقد  
ذهب إلى القول بهذا الحديث إسحاق بن راهويه قائلا : إنه السنة في دعوى  
الولد . وكان الشافعي رضى الله عنه يقول به في القديم ، وأما الإمام أحمد  
فرجح عليه حديث القافة<sup>(١)</sup> قائلا : حديث القافة أحب إلى .

قال الإمام ابن القيم : وما هنا أمران أحدهما دخول القرعة في النسب ،  
وثانيهما تغريم من خرجت له القرعة ثلثي دية ولده لصاحبه . وكل من الأمرين  
بعيد عن القياس على ما ذكر ذلك أهل العلم ، فيقال لهم القرعة قد يستعملونها  
عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار أو قافة . وليس ببعيد تعيين المستحق  
بالقرعة في هذه الحال ، إذ هي غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى ،  
ولها دخول في دعوى الأملاك المرسلة التي لا تثبت بقرينة ولا أمارة ، فدخلوها في  
النسب الذي يثبت بمجرد الشبه الخفى المستند إلى قول القائف أولى وأحرى .

(١) القافة جمع قائف وهو الذي يعرف شبه الرجل بأتبعه وأبيه .

وأما أمر الدية فمشكل جدا ، فإن هذا ليس يقتل بوجوب الدية وإنما هو نفويت نسيه بخروج القرعة له . فيمكن أن يقال : وطء كل واحد صالح لجعل الولد له وقد فوته كل واحد منهم على صاحبه لوطئه ، ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم . فلما أخرجته القرعة لأحدهم صار مفوتا لنسبه على صاحبه فأجرى ذلك مجرى إتلاف الولد ، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد ، فحصة المتلف منه ثلثي الدية ، إذ قد عاد الولد له فيغرم لكل من صاحبه ما يخصه وهو ثلث الدية .

قال شيخ الإسلام ابن القيم : ووجه آخر أحسن من هذا وهو أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحق الولد به ، وجب عليه ضمان قيمته . وقيمة الولد شرعا هي ديته ، فلزمه لهما ثلثا قيمته وهي ثلثا الدية ، وصار هذا كمن أتلف عبدا بينه وبين شريكين له ، فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكه ، فإتلاف الولد الحر عليهما — بحكم القرعة — كإتلاف الرقيق الذي بينهم .

وهذا من ألطف ما يكون من القياس وأدقه ، ولا تهتدى إليه إلا أفهام الراسخين في العلم . وليس في الشريعة شيء يخالف القياس ، وليس في المنقول عن الصحابة مما لا يعلم لهم فيه مخالف كذلك ، وأن القياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، كما أن المعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فإن الله تعالى لم يخبر لا هو ولا رسوله ﷺ بما يناقض صريح العقل ، ولم يشرع سبحانه ما يناقض الميزان والعدل .

\*\*\*

ومن أفضيته التي يتلقاها أهل العلم بالقبول القائم على الإعجاب بعمله والإذعان لفضله ، قضاؤه كرم الله وجهه الذي رواه القرطبي عن الشعبي حيث يقول : بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عذتها ، فاستقدمها عمر مع زوجها وفرق بينهما قاتلا له : « لا تتزوجها

أبدا . ثم جعل أمير المؤمنين عمر صداقها في بيت المال . وقد فشا ذلك في الناس ، فلما بلغ الإمام — كرم الله وجهه — جعل يقول : « يرحم الله أمير المؤمنين عمر . ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهل الزوجان فعل الإمام أن يردهما إلى السنة » .

فقال له قائل : « فما تقول أنت فيهما ؟ » فقال : لما الصداق بما استحل منها ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما . وعليها أن تكمل عدتها من الأول ثم تعد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقرأء ، ثم يخطبها الرجل إن شاء . فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر خطب الناس فقال : « أيها الناس ، زدوا الجبهالات إلى سنة رسول الله ﷺ ، وليس لأحد أن يفتي في المسجد وعلى حاضر » .

\*\*\*

ومن أقضية كرم الله وجهه تحديده كلمة حين ستة أشهر ، فقد جرى إليه برجل نذر أن يصوم حيناً من الدهر ولم يعين وقتاً محدداً ، فقصي الإمام أن يصوم النادر ستة أشهر ثم تلا قول الله جل ثناؤه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) . فكلمة حين في هذه الآية حلتها الإمام ستة أشهر .

وننتهز بك هذه السانحة لنرى لك ما ذكره العلماء في تحديد معنى كلمة « حين » . وليس يخفى عليك أن هذه الكلمة وردت في الكتاب العزيز أكثر من مرة بأكثر من معنى ، وجماع هذه المعاني أن الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله ، وهو مبهم المعنى وإنما يخصه ما يضاف إليه ، فهو حين يحى بمعنى أجل الشيء نحو قوله تعالى : ﴿ وَتَتَنَاهَوْنَ إِلَى حِينٍ ﴾ (٢) .



وقد يحىء بمضى الوقت من ليل أو نهار على ما فى الآية الشريفة من سورة الروم : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ جِئَ تُمْسُونَ وَجِئَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحُكْمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَجِئَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١) .

فالحين فى هذه الآية هو الوقت ، وربما ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية من هذه السورة قد حددت أوقات الصلوات الخمس . وقد نجيء كلمة « حين » للزمان المطلق : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ جِئَ مِنَ الذَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ (٢) . وكذلك قوله من سورة — ص — : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٣) .

فالحين فى هذه الآيات ليس له حد فى نفسه يأخذ الإنسان به وينزل على مقتضاه ، وإنما يفهمه بحسب الأحوال المستفادة من إضافة هذه الكلمة إلى ما بعدها أو إلى القرائن من الوقائع والأحداث فى الزمان والمكان . وعلى ذلك جاءت هذه الآية الكريمة مشيرة إلى النخلة ، فكلمة حين مقترنة بالنخلة تعنى الوقت من جداد النخلة وقطع ثمرتها إلى استشاف حملها من جديد ، ومقدار ذلك ستة أشهر كما جاء فى تفسير الإمام كرم الله وجهه . وقد حكى عكرمة رحمه الله أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين ففلامي حر . ثم أتى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فسأل عكرمة ، فقال عكرمة : إن من الحين حيناً لا يدرك معناه ، كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَذْرَى لَعَلَّهُ يَنْتَهَ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٤) ثم قال للرجل المستفتى : أرى أن تمسك غلامك ما بين صرام النخلة إلى حملها . وقد أعجب ذلك أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . ومبلغ العلم بتلك الفتوى من عكرمة أنه قد أخذها عن

(١) الروم ١٧، ١٨ (٢) الإنسان ١ (٣) ص ٨٦ (٤) الأنبياء ١١١

الإمام على كرم الله وجهه ، فالأمر في تفسير الحين ستة أشهر عنه أخذ وإليه  
يُرد ، رضى الله عنه وعن آل بيته أجمعين .

\*\*\*

ومن أقضية الإمام قضية ليس لها إلا مثله — كرم الله وجهه — وخلاصة  
هذه القضية أن امرأة حرة تزيت بزى الإمام ثم راحت تلتمس رجلا كانت  
تريده ، وما زالت به حتى واقمها معتقدا أنها جاريته ، فلم يتيبها والرغبة  
جائعة والظلام شديد . فلما رفع أمرها إلى أمير المؤمنين عمر أرسل إلى الإمام  
على يستغنيه ، فقال له — كرم الله وجهه : « اضرب الرجل حدا في السر ،  
واضرب المرأة حدا في العلانية .

ولعل وجه التفرقة أن الرجل قد أتى ما أتى جاهلا حقيقة المرأة ، ولعله لو  
كان قد تبينها وعلم أنها ليست جاريته لأتى أن يفاحشها . وهذا الفرض يجعله  
غير مستخف بأوامر الله ونواهيه ، فلا ضرورة في هذه الحال للتشهير به بين  
الناس . وأما المرأة فإنها قد فاحشت استجابة لرغبة آئمة وتوسلت إلى هذه الرغبة  
بالغش والخنا ، فكان من العدل أن يفرق بين الحالين فيضرب الرجل في  
السر وتضرب المرأة في العلانية ، ورضى الله عن الإمام الجليل وكرم الله  
وجهه .

\*\*\*

هذا ، ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر  
الصادق قال : شاعت في الناس شائعات عن امرأة تفاحش ، فبلغ ذلك عمر  
رضى الله عنه فبعث إليها فروعا ثم أمر أن يحاء بها إليه . فقزعت المرأة فزعا  
شديدا حتى أخذها الطلق فذهبت إلى بعض الدور فولدت غلاما ، فاستهل  
الغلام ثم مات . فدخل على عمر من الروعة بموت الغلام في هذه الحال ما شاء  
الله ، فقال له بعض جلسائه : لا عليك يا أمير المؤمنين . غير أن عمر رضى الله

عنه لم يقبل هذا القول من جلسائه بل طلب إليهم أن يسألوا عليا . فقال لهم —  
 كرم الله وجهه: إن كنتم قد اجتهدتم فما أصبتم، ولكن كنتم قلتم برأيكم لقد  
 أخطأتم . ثم قال : إن على أمير المؤمنين دية الصبي .. عتق رقبة لوجه الله  
 تعالى . ففرح أمير المؤمنين عمر وأخذ الصحابة يرأى الإمام ، على أن الإمام  
 ابن أبي الحديد روى الخبر مرسلًا ، وفيه أن على عمر غرة تؤدي من بيت مال  
 المسلمين عبدا كانت أو أمة .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما روى عن جعفر الصادق من قوله إن  
 أمر المؤمنين عليا — كرم الله وجهه — قضى في امرأة زوجها ولها وهي  
 برصاء ، فقال إن لها المهر بما استحلت منها ، وأن المهر على الذي زوجها .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — أن امرأة حرة دلس عليها عبد فتزوجها  
 وهي تظن أنه حر وإن كان عبدا في حقيقة أمره ، فقضى في هذه الواقعة الإمام  
 بأن يفرق بينهما إن شأنت المرأة التفريق ، وإلا ظلت زوجة له .

\*\*\*

ومن أقضيته أن رجلا كاتب مملوكه على قدر من المال يدفعه إليه منجما ،  
 فإذا قضى نجومه نال حريته . غير أن المملوك المكاتب جاء بالمال كله إلى سيده  
 ضربة واحدة وسأله أن يأخذ المال ويحجز عتقه ، فأبى السيد إلا أن يأخذ ماله  
 منجما « مقسطا » . فقضى الإمام — كرم الله وجهه — بأن الشرط أحق  
 بالإمضاء ، فعلى المكاتب أن يحترم شرطه فيقضى كتابته أقساطا ، وللسيد أن  
 يرفض أخذ المال دفعة واحدة .

وليس يخفى عليك حفظك الله وجه الحق في هذا القضاء الشريف ، إذ كان  
 أداء مال الكتابة على سبيل التقييط والتجيم يمكن السيد من الانتفاع

بمملوكه زمنا أطول مما لو قبل مال الكتابه ضربة واحدة . فإن الملك يزول عن المملوك في هذه الحال فيزول الانتفاع به ، وقد يكون السيد محتاحا إليه .

\*\*\*

ومما يرويه الثقات من قضاء الإمام ، القوم يفرقون في السفينة أو يقع عليهم البيت فيموتون دون أن يعرف أيهم مات قبل صاحبه . فقال الثقة إن قضاء الإمام في هذه المسألة أن يورث بعضهم من بعض ، كما هو في كتاب الإمام الذي تركه للناس كرم الله وجهه ورضي عنه .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما روى عن الإمام الباقر من قوله : قضى أمير المؤمنين على في رجل شهد عليه رحلان بأنه سرق فأمر بقطع يده ، حتى إذا كان بعد ذلك جاء الشاهدان برجل آخر زعما أنه هو الذي سرق وأنهما أخطأ في نسبتها السرقة إلى الذي قطعت يده . فعضب الإمام أشد الغضب ثم غرم الشاهدين نصف الدية ولم يجر شهادتهما على الآخر .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة مرفوعا إليه ، أن الإمام قضى في رجل وامرأة ماتا معا في الطاعون على فراش واحد ، ويد الزوج تضم الزوجة إلى صدره . فجعل الميراث للرجل قاتلا إنها ماتت قبله ، ثم لحقها هو فمات بعدها .

وليس لقائل أن يقول إن الإمام قضى في هذه الواقعة بعلمه دون ينة ودون يقين . ذلك أن وجود يد الزوج على الزوجة في فراش الزوجية يعطى العلم اليقيني بأنها هي السابقة إلى الموت ، وأنه هو اللاحق بها . ولعل يده على هذه الصورة التي رويت للإمام تشير لنوى القول بأن المرأة

قبل أن تموت بها منها ما يشبه الاستغاثه به فحاول ضمها إلى صدره ، وكأنه يحاول أن يحول بينها وبين الموت وذلك لا يخفى على بصير بأحوال الأزواج .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أن رجلا كاتب مملوكا له مشترطا عليه أن ميراثه له ، فلما رفع ذلك إليه أبطل شرطه قائلا له : إن شرط الله قبل شرطك .

\*\*\*

ومن أفضيته التي تنظر إلى بعيد قضاؤه بأن لا يقام على أحد حد بأرض العلو . وليس يخفى وجه الحكمة في هذا القضاء ، إذ كان من الميسور المحتمل أن يحقد المحدود على قومه ، وقد يحمله الحقد على أن يفر إلى العلو يكشف له عن العورات ويدلهم على ما يؤذى قومه ويسوؤهم .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أنهم قدموا إليه رجلا يستحق القطع فأمر به أن تقطع يمينه ، فقدموا شماله فقطعوها وهم يحسبونها يمينه . ثم قدموه لتقطع يمينه فقالوا إنما قطعنا شماله . فقال — كرم الله وجهه : لا تقطعوا يمينه وقد قطعت شماله .

\*\*\*

ومن قضاياه أنه رفض قطع سارق البيضة من الغنمة ، قائلا لمن قدموه للقطع : إنى لا أقطع أحدا له فيما أخذ شرك .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — قضاؤه في السارق إذا قبض عليه وقد أخذ المتاع دون أن يخرج به من البيت ، فقال — كرم الله وجهه — : ليس على هذا قطع حتى يخرج بالذى سرق من الدار .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر الصادق أنه قال : جىء إلى أمير المؤمنين على بطرار<sup>(١)</sup> طر دراهم من كم رجل ، فقال الإمام :

إن كان النشال قد نشل الدراهم من قميص الرجل الداخلى قطعته ، وإن كان قد نشلها من قميصه الأعلى لم أقطعه . فلما حققوا الأمر وجدوه قد نشل الدراهم من قميصه الداخلى ، فأمر بقطعه فقطعت يده . وليس يخفى وجه الفرق بين طر الدراهم من القميص الداخلى وبين طرها من القميص الخارجى ، إذ كانت الدراهم فى القميص الداخلى مصونة فى حرز حرز ، بخلاف ما إذا كانت فى القميص الخارجى فإنها على غير ذلك من الحفظ والصيانة .

\* \* \*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أنه لا قطع على أربعة : أحدهما المحتلس ، وثانيهما الغال<sup>(٢)</sup> ، وثالثهما السارق من الغنيمة ، ورابعهم الأجير .

\* \* \*

ومن قوله فى هذا الباب — كرم الله وجهه — : إذا سرقنى عبدى لم أقطعه فإذا سرق غيرى قطعته — وكذلك عبد الأمان إذا سرق لم أقطعه لأنه فى .

\* \* \*

ومن قضائه — كرم الله وجهه — فىمن قتل وشرب الخمر وسرق : وقام عليه الحد فأمر بجلده لشره الخمر ، ثم قطع يده فى سرقة ، ثم قتله بما قتل

\* \* \*

---

(١) البطرار : بلمة عسريا الحاصر هو النشال .

(٢) الغال : الخائن .

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة من أنه جرى إليه برجل فقال : هذا قذفى . ولم تكن له بينة فقال : يا أمير المؤمنين استحلفه . فقال الإمام : لا يمين في حد ، ولا قصاص في عظم .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقات من أنه جرى إليه برجل استوجب حدا ، فأمر الإمام خادمه قبرا أن يضربه الحد ، فغلط قنبر فزاده ثلاثة أسواط ، فأمر الإمام المضروب بأن يقتص من قنبر فيضربه ثلاثة أسواط .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أن تستوفي الدية في القتل الخطأ في ثلاث سنوات ، وأن تستوفي دية العمد في سنة واحدة . وكان يقول ، قضاء ماضيا : من ضربناه حدا من حدود الله فمات ، فلا دية له علينا . ومن ضربناه في حقوق الناس فمات ، فديته علينا .

\*\*\*

ومن أفضيته — فيما روى عن الصادق : أنه جلد رجلا اضربى على جماعة ، فجلده حدا واحدا .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أنه قد اختصم إليه رجلان اشترى أحدهما من الآخر بعيرا واستثنى البائع رأس البعير وجلده ، ثم بدا للمشتري أن ينحر البعير فقال الإمام للمشتري : هو شريكك فيه على قدر الرأس والجلد .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له شعبتان أربعين جلدة ، فقد اعتبر كل شعبة سوطا فيكون قد جلده ثمانين جلدة هي حد شرب الخمر .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه قوله في صغار قتل أبوهم : إن قاتل أبيهم لا يقتل حتى يكبر صغاره ، فإذا بلغوا فإن أحبوا أن يقتلوا قاتل أبيهم قتلوه ، وإن أحبوا أن يعفوا عنه أو يصلحوه كان لهم ذلك .

\*\*\*

ومن أقضيته قضاؤه برد شهادة شاهدين من اليهود إذا شهدا على يهودى بأنه أسلم . ووجه ذلك عنده كرم الله وجهه أنها يحيزان تغير كلام الله وشهادة الزور . فلما سئل عن شاهدين من النصارى شهدا على نصرانى أو مجوسى أو يهودى بأنه أسلم ، أجاز قبول شهادتهما قائلا : إن الله يقول في النصارى ﴿ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَنَادَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْطِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) ثم قال كرم الله وجهه : إن من لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد الزور .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه أن جاريتين دخلتا إلى حمام فافتضت إحداهما الأخرى بأصبعها ، فلما رفع الأمر إليه قضى على التى فعلت ذلك بدية البكارة للمعنى عليها .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما ذكره الإمام جعفر من أنه جىء إلى الإمام على برجلين قذف كل واحد منهما صاحبه باللواط ، فدرأ عنهما الحد وعزرهما .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه في رجل دعى آخر باين المجنون ، فقال له



الآخر أنت ابن المجنون . فأمر الإمام أول الرجلين أن يجلد صاحبه عشرين جلده ، فلما جلده أعطى المجلود السوط فجلده عشرين جلدة . وكان ذلك تنكيلا بهما كليهما .

\*\*\*

ومن أقضيته فيما كان يرويه جعفر الصادق أن الإمام كرم الله وجهه نهي أن يشتري مشتر شبكة الصيد ، على أن يقول له اضرب شبكتك فما خرج منها فهو من مالي بكنا وكنا .

ولعل وجه نيه — كرم الله وجهه — أن ها هنا بيع غرر لعدم تعيين السلعة ومعرفة الثمن ، وذلك قد يفضى إلى التنازع الذى ضره أكثر من نفعه وشره أخطر من خيره .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضاء ينتهى إلى قاعدة كلية تقول : لو أن رجلا أراد الحج فمرض له مرض أو خالطه سقم فلم يستطع الخروج ، لكان له أن يجهز رجلا من ماله ثم يمهته مكانه .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضية خلاصتها أن عبدا قتل حرا خطأ ، فلما علم سيد العبد بمجناية عبده أعتقه ، ثم لما رفعت القضية إلى الإمام أجاز العتق وضمن سيد العبد دية القتل .

\*\*\*

ومن أقضيته قضاؤه بأن لا يقتل الوالد إذا قتل ولده ، ولكن يقتل الولد إذا قتل والده .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه في رجل قُلد خاتم الخلافة على عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وقد أصاب الرجل بهذا الخاتم الزور مالا من خراج الكوفة .. فلما أفضى الأمر إلى أمير المؤمنين عمر صلى بالناس صلاة الصبح ، ثم ذكر لهم القصة طالبا رأيهم في هذا المزور الغشاش المستولى على مال حرام . فقال بعض القوم تقطع يده ، وقال البعض الآخر يصلب . وكان الإمام حاضرا يستمع ولا يتكلم ، فسأله عمر : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال كرم الله وجهه : رجل كذب كذبا فيعاقب في جسده . فأمر به عمر فضرب ضربا شديدا ثم حبسه .

\* \* \*

ومن أقضيته ما يرويه الثقة عن الأصمعي رحمه الله ، قال : أخذ الإمام على رضى الله عنه قوما بسرقة فحبسهم ، ثم جاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني كنت معهم وقد تبت إلى الله . فأمر الإمام بحلده حد السرقة ثم أنشد قول الشاعر :

وأدخل رأسه لم يدعه أحد بين القريتين حتى لزه القسرن  
ووجه تمثله بهذا البيت كرم الله وجهه أن هذا الذى جاء يزعم أنه تاب من جريمة قد اقترفها مع قوم آخرين ، وإنما مثله كمثل اثنين وضعا في حبل واحد ، فجاء ثالث متطوعا فأدخل رأسه في الحبل بين القريتين ، فكان كمثل صاحبيه ، وقد جمع الثلاثة حبل واحد .

\* \* \*

ومن أقضيته ما يرويه الإمام جعفر قال : إن أمير المؤمنين عليا قال : إذا ماتت المرأة وفي بطنها ولد يتحرك ، فإن بطنها يشق ليخرج منه الولد . وقال في المرأة يموت في بطنها الولد فيخاف عليها من ذلك : لا بأس بأن يدخل يده فيقطع الجنين الميت ويخرجه ، إذا لم تترفق به النساء .

وقد علق المسعودى رحمه الله على قضاء الإمام فى موت الأم واستخراج الجنين من بطنها حيا ، فقال إن من هؤلاء الذين ماتت أمهاتهم وشقت بطونهم واستخرجت منها الأجنة أحياء ، قصر الروم . ومن هؤلاء فى العرب ، خارجة بن سنان من غطفان ، وهو أخو هريم بن سنان مملوح زهير بن أفى سلمى . وفى خارجة بن سنان هذا ذكر ابن قتيبة أنهم يقولون عن خارجة إنه بقر غطفان ، لأنه استخرج من بطن أمه من بعد أن هلك .

\*\*\*

ومن أقضيته إجاباته عن أسئلة توجه إليه محتاجه إلى مزيد من الفهم والفظانة .

فمن ذلك ما يروونه من أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا يتناكرون ، فتناكروا حروف الهجاء وأجمعوا على أن الألف أكثر دخولا فى الكلام من سائر الحروف . فقام الإمام كرم الله وجهه فخطب على البديعة خطبة قال فيها : « حمدت وعظمت من عظمته ، وسبقت نعمته ، وسبقت رحمته غضبه وتمت كلمته ، ونفذت مشيئته .. حمدته حمد مقرر برؤيته ، متخضع لعبوديته ، متصل من خطيئته ، معترف بتوحيده مؤمل من ربه مغفرة تجبه ، يوم يشغل عن فصيلته وبنيه ، وتستعينه ونسترشد ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه ، وشهدت له تشهد مخلص موقن ، وفردته تفريده مؤمن متيقن ، ووحدته توحيد عبد مدعى ليس له شريك فى ملكه ، ولم يكن له ولّى فى صنعه جل مشير ووزير ، وعون ومعين ونظير . علم فستر ، ونظر فخير ، وملكت فقهر ، وعصى فغفر ، وحكم فعدل . لم يزل ولن يزول ، ليس كمثله شيء وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء ، متفرد بعزته ، متمكن بقوته ، متقدس بعلوه ، متكبر بسموه ، ليس يدركه بصر ، وليس يحيط به نظر ، قوى منيع بصير ، سميع حلیم حكيم ، رءوف رحيم ، عجز عن

وصفه من يصفه ، وضل عن نعته من يعرفه . قرب فبعد ، وبعد فقرب ،  
يجب دعوة من يدعوه ، ويرزقه ويحبوه . ذو لطف خفى ، وبطش قوى ،  
ورحمة موسعة ، وعقوبة موجعة ، رحمته جنة عريضة موفقة ، وعقوبته جحيم  
مملوءة موبقة .

وشهدت بيعة محمد عبده ورسوله ، ونبيه وخليفه ، صلى عليه ربه صلاة  
تزلفه وتعلمه ، وتقربه وتدينه . بعشه في خير عصر ، وحين فطرة  
وكفرة ، رحمة لمبيده ومنة لمزيدة ، ختم به نبوته ، ووضح به حجته ، فوعظ  
ونصح ، وبلغ وكدح ، عليه رحمة وتسليم ، وبركة وتكريم ، من غفور  
رحيم ، قريب مجيب . وصيتكم جميع من حضر وصية ربكم ، وذكرتكم  
سنة نبيكم ، فعليكم بهمة تسكن قلوبكم ، وخشية تدرى دموعكم ، وتقية  
تنجيكم ، قبل يوم يهلككم ويهلككم . يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنة ،  
وخف وزن سيئة ، ولتكن مسألتكم مسألة ذل وخضوع ، وشكر  
وخشوع ، وتوبة ونزوع ، وندم ورجوع . وليغتم كل مغتم منكم صحته  
قبل سقمه ، وشيئته قبل هرمه وكبره ، وفرغته قبل شغله ، وغنيته قبل فقره ،  
وحضره قبل سفره .

ثم قرأ كرم الله وجهه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ  
عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

\*\*\*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — أنه جىء إليه بالنجاشي الشاعر وقد  
شرب الخمر في شهر رمضان ، فضره الإمام ثمانين جلدة ثم حبسه ليلا . ثم  
دعا به إلى الغد فضره عشرين سوطا ، فقال له : ما هذا الذي صنعت في

يا أمير المؤمنين ، ضربتني ثمانين في شرب الخمر ، فما هذه العشرون ؟  
فقال : شربت الخمر فجلدتك ثمانين ، ثم دعونا بك فضربك عشرين لجراؤك  
على الشرب في شهر رمضان .

\*\*\*

ومن أقصيته — كرم الله وجهه — أن صيأتا في زمنه كانوا يلعبون ، فرمى  
أحدهم فلق رباعية<sup>(١)</sup> صاحب من أصحابه ، فرفع ذلك إليه فدعا بالرامي  
فأقام البيعة بأنه قال قبل أن يرمى : « ضرار » . فدرا الإمام عنه القصاص  
قاتلا : لقد أعلز من أنذر .

\*\*\*

ومن أقصيته — كرم الله وجهه — أنه لم يجعل على المستحاضة حلا حتى  
ينقطع عنها دمها ، وكذلك لم يجعل على الحائض حتى تطهر ومثلها النفساء ،  
وكذلك لم يجعل على الحامل حلا حتى تضع حملها .

\*\*\*

ومن أقصيته — كرم الله وجهه — أن سئل عن حمل غذى بلبن خنزيرة ،  
فقال : قيده ثم اعلقوه الكسب والنوى والخنزير إن كان قد استغنى عن اللبن .  
وإن لم يكن قد استغنى فأمكنوه من ضرع شاة سبعة أيام .

ومن أجوبته كرم الله وجهه عن أسئلة تجرى في طريق القضاء ، أن سائلا  
سأله عن لأب له ولا عشرة ولم يركض ، وعن القبر الذي سار بصاحبه .  
فأجاب كرم الله وجهه : أما من لأب له فيسى بن مريم ، وأما من لا عشرة له  
فأدم أبو البشر ، وأما القبر الذي سار بصاحبه فذلك يونس بن متى : ﴿ إِذْ أَتَى إِلَى  
الْقَلْبِ الْمَشْهُونِ ۖ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۖ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ  
مُيَمِّمٌ ۝ ﴾<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه أن رجلا شكأ إليه آخر زعم أنه احتلم بأمه . فذكر الإمام كرم الله وجهه أن الحلم في المنام بالنسبة للحالم مثله كالظلم للنساء والشجر ونحو ذلك ، ثم قال للشاكى : أوقف غريمك في الشمس ثم اضرب ظله . ومع ذلك فإننا نضربه حتى لا يعود يؤذى المسلمين ، فضربه ما دون حد القذف .

ففى هذا القضاء بلا ريب دقة إدراك لا يتمتع بها كثير من أهل البصر بشئون الاجتماع .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه قضاؤه بأن لا يؤكل لحم الدجاج إلا إذا حبس على الغداء النظيف ثلاثة أيام ، وكذلك البط لا يؤكل إلا إذا حبس على الغداء النظيف خمسة أيام :

ووجه هذا القضاء تزيده الأيام إشراقا على مر العصور حتى يوم الناس هذا ، فقد قرأنا أخيرا أن الإنسان كلما أكل طعاما طيبا نظيفا فإن طيبه ونظافته معوان على سرعة هضمه وقوة الانتفاع به . وقد ضرب المستترون مثلا لذلك فى غسل اليدين قبل الطعام ، وفى تناول الطعام نفسه فى مكان نظيف بعيد بين الأشجار أو على ضفاف الأنهار ، فقد أفتى أهل العلم بأن هذا الطعام سريع الهضم عظيم الفائدة .

ومن هنا يحى قضاء الإمام فى هذه الصورة قضاء سليما تؤيده الفطرة السوية ويزكيه العلم الحديث .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — قضاؤه بقطع يد الباش الذى ينش القبور ، فيسرق الأكفان وأشياء الموق ويهتك أستارهم ، وذلك أنه قال إن النباش سارق .

وليس غريبا أن يعتبر الإمام النباش سارقا فيقطع يده كما يقطع يد السارق .  
ذلك أن السارق يأخذ ما يسرقه خفية ، وكذلك النباش يأخذ ما ينش عليه  
خفية . ثم إن السارق يأخذ ما يسرقه من حرزه ، وكذلك النباش يأخذ  
ما ينش عليه من حرزه ، فالأمر في غاية الوضوح أن يلدح النباش بالسارق .  
وقد كان الناس في عهد معاوية يكتبون بمعاقبة النباشين دون قطع أيديهم .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة عن الإمام جعفر الصادق  
من قوله : كان أمير المؤمنين على عليه السلام إذا بلغه أن مولى تزوج حرة ،  
طلب إليه أن يطلقها ، فإن أئى جعل له الإمام حضرة من قصب أو جريد  
فحبسه فيها ، ثم أعطاه قوته من طعام وشراب حتى يطلق زوجته .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقة من أن رجلا جاء إلى أمير  
المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إني طلقت امرأتى تطليقه في  
الشرك وتطليقتين في الإسلام ، فما ترى يا أمير المؤمنين ؟ فسكت عمر .  
فقال الرجل : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . فقال عمر : كما أنت حتى يحىء  
على بن أئى طالب . فلما جاء على قصص عليه الرجل قصته وأنه طلق امرأته  
تطليقة في الشرك وتطليقتين في الإسلام . فقال له كرم الله وجهه : لقد هدم  
الإسلام ما كان قبله ، والمرأة عندك على واحدة .

وتوضيح هذه القضية أن طلقة الجاهلية لا تحسب ، وإنما الذى يحسب  
الطلفتان في الإسلام . وعلى ذلك بقيت للرجل طلقة واحدة ، فلو أئى بها  
لأصبحت زوجته حراما عليه حتى تنكح زوجا غيره كما هو الشأن في طلاق  
الثلاث .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما رواه الثقة عن الإمام الباقر قال : كان لرجل على عهد علي جاريثان فولدتا جميعا .. إحداهما ولدا ذكرا ، والأخرى بنتا . فعملت صاحبة البنت فوضعت بنتها في المهد الذى فيه الولد الذكر ثم أخذته لنفسها . ثم تنازعتا الولد الذكر فكل واحدة منهما تدعيه لنفسها ، فتحاكما إلى أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فأمر أن يوزن لهنما قائلان : أيتهما كان لهنما أثقل فالولد الذكر لها .

على أن لهذه القضية وجهاً آخر خلاصته ما يذكره شريح القاضى فيقول : كنت أقضى لعمر بن الخطاب ، فأتانى يوما رجل فقال لى : يا أبا أمية إن رجلا أودعنى امرأتين .. إحداهما حرة مهرة ، والأخرى سرية<sup>(١)</sup> ، فجعلتهما فى دار وأصبحت اليوم فإذا هما قد ولدتا غلاما وجارية ، وكلتاهما تدعى الغلام لنفسها وتتفى من الجارية . وقد جئتك أيها القاضى أطلب قضاءك بينهما . يقول شريح : فلم يحضرنى شيء فيهما أقضى به ، فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقصصت عليه القصة . فقال : فما الذى قضيت بينهما ؟ .. قلت : لو كان عدى قضاء فيهما ما أتيتك . فجمع عمر جميع من حضره من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم أمرنى أن أقص عليهم ما جئت به . وجعل عمر يشاور أصحاب رسول الله ﷺ ، وكلهم يرد الرأى إلى واليه . فقال عمر : لكنى أعرف مفرع القضية ومنتزعا . قالوا : كأنك أردت ابن أئى طالب . قال : نعم ، وأين المذهب عنه ؟ قالوا : فابعث إليه يأتيتك . قال : إن له شحنة من هاشم ، وأثرة من علم تقتضيان أن نسمى إليه ولا تأذن له أن يسمى هو إلينا ، فقوموا بنا إليه . فلما جئناه وجدناه فى حائط له يركل<sup>(٢)</sup> فيه على مسحاة<sup>(٣)</sup> ويقرأ قول الله تعالى :

(١) السرية : على الرربة ، هى الأمة التى تباع وتشترى .

(٢) الركل : الضرب بالرجل .

(٣) المسحاة : آلة يقش بها الطين عن وجه الأرض ويحرف .



﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١). ثم يبكى بكاء شديداً . ولم يجد القوم بداً من أن يبجلوه حتى تسكن نفسه ويرقاد معه . ثم استأذنوا عليه فخرج إليهم وعليه قميص قدت أكامه إلى النصف منها ، ثم قال كَرَّمَ اللَّهُ وجهه : ما الذى جاء بك يا شريح ؟ . قلت : أمر عرض جئنا نسأل عنه . فأمرنى فقصصت عليه القصة فقال : فم حكمت فيهما ؟ قلت : لم يحضرنى حكم فيهما . فأخذ بيده من الأرض شيئاً ثم قال : الحكم فيها أهون من هذا . ثم أمر بإحضار المرأتين وأحضر قدحا .. ثم دفعه إلى إحداهما قائلاً لها احلى فيه . فامتثلت المرأة فحلبت .. ثم وزنه . ثم قال للأخرى احلى أنت أيضاً فى قدح أخرى ثم وزنه أيضاً . ثم قال لصاحبة اللبن الخفيف : خذى ابتك . وقال لصاحبة اللبن الثقيل : خذى ابتك .

ثم التفت كَرَّمَ اللَّهُ وجهه إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه قائلاً : أما علمت أن الله تعالى حط المرأة عن الرجل فى ميراثها ، فكذلك كان لبنها دون لبنه . فقال عمر : لقد أراذك الحق يا أبا الحسن ولكن قومك أبوا . فقال الإمام : خفف عليك أبا حفص . ﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ . ولم يدع أهل العلم هذا القضاء دون تعليق حتى قال ثقة فاضل : إن جعفرًا الصادق رضى الله عنه كان يقول : « لبن أحد الشدين طعم ، ولبن الثانى الآخر شراب . فلي الأم أن ترضع ولدها من ثديها كليهما فذلك أصح لجسده وأحكم لقوته .

وتلك قضية لا يسوغ لأهل العلم المعمل أن يتركوها عمر دون أن يؤدوا لها حقها من البحث ، والقضاء لها أو عليها .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقات عن الصادق أيضا قال : جىء إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بامرأة تزوجت شيخا كبيرا . فلما كانت ليلة دخوله بها مات على بطنها ، ثم وضعت المرأة ولدا .. فادعى بنوه أنها فجرت وتشاهدوا عليها ، فأمر بها عمر أن ترجم . فمر بها على كرم الله وجهه فاستغاثت به قائلة : يا ابن عم رسول الله ، إن لى حجة على الذين تظاهروا على . فقال لها : هاتى حجتك . فدفعت إليه كتابا فقرأه فقال : هذه المرأة تعلمكم يوم تزوجها وبما يكون بين الرجل والمرأة فى ذلك اليوم . فردوا المرأة عن الحفرة . فلما كان من الغد دعا بصبيان أتراب فى سن واحدة ، ثم دعا بالصبي معهم وأمرهم أن يلعبوا ، حتى إذا ألهاهم اللعب قال لهم : اجلسوا . حتى إذا تمكنوا فى مجالسهم صاح بهم أن يقوموا ، فقام الصبيان وقام الغلام ، غير أن الغلام اتكأ على راحتيه فى أثناء قيامه ، فدعا به الإمام وورثه من أبيه وجلد إخوته حد المفترين .. حدا حدا .

فقال له أمير المؤمنين عمر : كيف صنعت يا أبا الحسن ؟ قال : عرفت ضعف الشيخ فى اتكاء الغلام على راحتيه حين قام .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — قضاؤه فى رجل وصى بعد الموت بسهم من ماله دون أن يبينه . فلما مضى إلى ربه اختلف الورثة فى المراد بالسهم وكيف يصنعون . فلما تراءفوا إليه — كرم الله وجهه — قضى عليهم بإخراج الثمن من ماله ، ثم استشهد لقضائه هذا قول الله جل ثناؤه فى سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

وَفِي الرِّقَابِ وَالْقَارِمينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

وهؤلاء الذين ذكرهم الله في هذه الآية الشريفة هم ثمانية أصناف ، لكل صنف منهم سهم من الصدقات .

\*\*\*

ومن أقضية كرم الله وجهه ، قضاؤه في رجل وصى فقال : اعتقوا عني كل عبد قديم في ملكي . فلما مات الرجل لم يعرفوا ما أراد الموصي ، فقال الإمام : يعتق عنه كل عبد ملكه ستة أشهر ، ثم تلا قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَالْقَمَرَ قَلْبَرَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن العرجون إنما ينتهي إلى الشبه بالهلال في تقوسه وضوؤه بعد ستة أشهر من أخذ الثمرة عنه .

\*\*\*

ومن أقضية الإمام أيضا قضاؤه الذي صان للمرأة المسلمة حياتها وحفظ عليها كرامتها . وبيان ذلك أن رجلا جاء إلى أمير المؤمنين عثمان يشكو إليه أنه تزوج وأن زوجته ولدت بعد ستة أشهر ، فأراد أمير المؤمنين عثمان أن يقيم عليها الحد . فقال له علي — كرم الله وجهه — ليس لك ذلك يا أمير المؤمنين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (٢) الآية من سورة

(١) التوبة ٦٠

(٢) نساء ٣٩

(٣) الأحقاف ١٥

الأحقاف . فقد جعل الله تعالى في هذه الآية مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهرا ، ثم جعل مدة الرضاع الذى يعقبه القطام أربعة وعشرين شهرا كما فى الآية : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ﴾ (١) . الآية من سورة البقرة . وعلى هذا النحو جاءت الآية من سورة لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي غَامِثَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

ففى هاتين الآيتين من سورة البقرة وسورة لقمان ، أن مدة الرضاع أربعة وعشرون شهرا ، فإذا أخذت هذه الشهور من الثلاثين شهرا فى سورة الأحقاف فقد بقى ستة أشهر هى مدة حمل الزوجة التى يشكوها زوجها . ولم يسع أصحاب رسول الله ومعهم أمير المؤمنين عثمان إلا أن يذعنوا لقضاء الإمام ، وبذلك انطلقت المرأة إلى بيتها أسعد ما يكون الإنسان بسلامة حياته وصيانة كرامته .

\*\*\*

ومن أفضية الإمام أيضا تسويته فى الفئ والصدقة بين المسلمين ، مخالفا بذلك أمير المؤمنين عمر إذ كان — رضى الله عنه — يفضل فى العطاء بعض المسلمين على بعض .. فضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، ثم فضل العرب على العجم .

وعلى غير هذا النهج كان يمضى الخليفة الأول أبو بكر — رضى الله عنه — فكان يسوى بين أهل الإسلام فى الفئ والصدقات ، وكان يستد فى ذلك إلى النص فى آية الصدقات من سورة التوبة . وقد كان — رضى الله عنه — استغنى

الإمام فأعطاه بالتسوية ، فلما آل الأمر إليه لم يكن له بد من الأخذ بهفتواه .  
ولذلك سوى في العطية مؤكداً أن ذلك هو الإسلام وأنه لن ينزل إلا على  
حكمه ، فذلك قوله — كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ — لطائفة من أصحابه مشوا إليه  
ناصحين ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال للمسلمين ، وفضل  
الأشراف من العرب ، وقرىشاً على الموالى والعجم ، تستميل بذلك من تخاف  
خلافه وفراره إلى معسكر أعدائك . فقال لهم تلك الكلمة التى تؤثرون نروياها  
بنصها : « تأمرونى أَنْ أَطْلُبَ النِّصْرَ بِالْجُورِ ؟ وَاللَّهِ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ فِي نَهَارٍ وَمَا لَحَ نَجْمٌ فِي لَيْلٍ . ثُمَّ وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْمَالَ  
كَانَ لِي لَوَاسَيْتَ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُهُمُ الَّتِى أَفْأَعَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ  
سَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ : وَالْأَمْرُ أَسْرَعَ مِمَّا تَنْظُنُونَ . وَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .  
وغير خفى على أهل العلم أن الخلفاء الراشدين كانوا طائفتين .. طائفة  
تلتزم النص ، وأخرى تستصحب المصلحة . فكان الخليفة أبو بكر ومعه  
الإمام على يؤثران النص ويلزمان سبيله ، وكان أمير المؤمنين عمر ومعه عثمان  
يستصحبان المصلحة . وكلتا الطائفتين حريصة على مرضاة الله وظافرة به  
أعطت أم أصابت ، إذ كان من قواعد الشريعة الإسلامية المسماح أن المجتهد  
المخطئ له أجر واحد ، وأن المجتهد المصيب له أجران . وليس يخفى على المتأمل  
الفرق بين المجتهد الذى أخطأ والمجتهد الذى أصاب ، إذ كان الذى اجتهد  
فأصاب قد بذل جهداً أكبر وعانى مشقة أكثر ، فى حين أن الذى اجتهد  
فأخطأ لم يبذل من الجهد ما بذل صاحبه ، ولم يحمى المشقة التى عاناها .  
ولست ترتاب — رحمك الله — فى أن تصرف الفاروق عمر فى عدم  
التسوية كان أرضى لأهل الوجاهة من الناس ، فكان السادة من العرب يعلنون  
على ملأ من الناس ضيق صدورهم بما آثره الإمام من التسوية فى العطاء بين  
الكبار والصغار ، والعرب والعجم ، حتى إنك لترى المرأة العربية تعزى

يعروبتها على الأعجمية . فقد جاءت امرأتان إلى الإمام تسألانه المعونة على العيش ، فدفعت إليهما — كرم الله وجهه — دراهم وطعاما بالسواء . فقالت إحداهما في غضب : إني امرأة من العرب وهذه من العجم ، فكيف نكون سواء في العطاء يا أمير المؤمنين ؟ فقال لها الإمام :  
« إني والله لا أجد فضلا لك عليها » .

\*\*\*

ومن عيون فقهه — كرم الله وجهه — ما يرويه عمرو بن عبيد من قوله :  
أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب : « لو كان الوزر في الأصل محتوما ، كان الموزور في القصاص مظلوما » . وكذلك كتب واصل بن عطاء : أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : « أيدلك على الطريق ، وبأخذك عليك بالمضيق » . وكذلك كتب العلامة الشعبي فقال : أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : « كل ما استغفرت الله تعالى منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه جل ثناؤه » .

وقد كانت هذه الكلمات الحكيمة في القضاء والقدر جوابات من سادة العلماء على سؤال وجهه إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي كان من أعدى أعداء الإمام كرم الله وجهه . ومع هذه العداوة لم يسهه إلا أن يقول كلمة ثناء على الذين أجابوه إلى ما سألهم عنه : لقد أخذوها من عين صافية . يقصد الحجاج بكلمة « العين الصافية » الإمام عليا كرم الله وجهه .

ولعل من الحق علينا لك — حفظك الله — أن نلفتك إلى أن من هؤلاء السادة من كان يدين بمذهب الاعتزال ، كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء . ولعل هذه اللفتة تملكك على أن تسأل عن مدى الصدق في قول من قال :  
إن عليا — كرم الله وجهه — كان إماما للمعتزلة ، وأنهم أخذوا عنه وتلمذوا له ؟

ومبلغ ما نقوله جوابا على سؤالك هذا ، هو ما نرويه لك عن عالم أزهري واسع الاطلاع قادر على البحث والاستقراء واستخراج أصدق النتائج من أصح المقدمات ، فذلك حيث قال في معرض حديثه عن الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب :

لقد ثبت أن الإمام زيدا ذهب إلى البصرة والتقى بعلمائها ، وقد قال الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» إن الإمام زيدا تتلمذ لواصل بن عطاء وأخذ عنه الاعتزال . لأنه قال في زيدر بن أبي رضى الله عنه إنه أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحل بالعلم ، فتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة . فهذا الخبر الذي رواه صاحب الملل والنحل يدل على أمور ثلاثة : أولها أنه التقى بواصل بن عطاء وتلمذ عليه أو اقتبس منه ، وأن الذي دفع زيدا إلى لقائه والدراسة عليه هو رغبته في أن يحصل الأصول مع الفروع . وقد حصل زيد علم الفروع في المدينة وبقي أن يحصل علم الأصول في البصرة ، لأن البصرة كانت مهد الفرق الإسلامية . والإمام أبو حنيفة عندما كان يدرس علم الكلام كان يذهب إلى البصرة ليجادل ويقاش ، حتى إنه ليذكر أنه ذهب إليها نحو اثنتين وعشرين مرة .

والأمر الثاني أنه أخذ عن واصل ، مع أن واصل كان يعلن أن جده عليا كرم الله وجهه لم يكن مستيقنا أنه على الحق في قتاله الناكثين أصحاب الجمل ، والفاستين أصحاب معاوية . وذلك يعنى أن زيدا رحمه الله كان على درجة رفيعة من استقلال الفكر .

والأمر الثالث أن زيدا غادر المدينة بعد أن اكتمل ، وأخذ يتلقى العلم من أى مكان ومن أى شخص ، وذلك شأن طالب العلم الذى هو أشبه الناس بطالب الجواهر ، فهو لا يتقيد بمكان ولا يتقيد بغواص واحد يهديه إليها ويدله عليها .

غير أن ها هنا أمرا لا بد من لفتك إليه وتنبهك له ، وهو أن التقاء زيد رضى الله عنه بواصل بن عطاء كان التقاء مذاكرة علمية ، وليس التقاء تلميذ يأخذ عن أستاذ ، فإن بينهما متقاربة . وقد كان زيد ناضجا فهو قد أراد أن يعرف النواحي المختلفة حول أصول العقائد كما تلقى فروع الأحكام عن أسرته ، وفي المدينة مهد علم الفروع .

ولقد كان زيد موفقا غاية التوفيق حينما اختار البصرة موضعا لتلقى أصول العقائد عند الفرق المختلفة . ذلك أن البصرة كانت موضع تلك الفرق المختلفة حول العقيدة الإسلامية ، فكان فيها طائفة من الشيعة ، وكان فيها المعتزلة ، وكان فيها جميع الذين تكلموا في صفات الذات العلية ، فمن أراد علم العقائد للفرق المختلفة فليقصد إلى البصرة .

على أننا نستطيع أن نذكر استنادا إلى أهل الثقة ، أن علماء آل البيت الشريف تكلموا في العقائد وكانوا قرييين مما قاله واصل بن عطاء . بل إننا نجد من يقول : إن واصلأ أخذ عقيدة الاعتزال عن آل البيت الشريف فقد كانوا على علم به ، وخصوصا محمد بن الحنفية الذى كان عالما غواصا في العلوم وقاد الفكر ، مصيب الخواطر . وقد أخبره أمير المؤمنين على عن أحوال الملاحم ، وأطلعته على منارج المعالم .

وقد ذكر الإمام المرتضى أن الطبقات الأولى من المعتزلة كانوا من آل البيت النبوى الكريم ، فعلى زين العابدين وابنه الباقر ، والحسن والحسين من قبلهما ، ومحمد بن الحنفية أخوهما ، كانوا من المعتزلة .

وليس هناك ما يكذب هذا القول بل هناك ما يزيكه ، فإن مذهب المعتزلة هو — فى الجملة — مذهب الزيدية فى العقائد ومذهب الاثناعشرية . ويغلب على العن لذلك أن هنا كان مذهب السلف من آل البيت ، إذ كانوا قد خاضوا فى أصول الاعتقاد ودخلوا فى هذه الحومة .



ولست ترتاب في أن آل البيت ومن أخذ عنهم ونهج نهجهم ، إنما كانوا يأخذون علومهم ومعارفهم عن جدهم الأكبر أمير المؤمنين على رضى الله عنه وأرضاه .

\*\*\*

ومن أقضيته — كرم الله وجهه — ما يرويه الثقات عن جعفر الصادق رضى الله عنه قال : ولد على عهد أمير المؤمنين مولود له رأسان وصدران ، فمضى أهل المولود إلى الإمام يسألونه عن ميراثه : أيرث ميراثين أم يرث ميراثا واحدا ؟ فقال : « يترك المولود حتى ينم ثم يصاح به ، فإن انتبها جميعا معا كان له ميراث واحد ، وإن انتبه أحدهما وبقي الآخر نائما ورث هذا المولود ميراث اثنين .

وليس هنا بمستبعد في الحديث وفي التقديم ، فما أكثر ما تروى الأخبار المحلية والعالمية الشيء الكثير من هذا الشنوذ في المواليذ . وأما في التقديم فقد روى الثقات أنهم رأوا في بلاد فارس امرأة لها رأسان وصدران ، وهى متزوجة وإحدهما تغار من الأخرى فهما في عراك دائم لا ينقطع . وكذلك روى ثقة أنه رأى رجلا كذلك له رأسان وصدران ، وقد كانا يعملان جميعا حائكين . وقد حكى البيروني في آثاره عن تاريخ ابن قرة أن أحد بطارقة الروم سنة ٣٥٢ أرسل لناصر الدولة رجليين كانا من البطن ملتصقين ، وكان موضع التصاقهما طويلا بحيث يقدر كل منهما أن يقوم في يمين الآخر . وكان قد مر عليهما خمس وعشرون سنة . وكانت لهما لحية واحدة .

\*\*\*

ومن أقضيته القضاء الذى اجتمع له فيه الفقه بالشريعة والعلم بالتاريخ ، فذلك حيث روى الثقة عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال :  
( ١٥٢ — على إمام الأئمة )

جىء إلى عمر بن الخطاب بمجملية شهد عليها شهود بأنها بغت وفجرت . وكان من قصتها أنها كانت يتيمة عند رجل وكان الرجل كثيرا ما يغيب عن أهله . فلما شبت اليتيمة وبلغت مبلغ النساء خشيت زوجة الرجل أن يتزوجها زوجها فتصبح ضربها بعد أن كانت أمتها ، فدعت بنسوة فأمسكها ، فانتهزت الفرصة فأخذت عنقها بإصبعها . فلما قدم زوجها من غيبته قذفت المرأة اليتيمة واتهمت بالفاحشة ، وأقامت الغيبة من جاراتها اللاتي ساعدنها على ذلك الإثم الشنيع . فرفع الزوج ذلك إلى عمر رضى الله عنه ، ولكن عمر لم يدر كيف يقضى في هذه المعضلة ، فقال للرجل : اذهب إلى على بن أبى طالب ونذهب نحن معك . ثم أتوا عليا — كرم الله وجهه — وقصوا عليه القصة ، فقال لزوجة الرجل : أممك برهان على ما تقولين في حق الجارية ؟

قالت المرأة : نعم لى شهود .. هؤلاء جاراتى يشهدن عليها بما أقول . فأمر الإمام كرم الله وجهه بإحضارهن . فلما حضرن أخرج على سيفه من الغمد فطرحه بين يديه ، ثم أمر بكل واحدة منهن فأدخلت بيتا . ثم دعا بامرأة الرجل فجعل يحلورها ويداورها بكل وجه ولكنها أبت أن تنزل عن قولها ، فردها إلى البيت الذى كانت فيه . ثم دعا بإحدى الشاهدات وجثا على ركبتيه ثم قال : هل تعرفينى ؟ أنا على بن أبى طالب وهذا سيفى فى يدي ، وقد قالت زوجة الرجل ما قالت ثم رجعت إلى الحق فأعطينا الأمان . وإن أنت لم تصدقينى القول فلا بد لى من أن أمكن السيف منك . فالتفت الشاهدة إلى عمر رضى الله عنه قائلة : يا أمير المؤمنين الأمان على الصديق ؟ فقال لها : اصدق يا امرأة . فجعلت المرأة تقول : « لا » ، والله إن زوجة الرجل رأت للجارية جمالا وهيئة فخشيت أن تقصد عليها زوجها فسقتها المسكر ، ثم دعنا فأمسكناها لما فآزالت بكلرتها بإصبعها . فقال على كرم الله وجهه : الله أكبر ، والحمد لله

الذى جعلنى بعد دانيال أول من فرق بين الشهود لمعرفة الحقيقة . ثم قضى كرم الله وجهه عليهن بعد الغدف ، وقد ألزمن جميعا دية البكرة التى يسميها الفقهاء بالعقر ، على أن يكون عقر تلك الأمة أربعمائة درهم . فهذه الأربع مائة درهم تعويض للجارية عن عقرها بإزالة بكرتها .

ولم يقف كرم الله وجهه عند هذا الحد فى قضائه بل تجاوز ذلك إلى ما يليق به فى شرف نفسه وتعالى عدله وانتصافه للمظلوم من المظالم ، فجعل يؤنب المرأة المنهية تأنيبا عفيفا حمل زوجها على أن يعلن فى المجلس طلاقها . فأشار الإمام إلى زوجها بأن يتزوج الجارية ، وساق المهر لها من ماله كرم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه . ولم يشأ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إلا أن يعلن إعجابه بقضاء الإمام مكررا كلمته التى كان شديد الحرص على تكرارها : « لولا على هلك عمر » .

\*\*\*

ثم لم يفته أن ينتهز هذه الفرصة راغبا إلى الإمام أن يحدثه ومن معه بمحدث دانيال ، فقال كرم الله وجهه :

إن دانيال كان يتيما لا أم ولا أب ، وقد ضمته إليها امرأة من بنى إسرائيل كبيرة السن فربته أحسن تربية . وكان من ملوك بنى إسرائيل ملك له قاضيان وكان لهما القاضيين صديق معروف بالصلاح والتقوى ، وله — مع ذلك — امرأة ذات هيئة وجمال ، فكان يأتى الملك فيحدثه . فاحتاج الملك ذات يوم إلى رجل يعينه فى بعض أموره فقال للقاضيين : أشيرا على برجل ترضيانه أرسله فى بعض أموري ، فأشيرا عليه بصديقهما الصالح التقى زوج المرأة الجميلة . فلما دعا الملك به وجهه إلى ما كان يريد ، فامتل الرجل أمر الملك ، ثم ذهب إلى القاضيين فأوصاهما بامرأته خيرا فأجاباه إلى ما أراده منهما قائلين له : إن امرأتك فى موضع العناية منا ، فسافر وأنت مطمئن إلى حسن رعايتها لها وبذلنا كل ما فى طاعتنا لراحتها

ثم جعل القاضيان يأتیان باب الرجل الصديق يسألان عن زوجته ، قضاء للحق الذى لصديقهما عليهما فى رعاية زوجته والقيام بشئونها والعمل على راحتها وتجنبيها الوحشة بفراق زوجها . ولم يطل الأمر بهما حتى وجد كل منهما فى نفسه طلائع العشق لها وتوازع الرغبة فيها فراودها كل منهما عن نفسها ، فأبت عليهما حفظا لعهد زوجها ورعاية لحقه واعتزازا بشرفها وشرف زوجها فى منصبه الجليل وسمو منزلته فى مجتمع بنى إسرائيل . ولكن جموح الرغبة فى نفس القاضيين حملهما على أن يتهددا المرأة ، قائلين لها : لكن لم تفعل ما نطلبه إليك لنشهدن عليك عند الملك بأنك بغيت وفاحشت ، فلا يجد ندحة عن رجمك بالحجارة حتى تموتى حسبا تقضى بذلك شريعة التوراة . ولكن المرأة مع ذلك لم تستجب لهما فقامت — فى ازدراء لسلوكهما الشائن : افعلما ما أحببنا . فذهب القاضيان إلى الملك فأخبراه ، وشهدا عنده بأن زوجة صاحبهما بغت . قدخل الملك من ذلك أمر عظيم واشتد به الغم وقد كان بها معجبا ، فقال للقاضيين : إن قولكما مقبول ولكن أمهلونا ثلاثة أيام . وأمر بأن ينادى فى البلد بأن قد تقرر قتل فلانة العابدة حسنة السير والسلوك لأنها قد بغت وفاحشت ، وقد شهد عليها القاضيان بذلك .

ولم يصدق الناس ذلك فأدخلوا يتساءلون ، فقال الملك لوزيره : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ فقال له الوزير : ما عندى فى ذلك حيلة . ثم خرج حتى إذا كان اليوم الثالث أبصر الوزير غلمانا عرا يلعبون ومعهم دانيال يلعب والوزير لا يعرفه ، فنادى دانيال رفقاءه قائلا : تعالوا أيها الصبيان حتى أكون أنا الملك ، وتكون أنت يا فلان المرأة العابدة ، ويكون فلان وفلان القاضيين اللذين شهدا عليها بالفاحشة . ثم جمع دانيال ترابا وجعل سيفا من قصب وقال للصبيان : خذوا يدي هذا فأبعدوه إلى مكان كنا ومكان كنا ، ثم خذوا يدي هذا فأبعدوه إلى مكان كنا وكنا . ففعلوا ما أراد .

ثم دعا دانيال بأحدهما فقال له : قل حقا فإنك إن لم تقل حقا قتلتك . وقد كان الوزير قائما يسمع وينظر فقال الصبي : أشهد أنها بغت . فسأله دانيال : متى ؟ قال يوم كنا وكنا . قال : ردوه إلى مكانه وهاتوا الآخر . فردوه وجاءوا بالآخر فقال له : بم تشهد ؟ قال : أشهد أنها بغت . قال : متى ؟ قال : يوم كنا وكنا . فسأل دانيال : مع من ؟ قال : مع فلان بن فلان . قال : وأين ؟ قال : في موضع كنا . فخالف صاحبه ، فقال دانيال : يا فلان ناد في الناس أن الشاهدين إنما شهدا على فلانة بالزور ، فاحضروا قتلها . فذهب الوزير إلى الملك مبادرا فأخبره الخبر ، فبعث الملك إلى القاضيين فسألهما فاختلفا كما اختلف الغلامان . فنادى الملك وأمر بصلبهما .

\* \* \*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يسنده أهل العلم إلى الإمام الباقر حيث قال : دخل أمير المؤمنين المسجد فاستقبله شاب يركب وحوله جماعة يسكنونه . فسأله : ما أبكاك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن شريحا القاضي قضى قضاء لا أرى وجهه . فسأله الإمام عن القضية فقال : إن هؤلاء نفر خرجوا وأنى معهم في سفر ثم رجعوا ولم يرجع أنى ، فسألهم عنه فقالوا : لقد مات أبوك . فسألهم عن ماله فقالوا : ما ترك مالا . فقدمهم إلى شريح فاستحلفهم . وقد علمت يا أمير المؤمنين أن أنى خرج ومعه مال كثير . فأمرهم أمير المؤمنين أن يرجعوا إلى شريح فرجعوا إليه والفتى معه ، فقال له أمير المؤمنين : كيف قضيت يا شريح بين هؤلاء ؟ قال : لقد ادعى هذا الفتى على هؤلاء نفر أنهم خرجوا في سفر وأبوه معهم فرجعوا ولم يرجع أبوه ، فسألهم عنه فقالوا : إنه مات . فسألهم عن ماله فقالوا : ما خلف مالا . فقلت للفتى : هل لك بينة على ما تدعى ؟ قال : لا بينة عندي . فاستحلفهم يا أمير المؤمنين . فقال أمير المؤمنين : هيهات يا شريح ، ما هكذا تحكم في

مثل هذا . قال شريح : فكيف أحكم يا أمير المؤمنين ؟ فقال كرم الله وجهه :  
والله لأحكمن فهم بحكم داوود النسي عليه السلام .

ثم دعا كرم الله وجهه قمبراً مولاه قائلاً : ادع لي بشرطة الخميس —  
الشرطة العسكرية — . فلما حضروا وكل بكل رجل منهم رجلاً من الشرطة  
ثم نظروا إلى وجوههم فقال : ماذا تقولون ؟ هل تقولون إنى لا أعلم ما صنعتم  
بوالد هذا الفتى ، إنى — إذا — لجناهل . ثم قال للشرطة : فزفهم وغطوا  
رعوسهم . فزفوا بينهم ، وأقيم كل رجل منهم إلى جانب أسطوانة من أساطين  
المسجد ورعوسهم مغطاه بشياهم . ثم دعا كاتبه فقال : هات صحيفة ودواة .  
ثم جلس الإمام في مجلس القضاء وجلس الناس إليه ، فقال لهم : إذا أنا كبرت  
فكبروا . ثم قال للناس : اخرجوا . ثم دعا بواحد من المتهمين فأجلسه بين  
يديه وكشف عن وجهه ، ثم قال لكاتبه : اكتب إقراره وما يقول . ثم أقبل  
عليه بالسؤال فقال له : في أى يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم ؟  
قال الرجل : في يوم كذا وكذا . فسأله الإمام : وفي أى شهر ؟ قال : في شهر  
كذا وكذا . قال الإمام : وإلى أى مكان بلغت في سفركم حتى مات أبو هذا  
الفتى ؟ قال : بلغنا موضع كذا وكذا . قال : وفي منزل من مات هذا  
الرجل ؟ قال : في منزل فلان ابن فلان . قال الإمام : ماذا كان مرضه وكَم  
يوماً مرض ؟ قال : كذا وكذا . ثم ما زال الإمام يسأله : من غسله ؟ من  
كفنه ؟ بماذا كفتموه ؟ من صلى عليه ثم من نزل في قبره ؟ . فلما سأله الإمام عن  
جميع ما يريد كبر كرم الله وجهه فكبر الناس جميعاً . فارتب الباقون ولم  
يشكوا في أن صاحبهم أقر عليهم وعلى نفسه . وأمر الإمام أن يغطى رأسه  
وينطلق به إلى السجن . ثم دعا بأخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه ثم  
قال : زعمتم أنى لا أعلم ما صنعتم . فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا إلا واحد  
من القوم ، ونقد كنت كارها لقتله .

وما زال الإمام يدعو واحداً بعد واحد حتى أقرّوا بالقتل وأخذ المال . ثم أمر برد الذى حبس فأقرّ أيضاً ، فألزمهم الإمام المال والدم .

\* \* \*

وهنا قال شريح القاضى : يا أمير المؤمنين كيف حكم نبي الله داوود ؟ فقال الإمام : إن داوود مر بغلمان يلعبون وينادى بعضهم بعضاً بكلمة « يامات الدين » فيجيب المنادى . فدعاهم داوود فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : اسمى « مات الدين » . فقال له داوود : من سمائك بهذا الاسم ؟ قال سمّاني أبى . فانطلق داوود إلى أمه فقال لها : أيتها المرأة ما اسم ابنك هنا ؟ قالت : مات الدين . قال لها : ومن سمّاه بهذا ؟ قالت : أبوه هو الذى سمّاه . فسأل داود : وكيف كان ذلك ؟ قالت المرأة : إن أباه خرج فى سفر له ومعه قوم وقد كان هذا الصبى حملاً فى بطنى ، فانصرف القوم ولم ينصرف زوجى ، فسألتهم عنه فقالوا مات . فقلت لهم : فأين ما ترك ؟ . قالوا : لم يخلف شيئاً . فقلت : هل أوصاكم بوصية ؟ قالوا : نعم أوصانا فزعم أنك حبل ، فإذا ولدت جارية أو غلاماً فسميه « مات الدين » . فأمضيت وصيته كما قال . قال داود : هل تعرفين القوم الذين كانوا قد خرجوا مع زوجك ؟ قالت : نعم . فسألها : هل هم أحياء قالت المرأة : نعم . فأمرها داود أن تتطلق معه إليهم . ثم مضى معها فاستخرجهم من منازلهم فحكم بينهم بهذا الحكم بعينه ، وأثبت عليهم المال والدم ، قاتلاً للمرأة : اجعل اسم ولدك « عاش الدين » .

\* \* \*

ومن أفضيته كرم الله وجهه قضاء يأترونه عن الأصمعي قال : أخذ علي  
قوما بسرقة فحبسهم ، فجاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني كنت معهم وقد  
تبت . فأمر بحله . وقال متمثلاً بشعر يقول فيه الشاعر :  
ويدخل رأسه لم يدعسه أحد

بين القرينين<sup>(١)</sup> حتى لژه<sup>(٢)</sup> القرن<sup>(٣)</sup>

يقول الإمام كرم الله وجهه : إن هذا الذي جاء يزعم أنه كان مع اللصوص  
وأنه قد تاب قد وضع نفسه في مأزق لم يضعه أحد فيه ، ولكنه وضع نفسه .  
ولعله كرم الله وجهه كان يتمثل قول الشاعر العري يصف ضعيفا وضع  
يبدقوين ، فهو يحتمل من البلاء الذي لا يحتمله مثله في ضعفه وإن كان يحتمله  
القوى في قوته ، فذلك حيث قال الشاعر الأول :  
وابسن اللبسون إذا ما لز في قرن

لم يستطع صولة البزل القناعيس

فابن اللون هو ولد الناقة : إذا كان في العام الثاني ، فإن كان في العام التاسع  
فهو البازل وجمعه بزل على مثال قفل . والقناعيس الإبل حين تقوى وتشتد ،  
وربما أرادوا بها الرجال الأقوياء في الحلقة ، فإذا جمعت بين أباء اللون وبين  
الإبل في أسنانها المتقدمة وقوتها الكاملة فإنها إذا صالت لم تحتمل الصغار  
صولتها . وكذلك الصغار من الناس لا يستطيعون أن يحتملوا من شدائد  
الحياة ما يحتمل الكبار من أهل العزائم وأصحاب العقائد . وراجع لسان  
العرب في مادة قعس .

(١) القرينان : هما البعيران يجمعهما حبل واحد .

(٢) لژه : تقول العرب لز الرجل شيئا بشيء ، تعني أنه جمعه به في حبل .

(٣) القرن : هو حبل يجمع به بين البعيرين كما في القاموس .



وقد يقول القائل : إن من غير المعقول أن يقيم الإمام الحد على رجل أعلن التوبة .

ولمثل هذا القائل يقال : إن التوبة الصادقة تقوم على أركان ثلاثة : الندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة إلى ما كان ، ورد آثار الجريمة . فعمل هذا الرجل الذي أعلن التوبة لم يرد ما استولى عليه من مال المسروق . والتوبة الكاذبة لا تمنع من إقامة الحد ما لم تقترن بما يصدقها من التصرفات .

\* \* \*

ومن فقهاء ما أجاب به الأشعث بن قيس وقد سأله : كيف تؤخذ الجزية من المجوس وهم ليسوا أهل كتاب ولم يبعث إليهم رسول ؟ .  
فأجابه كرم الله وجهه قائلا : بلى يا أشعث ، لقد أنزل الله عليهم كتابا وبعث إليهم رسولا ، حتى ولى أمرهم ملك سكر ذات ليلة فدعى بابنته إلى فراشه ، فلما أصبح تسامع به قومه وأنكروا عليه ما صنع . ثم اجتمعوا إلى بابه يقولون له : أيها الملك ، لقد دنست علينا ديننا وأهلكته ، فخرج إلينا نظهرك ونقيم الحد عليك . فقال لهم : اجتمعوا واستمعوا ، فإن لم يكن لى مخرج مما ارتكبت فشانكم وما ترملون .

فلما اجتمعوا كما أمرهم قال لهم : هل علمتم أن الله تعالى لم يخلق خلقا أكرم عليه من أيننا آدم وأما حواء ؟ قالوا : صدقت . قال : أفليس قد زوج بينه من بناته وبناته من بنيه ؟ قالوا : بلى لقد فعل وقد صدقت ، فهذا هو الدين . ثم تعاقدوا على ذلك فمحا الله ما في صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب ، فهم الكفرة يدخلون النار بغير حساب . قال الأشعث : والله ما سمعت بمثل هذا الجواب . والله لا أعود إلى ذلك أبدا .

وربما أبعد ما ذكره الإمام كرم الله وجهه حديث ذكره في تيسير الوصول وقد أخرجه مالك في موطنه عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ذكر المجوس فقال : ما أدرى ما أصنع في أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : أشهد لقد سمعته من رسول الله ﷺ : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وكذلك أخرج مالك عن ابن شهاب قال : لقد أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس البحرين ، وأخذها عمر رضى الله عنه من مجوس فارس ، وأخذها عثمان رضى الله عنه من البربر .

فقضاء الإمام الذى أخبر به الأشعث بن قيس ، قضاء جمع الله تعالى له فيه بين الفقه فى الشريعة وبين العلم بالتاريخ .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يرويه الثقة من أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ، فماتت المرأة قبل أن يدخل بها : أيسوغ له أن يتزوج بأمرها ؟ وقد أجابه كرم الله وجهه بما رضى فقهاء الإسلام واتخذوه قاعدة لهم فى فقههم : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

\*\*\*

ومن أقضيته كرم الله وجهه ما يسنده الثقات إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه من قوله : إن سائلا سأل أمير المؤمنين عن حمل<sup>(١)</sup> غذى بلبين خنزيرة ، فأجاب كرم الله وجهه بقوله : إن كان لا يزال يتغذى باللبين فألقوه على ضرع شاة سبعة أيام ، وإن كان قد استغنى عن اللبن فقلوه واعلفوه الكسب والخنزير .

\*\*\*

ومن فقهه كرم الله وجهه ما يرويه الثقات عن الثورى عن السدى قال : كنت عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ أقبل كعب بن

(١) الحمل : على وزن قلم ، هو الحروف الصغرى .

الأشرف ومالك بن حنبل ويحيى بن أخطب فقالوا : إنكم تفرعون في كتابكم عن جنة عرضها السموات والأرض ، فإذا كانت سعة جنة واحدة كسبح سموات وسبع أراضين ، فأين تكون الجنان كلها يوم القيامة ؟ . فقال أمير المؤمنين عمر : أما أنا فلا أعلم . فبينما هم في ذلك إذ دخل الإمام كرم الله وجهه فقال : في أى شيء أنتم ؟ فالتفت اليهود إليه وذكروا المسألة . فقال لهم كرم الله وجهه : خيروني أنتم عن النهار إذا أقبل الليل أين يكون ، وعن الليل إذا أقبل النهار أين يكون ؟ .

قالوا : في علم الله يكون ، فقال على كرم الله وجهه : كذلك الجنات في علم الله تكون .  
\* \* \*

ومن فقهه كرم الله وجهه ما أجاب به ابن عزيمة الشيباني فيما كان يذكر عن أبيه عن جده ، فقال : جاء رجل إلى أمير المؤمنين على فقال : أخبرني عن القدر . فقال الإمام : سر الله فلا تتكلف علمه . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر . فأجابه كرم الله وجهه بقوله : بحر عميق فلا تلق بنفسك فيه . فراح يسأله أيضا : أخبرني يا أمير المؤمنين عن القدر . فقال له : طريق مظلم فتجنب السير فيه . ومضى الرجل يسأل لا يكاد يكف عن السؤال . فقال له كرم الله وجهه : أما إذ أبيت فإني سألتك : أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد ، أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله ؟ فقال الرجل يجيبا عن السؤال : كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد . فقال كرم الله وجهه لمن حوله : قوموا فسلموا على أخيكم فقد أسلم . وقد كان من قبل غير مسلم .  
\* \* \*

ومن فقهه كرم الله وجهه ما يرويه الثقات عن شرح بن هانئ ، من أن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين فقال : أتقول إن الله واحد ؟ فحمل

الناس عليه قائلين : يا أعرأى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من توزع القلب وتشتت الفكر ؟ فقال لهم كرم الله وجهه : دعوه فإن الذى يريده الأعرأى هو الذى نريده من الناس . ثم قال متوجها بالحديث إلى الناس جميعا فى شخص الأعرأى السائل : إن القول فى أن الله واحد يجرى على أربعة أوجه : وجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل ، ووجهان يجوزان فيه ويثبتان له :

فأما الوجهان اللذان لا يجوزان عليه سبحانه فقول القائل : إن الله واحد . وهو يقصد بذلك باب الأعداد فهنا لا يجوز ، لأن ما لا ثان له لا يدخل فى باب الأعداد . أفلا ترى أنه قد كفر من قال إنه تعالى ثالث ثلاثة .

وأما الوجهان اللذان يجوزان عليه ويثبتان له فقول القائل : إنه الواحد الذى ليس له فى الأشياء شبيه ولا نظير ، وكذلك ربنا جل ثناؤه وتقدست أسماؤه . وإذا كان لقائل أن يقول فى هذا الباب شىء يتضح به المقام ، فإن لنا أن نقول : لعل الإمام كرم الله وجهه قد استحضر فى تصويره الشريف وأجرى على خاطره المبارك قول الله جل ثناؤه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ ۝ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

ففى هذه السورة الشريفة كلمة أحد تستبدل فى فصيح الكلام بكلمة واحد ، فإن الواحد غير الأحد ، إذ كان الواحد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، فأما الأحد فإنه لا يكون إلا مفردا بغير تكرار .

وقد جعل رسول الله ﷺ هذه السورة التى وصفت الخالق بصفة الأحدية تعدل ثلث القرآن . وليس ينبغى لك أن تغفل أو تذهل عن المراد بكونها تعدل ثلث القرآن فتظن أن تلك المعادلة ترجع إلى ثواب التلاوة ، على حين أنها ترجع إلى معنى أدق وأحل ، وهو أن القرآن الكريم يشتمل على أمور ثلاثة هى :

العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . وقد انتظمت سورة الإخلاص العقائد التي تليق بالله وتثبت له ، والتي لا تليق به فتفى عنه . وبملاحظة هذا يتضح المعنى المراد في الحديث النبوي الشريف بكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، والله ولي التوفيق .

\* \* \*

ومن أفضيته كرم الله وجهه ما روى عن سفيان بن حيينة قال : كان لرجل امرأتان امرأة من الأنصار وامرأة من بنى هاشم ، فطلق الرجل امرأته بعد مدة . فذكرت الأنصارية المطلقة أنها في عدتها وأقامت البيعة عند أمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وجعلت تسأل ميراثها من زوجها الذي مات . ولم يمر عثمان ما يحكم به ، فرد الأمر إلى علي فقضى كرم الله وجهه بأن تحلف المرأة أنها لم تحض بعد أن طلقها ثلاث حيضات ثم ترثه . فلما ذكر ذلك أمر المؤمنين عثمان قضاء على الهاشمية رضيته وقالت : إن حلفت الأنصارية كما قضى على عثمان ورثت .

غير أن المرأة الأنصارية تخرجت من الجين فلم تحلف وتركت الميراث . يقول الثقات من أهل العلم وأهل السير : وأغلب الظن أن المراد بالهاشمية في هذا الخبر السيدة أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وهي التي يعرفها الناس بأروى الصغرى .

ولعلك تتطلع إلى معرفة الرجل الذي تزوج هاشمية وأنصارية فجمع بين زوجتين ترى إحداهما أنها في منزلة السيدة للأخرى إدلالاً بنسبها في بنى هاشم ، فذلكم الرجل هو ، حبان بن منقذ بن عمرو الأنصاري المازني الصحافي الذي مات في خلافة عثمان ، كما ذكر ذلك ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

\* \* \*

ومن فقهه كرم الله وجهه ما يرويه الرواة عن سلمان الفارسي يذكر فيه قدوم الجاثليق المدينة مع مائة من الصاري بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فلما توجه الجاثليق إلى الإمام كرم الله وجهه سأل : ألا أخبرتني عن وجهه تعالى ؟ .

فدعا الإمام بنار وحطب ، فلما اشتعل الحطب بالنار سأل الإمام الجاثليق : أين وجه هذه النار ؟ فقال هي وجه من جميع حدودها . فقال الإمام كرم الله وجهه : هذه النار مدبرة مصنوعة لا يعرف وجهها . وخالقها لا يشبهها ، فكَذَلِكَ يَقُولُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ : ﴿ وَنَلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَبْهَمَا فُتُوءًا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (١) .

\* \* \*

ومن أفضيته — كرم الله وجهه — ما يسنده الرواة إلى الإمام جعفر الصادق قال : اشتكى رجل إلى أمير المؤمنين بطنه فقال له : سل امرأتك درهما من صديقها فاشتر به عسلاً ثم اشربه بماء السماء ، فإن الله يشفيك إن شاء الله . ففعل الرجل ما أمره به على كرم الله وجهه فبرىء وزالت عنه شكواه . ولم يكن لجلسائه يد من أن يسألوه عن سر هذه الفتوى كما عودهم ذلك وحرصهم عليه ثم رضيه منهم . فقام إليه أحدهم فقال : ما سر ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أهو سر سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فأجابه — كرم الله وجهه — قائلاً : لا لم أسمع من رسول الله ﷺ ، ولكنني سمعت الله تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ يَحْذَرْنَ أَنْ يُكَلِّمَنَّ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ نَفْسًا فَكَلُوهُ هَرِيقًا مَرِيئًا ﴾ (٢) وكذلك قول الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ (٣) . ففى الآية الأولى اجتمع المنىء

والمرىء، فيما سمحت به الزوجة من مهرها ثمنها لما يأكله من اشتكى بطنه . وفي الآية الثانية وصف الماء النازل من السماء بأنه مبارك ثنياً بذلك المعنى الذى رآه الإمام شفاء لمن اشتكى بطنه ، إذ كان قد أمره أن يتناول عسلاً ممزوجاً بماء السماء ، على أن يكون ثمن العسل مسموحاً به من مهر الزوجة ، وهو بلا ريب استنباط صحيح لا يسموإليه ولا يظفر به إلا مثل الإمام كرم الله وجهه في شدة تدبره لكتاب الله ، مع شدة حرصه على أن يستخرج من شرف نظمه الحكم والأحكام ، فرضى الله عنه وأرضاه .

\*\*\*

ومن أفضيته كرم الله وجهه ما يرويه أهل العلم عن الإمام جعفر الصادق ، فقد سئل جعفر رضى الله عنه : لم باع أمير المؤمنين على أمهات الأولاد ؟ فأجاب الصادق : إنما باعهن في فكك رقابهن . فسأله السائل : وكيف ذلك ؟ فقال : إنما رجل اشترى جارية فأولدها لم يؤد ثمنها ولم يدع من المال ما يؤدى عنها ، فإنها تباع ويؤدى ثمنها لبايعها . ولعل سائلاً أن يقول : إن الولد يمنح أمه الحرية بعد أن يولد ، فكيف يسوغ بيعها وقد أصبحت حرة أم ولد ، وبيع الخرائر لا يجوز ؟ ومبلغ ما يمكن أن يقال جواباً عن هذا السؤال : إن ما هنا أمرين ، كلاهما له عند أهل الإسلام حرمة :

أحدهما : قضاء الدين احتراماً للملكية .

وثانيهما : احترام الحرية التى منحها المولود لأمه .

وتغليب أحد الأمرين على الآخر غير ميسور ، لأن الخطأ فيه تقويت لحق معترف به في فقه الإسلام . ومعظم الظن أن فقهاء الأمة استبدت بهم الحرية حول هذه القضية استبداداً جعلهم يلجئون إلى الحيلة التى تخرجهم من ظلمات الحرية إلى نور اليقين ، فراحوا يذكرون حيلة ظنوها مخرجاً من هذا المخرج الشديد وما هى بمخرج منه ولكنها موقعة في سخط الله رب العالمين .

وحملة القول في هذه الحيلة ما نرويه لك عن شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين» ، فذلك حيث قال رحمه الله :

ومن الحيل الباطلة لتجويز بيع أم الولد أن يملكها الرجل لولده الصغير ثم يتزوجها هو ، فإذا ولدت ولدت فإن أولادها يصبحون إخوة لملكها ، وليس يسوغ للمسلم أن يملك أخاه ، ولذلك يصبحون أحراراً بمجرد الولادة ، شاء مالك الأمة أم أفي . ولعلك سائل بعد ذلك عن حكمة التشريع في هذه القضية . فاعلم — أعزك الله — أن الشارع الحكيم متشوف دائماً إلى الحرية طامح إليها ، والدليل على ذلك يتمثل في عدة أمور لا ندحة عن التعرض لها ببعض التفصيل عن إجمال ، والتوضيح عن إنباهم :

أولها : أن الإسلام حرم الرق حميماً ولم يبيح منه إلا ما هو مباح إلى الآن . وفحوى ذلك أنه صنع خيراً ما يطلب منه أن يصنع ، وأن الأمم الإنسانية لم تأت بمجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدم به الإسلام قبل أربعة قرناً من الزمان . فالذي أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم في أمة الحضارة التي تعاهدت على منع الرق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن .

وثانيهما : أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق ، ثم أضاف إلى شريعته في الرق نوافل وشروطاً تدنو بالمجتمع الإسلامي إلى غاية الكمال ، فإذا كانت الشرائع الدولية لم تكلف الدولة فكذلك رعاياها من الأسر فقد سبق الإسلام إلى فرض هذا الواجب على الدولة المسلمة ، فجعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب وعتق العبيد كما ترى ذلك في الآية الشريفة من سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنِّي السَّبِيلَ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠



فكلمة الرقاب في هذه الآية تعنى عتق العبيد ، وقد جعل الإسلام عتق العبيد — بحكم هذه الآية — مصرفاً من مصارف الزكاة التى هى أخت الصلاة في بناء الإسلام .

وإذ قد كان ارتباط الأسرى أمراً لا بد منه في الحروب الحديثة ، فالإسلام لم يجعله حتماً مقضياً في جميع الحروب بل حرص على التخفيف من شدته كلما تسرت إلى التخفيف سبيل . وقد جعل سبحانه المن في تسريع الأسرى أفضل الحظتين اللتين انتظمتما الآية الشريفة من سورة القتال ، حيث قال تعالى في سورة محمد: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ . فَإِذَا كُفِرْتُمْ بِالَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَحْتَمُوهُمْ فَأَنْزِلُوا إِلَيْهِمْ فَإِذَا كُفِرْتُمْ بِالَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبُ الرِّقَابِ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۖ (١) . الآية .

فقد وكل القرآن العظيم إلى ولي الأمر النظر في الأسرى ، يعمل فيهم بما يراه مصلحة للأمة بعد مشاورة أهل الحل والعقد . فإذا اقتضت مصلحة الأمة أن يأخذ منهم فداء أمر يأخذ الفداء ، وإذا اقتضت مصلحة الأمة أن يعفو عن أسرى الأعداء مقابل عفوهم عن أسرى المسلمين فذلك حق لا يأباه الإسلام ، على أن المن أفضل الطريقتين .

وأنت إذا رجعت إلى غزوة بدر فلنك سوف ترى صورة رائعة من قضاء رسول الله ﷺ في الأسرى ، فقد تفضل بالمن على من رآه أهلاً لذلك ، ثم

أخذ الفداء ممن يملك مالا ، ثم جعل فداء الأسير أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة .

والأمر الثالث : أن الإسلام جعل من أقرب القربات إلى الله عتق العبد ، كما جعل عتقهم تكفيرا عن السيئات . فالذى يظهر من أمراته لا يعود إليها إلا إذا أعتق رقبة ، والذى يحنث في يمينه يعتق رقبة ، والذى يفطر عامدا في رمضان يعتق رقبة ، والذى يضرب عبده ضربا مبرحا يعتق رقبة ، والرجل الذى يتزوج أمة يحتقها إذا ولدت لأنها أصبحت أم ولد ، فلا يجوز بيعها ولا شراؤها .

وليس يخفى عليك بعد إلمامك بموقف الإسلام من تحرير الرقيق ، أن بيع أمهات الأولاد منقضى للشرعة ، وأن التحايل على تجويزه تحايل باطل . والإمام كرم الله وجهه أجل قلرا وأشرف منزلة وأعظم فقها بالإسلام من أن يسوغ للمسلم بيع أم ولده ، لأن بيعها لا يعدو أن يكون عودة بها إلى رق جديد لعله أقسى من الرق الذى أنقذها منه الإسلام . ولهذا لا نجد ندحة عن القول بأن هذا القضاء إنما هو افتراء على الإمام كرم الله وجهه ، وما أكثر ما اضرى عليه المبغضون له والغالون فيه .

ومما يؤيد القول بأن بيع أم الولد افتراء على الإمام ، إبطال الفقهاء الحيلة التى يرى قصار النظر أنها تحيز بيع أمهات الأولاد .

وإذ قد أفضى بنا القول إلى باب الاحتيال في شرائع الله ، فإننا نتنبه هذه الساعة لنروى لك — حفظك الله — ما يقوله الثقات من أهل العلم في هذا الباب ، إنكارا للاحتيال على كل ما يتصل بقضية من قضايا الشريعة الإسلامية ، فذلك حيث يقول الثقات من أهل العلم رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين :

إن أكثر الخيل التي يذكرها القائلون بها لا تسامر أصول الأئمة بل تناقضها أعظم مناقضة ، ومن الخطأ أعظم الخطأ التدليل بقول الله تعالى في قصة أيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ ﴾ (١) فقد أذن الله تعالى لنيه أيوب أن يتحلل من يمينه بأن يضرب زوجته بحزمة من الرمحان وفاء بيمينه التي كان قد عزم بها على أن يضرب زوجته . ذلك أن شريعة أيوب لم يكن فيها التكفر عن الحنث في اليمين كما هو الأمر في الشريعة المحمدية المسماح ، وإنما كان في تلك الشريعة أن من حلف على شيء فلا بد أن يفعله ، وافرقت واضح بين إباحت الحنث والتكفر عنه ، وبين فعل المحلوف عليه مهما تكن المشقة فيه .

فقصة أيوب لا تسوغ الحيلة ولا تناقض حكما شرعيا كما تناقض الحيلة في بيع أم الولد حكما شرعيا ، وهو حرص الشارع على تحرير العبد .

\*\*\*

ومن أقضية — كرم الله وجهه — قضاؤه في المرأة التي أنكرت ولدها قاتلة : إنه ليس ولي . فذلك حيث يقول الثقة الذي روى هذه القصة : سمعت غلاما بالمدينة يقول : يا أحكم الحاكمين احكم بيني وبين أمي . فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لماذا تشكو أمك يا غلام على هذه الصورة ؟ قال الغلام : يا أمير المؤمنين إنها حملتني في بطنها تسعة أشهر ثم أوضحتني حولين كاملين ، فلما كبرت وعرفت الخير من الشر طردتني وزعمت أنها لا تعرفني . فاستدعى المرأة أمير المؤمنين عمر ثم سأها عما يقول الغلام . فقالت : يا أمير المؤمنين والذي احتجب بالنور فلا عين تراه ، إنني لا أعرف هذا الغلام ولا أدري من أي الناس هو ، وهو يريد أن يفضحنى في غشيق وأنا لا أزال بكرا لم أتزوج . فسأها عمر : هل لك شهود على ما تقولين ؟ فأجابت : نعم ، هؤلاء إخوتي . فاستدعاهم عمر فشهدوا عنده

بأن الغلام كذاب وأنه يريد أن يقضح أختهم في عشرينها وأنها جلرية لم تتزوج . فقال عمر : انطلقوا بهذا الغلام إلى السجن حتى نسأل . فأخذوا الغلام إلى السجن ، وفيما هم في الطريق إلى السجن تلقاهم الإمام كرم الله وجهه فناداه الغلام : يا بن عم رسول الله ، إني غلام مظلوم . ثم قص عليه ما كان قد قصه على عمر ، فقال على كرم الله وجهه : رددوه إلى أمير المؤمنين عمر . فلما رددوه إليه قال لهم عمر : لقد أمرت به إلى السجن فلماذا رددتموه إلى ؟ فأجابوه : لقد سمعناك تقول لا تعصوا لعل أمرا ، وقد أمرنا على أن نرده إليك والآن نذهب به إلى السجن . ثم جاء على كرم الله وجهه فقال : لأقضين اليوم بقضاء يرضى رب العالمين . ثم أخذ يسأل المرأة : ألك شهود ؟ قالت : نعم . ثم تقدم الشهود فشهدوا بأن المرأة ليست أما للغلام وإنما هو يريد أن يقضحها في عشرينها .. فقال الإمام على كرم الله وجهه : أشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين أني قد زوجت هذا الغلام من هذه الجلرية بأربع مائة درهم ، أدفعها من مالي الخاص . ثم نادى قميلا مولاه أن يحضر الدراهم فأتاه بها ، فصبها في يد الغلام قتلا له : صب هذا المال في حجر امرأتك ولا أراك بعد ذلك إلا وبك أثر العرس . فقام الغلام فصب الدراهم في حجر المرأة فقال لها : قومي معي إلى بيت الزوجية . فصاحت المرأة : النار النار يا بن عم رسول الله ، أتريد أن تزوجني من ولدي ؟ هذا والله ولدي ، وقد زوجني أخي هجينا فولدت منه هذا الغلام ، فلما كبر أمروني أن أنتفي منه وأطرده مع أنه ولدي ، وفؤادي يحرق أسفا على ولدي . ثم أخذت بيد الغلام فانتطلقت به . فنادى عمر بأعلى صوته : واعمره ! لولا على هلك عمر .

فتى هذه القصة يقضى الإمام على قضاء أيده فيه رعاية الله ، فرد الولد إلى أمه لأنه ولدها وهي أمه ، ولكن العصية العرية ضد الأعاجم هي التي صنعت هذا البلاء في القصة الأجمية .

ولكى يتضح لك الموضوع على ما ينبغي أن يتضح ، اعلم — رحمك الله — أن العرب كان الولد عندهم إما أن يكون صريحا ، وإما أن يكون هجينا ، وإما أن يكون مقرفا :

فإن جاء الولد من أب عري وأم عربية فهو الصريح ، وإن جاء الولد من أب عري وأم أعجمية فهو الهجين المحتقر عند العرب ، وإن جاء الولد من أم عربية وأب أعجمي فهو المقرف وهو العار الذى لا عار بعده .  
فهذه الجارية كانت قد تزوجت من شاب أبوه عري وأمه أعجمية فهو هجين محتقر ، ولذلك أمرها قومها بعد أن ولدت من هذا الهجين أن تتبرأ من ولدها فتبرأت منه .

فماذا يصنع الولد إلا أن يلجأ إلى أمير المؤمنين على ليرده إلى أمه ، ولكنه لم يردده إليها كأم بل رده إليها كزوج لزوجته حتى يتبين حقيقة الأمر . فلما شعرت المرأة أنها تغضب الله وأن مصيرها إلى النار إذا قبلت هذا الزواج ، رفضت الولد زوجها لها واعترفت بأنها أمه ، وأخذت الدراهم من على توسع بها على نفسها . وهو قضاء كريم رفع من المجتمع الإسلامى منكرا وقرر حقا وجمع شمل أم بولدها . ومثل الإمام كرم الله وجهه يكون وسيلة إلى الخير :  
خير الدنيا وخير الآخرة جميعا ، والله ولى التوفيق .

\*\*\*

ومن فقهه — كرم الله وجهه — ما يروى عن سعيد بن المسيب عن حذيفة بن اليمان قال : لقي عمر بن الخطاب رضى الله عنه حذيفة رضى الله عنه فقال له عمر : كيف أصبحت يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : كيف تريدنى أصبح ؟ أصبحت أكره الحق ، وأحب الفتنة ، وأشهد بما لم أره ، وأصلى على غير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .. فغضب عمر غضبا شديدا حتى كأنما فقى فى وجهه حب الرمان ، ثم انصرف فمر بالإمام على كرم الله

وجهه فقال له : ما أغضبك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : لقيت حذيفة بن اليمان فسألته كيف أصبح ؟ فقال : أصبحت أكره الحق . فقال علي : صدق حذيفة ، أصبح يكره الموت والموت حق . فقال عمر : وقال حذيفة : إنه يحب الفتنة . فقال الإمام : صدق ، يحب المال والولد ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَتُوا لَكُمْ فِتْنَةً ﴾ <sup>(١)</sup> . فقال عمر . وقال حذيفة : أشهد بما لم أره . فقال الإمام : صدق ، يشهد بالوحدانية والموت والبعث والقيامة واللجنة والنار والصراط ، وهو لم يرد ذلك كله . وقال عمر : قال حذيفة : إنه يصلي على غير وضوء . فقال الإمام : صدق حذيفة ، إنه يصلي على رسول الله ﷺ . فقال عمر : يا أبا الحسن إن حذيفة قال أكبر من ذلك ، إن له في الأرض ما ليس لله في السماء . قال الإمام : صدق حذيفة ، لأن له في الأرض زوجة وله ولد ، وتعالى الله عن الروجة والولد . فقال عمر : كاد يهلك ابن أم عمر ، ولولا علي لهلك عمر .

\*\*\*

وأنت إذا تأملت في هذه التماذج من أقضية الإمام كرم الله وجهه ، فإنك لا ترى بدا من القول بأن عليا قد جمع الله له من الفقه في الدين والبصر بروح الشريعة ما لم يجمعه لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ويزكي لك هذا القول ما يذكره مسروق بن الأجدع التابعي الجليل ، من أن أصحاب رسول الله ﷺ أشبه شيء بالأخذات .

فالأخذة تكفي الراكب ، والأخذة تكفي الراكبين ، والأخذة لو نزل بها أهل الأرض لأصدرتهم .

وقد زاد مسروق رضي الله عنه هذا المعنى وضوحا فقال : لقد شامت

أصحاب رسول الله ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة ، هم : عمر ، وعلى ،  
وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت . ثم  
شامت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى علي بن أبي طالب وعبد الله بن  
مسعود — يعنى مسروق فى مبلغ ما نعلم أن ابن مسعود مرجع فى علوم القرآن .  
وليس يغيب عنك ما قاله ابن الأثير من أن الأخاذات هى الغدران التى  
تأخذ ماء السماء فتحبسها على الشربة .

---

## على وزير صدق لرسول الله

خير ما يفتح به حديث هذا الفصل من الكتاب ، حديث نبوى شريف أخرجه أبو داود والنسائي عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( إذا أراد الله بالأمر خيرا جعل له وزير صدق .. إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه ) .

فقد تضمن هذا الحديث توجيها نبويا شريفا في سياسة الأمم لمن أحب أن يرضى الله عنه ورسوله والمؤمنون وليس يرتاب مسلم في أن رسول الله ﷺ قد اختاره الله من أشرف أمة هي الأمة العربية ، ثم من أشرف قبيلة في هذه الأمة هي قبيلة قريش ، ثم من أشرف بيت في هذه القبيلة هو بيت بنى هاشم . فهو — صلوات الله عليه — محوط بالشرف من جميع جهاته ، ثم هو بعد معصوم — بعصمة الله إياه — من أن يميل مع الهوى ، أو يتجهم سبيل الحق بحيث يحتاج إلى من يعينه على خير أو يصرفه عن شر . غير أنه مع ذلك بشر يجوز عليه أن ينسى كما ينسى البشر فيحتاج إلى من يذكره عن نسيان ، كما في الحديث الذي أخرجه جامع الأصول عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ — فزاد أو نقص ، فقليل : « يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء ؟ » فقال : ( وما ذاك ) ؟ قالوا : « صليت كذا وكذا » . فتنى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدين ثم سلم ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : ( إنه لو حدث في الصلاة شيء لأنبأتكم به ، ولكنى بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني ) .



وكا يجوز عليه أن ينسى فيحتاج إلى من يذكره ، يجوز أن يعزب عن علمه — صلوات الله وسلامه عليه — بعض القضايا التي يحتاج معها إلى بصير بشئون الاجتماع البشرى ، يذكره بما يستوجب قضاء ينتفع به الإسلام والمسلمون .

وقد كان الإمام على كرم الله وجهه هو ذلك البصير بشئون الاجتماع ، وكان — مع ذلك — أقدر الناس أو من أقدرهم على معرفة اتجاهات رسول الله ﷺ في مختلف شئون الحياة . وقصة سفانة بنت حاتم الطائي آية بينة .. على أن الإمام علياً كرم الله وجهه ، كان بطانة خير ووزير صدق لرسول الله ﷺ .

وخلاصة قصتها — رضى الله عنها — ما يرويه ابن إسحاق في أمر أخيها عدى بن حاتم رضى الله عنه ، فذلك حيث يقول عدى : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ منى ومن قومي ، فقد كنت امرأ شريفاً في قومي وكنت نصرانياً ، فكنت في نفسي على دين وكنت في قومي ملكاً .

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت للغلامى الذى كان راعياً لإبلى : لا أبأ لك أعدى لي أجلاً ذللاً ممناً واحتبسها قريباً منى ، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فأخبرنى . فأعد الغلام لى الإبل ثم جاءنى ذات غداة فقال : يا عدى ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا هذه جيوش محمد ، فجئت أحبك فاصنع ما أنت صانع .

ولم أجد بداً من أن أغادر الأرض التى عشت عليها فلحققت بأهل دينى من نصارى الشام ، غير أن خيل محمد كانت قد خالفت طريقى فأصابته ابنة حاتم فيمن أصابت فقدموا بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طيء ، وقد بلغ

رسول الله صلى الله عليه وآله هرب إلى الشام . وقد كانت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السباها تحبس فيها ، فحبست معها أختي سقانة<sup>(١)</sup> بنت حاتم . وذات يوم مر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقامت إليه فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : ومن وافدك ؟ فقالت : عندي بن حاتم أختي . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أهو الهارب من الله ورسوله ؟ قالت : نعم . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وترك المرأة ، حتى إذا كان من الغد مر بها صلى الله عليه وآله وقد يست منه ، فأشار إليها على كرم الله وجهه أن قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فكلّميه . فقامت إليه فقالت ما كانت تقول من قبل : هلك الوالد وغاب الوافد . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : قد فعلت . فلا تعجل بالخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة فيبلغك إلى بلادك ، فإذا وجدت هذا الثقة فأخبرني .

تقول سقانة : ثم قدم ركب من قضاة فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت : قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ . فكساني رسول الله صلى الله عليه وآله وحملني وأعطاني نفقة ، فخرجت مع الرهط حتى قدمت الشام .

وهنا يقول عندي بن حاتم رضي الله عنه : بينما كنت في أهل ذات يوم نظرت إلى طعينة تؤمننا ، فقلت في نفسي : ابنة حاتم والله . فإذا هي هي . فلما وقفت على جعلت تقول : أيها القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك التي هي عورتك . قال عندي : أي أختي ، لا تقول إلا خيرا . فوالله ما لي من عذر . لقد صنعت ما ذكرت وأنا أستحق ما قلت . ولم يسع سقانة إلا أن تنزل وتقيم عندي فقلت لها — وكانت امرأة حازمة — : ماذا تريين يا أختي في أمر هذا الرجل ؟ فقالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا قللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تنل في عزه وأنت

(١) السقانة — بتشديد السين المفتوحة — الزوجة سميت بها بنت حاتم لأخت عندي رضي الله عنه .

أنت . قلت لها : والله إن هذا هو الرأي . ثم خرجت حتى قدمت المدينة على رسول الله ﷺ فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ قلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ وانطلق في إلى بيته ، فوالله إنه لعامد في إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها . فقلت في نفسي : والله ما هنا بملك . ثم مضى في رسول الله ﷺ حتى إذا دخل في بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفا فقفدها إلى فقال لي : اجلس على هذه . فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . فقلت في نفسي : والله ما هنا بأمر ملك .

فلما اطمن في المجلس قال ﷺ : إيه يا عدى بن حاتم ، أسلم تسلم . قلت : إن لي دين قال : أنا أعلم بدينك منك . قلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم . يوردها مرتين أو ثلاثة . ثم قال ﷺ : ألست ترأس قومك ؟ قلت : بلى . قال : ألست ركوسياً<sup>(١)</sup> ألست تأكل المربع<sup>(٢)</sup> ؟ قلت : بلى . قال : إن ذلك لا يحل في دينك ، ففضفت<sup>(٣)</sup> لذلك . فقال لي ﷺ : يا عدى أسلم تسلم . ثم مضى يقول رسول الله : قد أرى أنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها ممن حولي ، وأنت ترى الناس علينا إلبا مجتمعين . ثم قال ﷺ : ( هل أتيت الحيرة يا عدى ) ؟ قلت : لم آتها وقد علمت مكانها . قال : ( يوشك أن ترتحل الظعينة من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت ، وتلفنن على من حولي كنوز كسرى بن هرمز ) . فقلت : كسرى بن هرمز ! فقال رسول الله : ( كسرى بن هرمز مرتين أو ثلاثا ، وأيفض المال حتى إن الرجل ليحزن أنه لا يجد من يقبل صدقته ) .

(١) الركوسية : الصرانية أو الصابئة وهما ديانتان سابقتان على الإسلام ، وأهل الديانتين كليهما من أهل الكتاب .

(٢) المربع : حبة يأخذها رئيس الله « الخراج » منهم دون أصحابه في الجفيلية .

(٣) فضفت : تركت . في فصي الترمذ : « أجهر بالقول » .

يقول على رضي الله عنه : لقد رأيت اثنتين .. الظعينة<sup>(١)</sup> ترتحل بغير جوار<sup>(٢)</sup> حتى تطوف بالبيت ، وقد كنت في أول خيل أغارت على كوز كسرى بن هرمز ، وإنى لأحلف بالله لتجعين الثالثة فيفيض المال حتى لا يوجد من يأخذ .

وأنت حين تتأمل في هذه القصة على ما ينبغي لها ، فإنك سترى مقدار الخير الذي أصاب المسلمين بتوجيه الإمام نظر رسول الله ﷺ إلى تكريم ابنة حاتم الطائي ، من طريق المن عليها من رسول الله ، وإعطائها نفقة تحملها إلى أخيها . وفي ذلك مصداق لهذا الحديث الذي جعلناه صدر هذا الفصل من كتاب الإمام كرم الله وجهه .

---

(١) الظعينة : المودج على البحر فيه المرأة أولا .

(٢) الجوار : الحماية والحراسة .

## على وإمارة المؤمنين

مما ينبغي التنبيه له والتنبيه إليه ، أن لقب الخليفة لم يظفر به من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه . فلما انتهى الأمر إلى عمر بن الخطاب تلقب بأمر المؤمنين . ولعل عمر رضي الله عنه قد شعر بما شعر به أبو بكر من تخرجه أن يرى نفسه قائما مقام رسول الله في ولايته أمر الأمة الإسلامية ، فآثر لنفسه لقب أمير المؤمنين .

وبيان ذلك أن أبا بكر حين ولى الخلافة قال له أعرابي : أنت خليفة رسول الله ﷺ يا أبا بكر ؟ قال أبو بكر : لا . قال الأعرابي : فما أنت إذا ؟ قال أبو بكر : أنا خالفة رسول الله ﷺ .

يقول أبو بكر رضي الله عنه : إنه خالفة رسول الله وليس خليفة له ﷺ . وأحسب أنك تتطلع إلى معرفة الفرق بين الخليفة والخالفة .. فاعلم رحمك الله أن الخليفة هو من يقوم مقام السالف ويسد مسده ، أما الخالفة .. فهو الذي يأتي بعد السالف وليس عنده غناؤه ولا معه خصائصه . فسيدنا أبو بكر — رضي الله عنه — لم يشأ أن يصف نفسه بأنه خليفة النبي وقائم مقامه ، وإنما وصف نفسه بأنه خالفة رسول الله بمعنى أنه مجرد آت بعده ، يقصد بذلك إلى التواضع وهضم النفس . وكل مسلم هو كذلك إذا قيس برسول الله ﷺ . ولكن كان سيدنا أبو بكر لم يستطع أن يتخلل عن هذا اللقب الشريف ، لقد استطاع عمر أن يستبدل بلقب الخليفة لقب أمير المؤمنين ، وعلى ذلك معنى الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم ممن ولى أمر الأمة الإسلامية رضي الله عنهم .

ولعل من الحق علينا للخليفة أي بكر رضي الله عنه ، أن نلفتك إلى ما يزيدك إيمانا بأنه كان عظيم الإجلال لرسول الله بقدر ما كان صادقا الصديق كله في

اعتقاده أنه أقل من أن يكون خليفة لرسول الله ، حتى قال كلمته الماثورة عنه : « أنا خالفة رسول الله ولست خليفة ﷺ » . ذلك أنه حين تمت له البيعة في السقيفة وورق منير رسول الله في المدينة ، لم يشأ أن يقف على الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله بل وقف على درجة أنزل منها . فإن أنت ضمنت تلك الكلمات الشريفة إلى تصرفه هذا في وقوفه على المنبر ، رأيت فعله رضى الله عنه مواكبا قوله في الدلالة على إجلاله العظيم لمقام رسول الله ، ورؤيته نفسه مأموما لخبر إمام وتابعا لأشرف متبوع .

وأحسب أنك لا تحتاج بعد ذلك إلى من يذكر بك بأن لقب أمير المؤمنين محل لقب الخليفة منذ ارتضاه عمر لقباً لكل من تولى أمر الأمة الإسلامية حتى يوم الناس هذا ، وفي هذا دلالة تؤيد مع زميلات لها أن عمر بن الخطاب كان — من بعد النظر وقوة الإدراك وحسن التصرف — بمكان ممكن ، كما يرشد إلى ذلك الحديث الذى أخرجه المرتضى الزبيدى في كتابه « تاج العروس » : « قد كان في الأمم محدثون — ملهون — فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب » .

غير أن من أهل العلم من كان يرى لونا من الغرابة في تصرف عمر رضى الله عنه حيال على كرم الله وجهه .. ذلك أن هذا العالم كان يقول كلما سئلت له فرصة : إن أمير المؤمنين عمر لم يكن ليخفى عليه أن رسول الله ﷺ رشح للخلافة من بعده أبابكر بتقديمه للصلاة ، ثم لم يكن ليخفى عليه أيضا أن نبي الله إنما قصد بهذا الترشيح أخذ الطريق على تشعب الآراء وتعدد المطامع التي توقظ العصبيات وتفسد ذات البين ، في أمة تتلمذ إليها الأطماع وتربص بها الأحقاد في أكثر من مكان في أرض الله . فلما لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى ، جاء من بعده أبو بكر على خلاف بين المهاجرين والأنصار كاد يقضى على الحنة بفرقة . وعلى السكينة والسلام بالقلق والحصام ، لولا أن

تداركت الأمة عناية الله عن طريق ترشيح رسول الله أبا بكر ، ومبادرة عمر إلى مبايعة أنى بكر . ولو افترض البصراء بشعون الاجتماع أن رسول الله ﷺ لم يرشح للخلافة أبا بكر ، لتضاربت الأهواء واستغلظ عود البلاء ، ولست تشك في أن هذه الصورة لم تكن لتأتى على مدارك الصديق رضى الله عنه ، فلما مرض مرض الموت لم يجد بدا من الاقتداء برسول الله أو الاستئناس بعمله فرشح عمر خليفة من بعده . ثم رأى السابقين من أصحاب النبی يعاتبون على ترشيحه عمر دون غيره ممن يشاركون عمر في فضله ، على ما تشير إلى ذلك آخر خطبة خطبها رضى الله عنه في مرضه الذى مات فيه ، فذلك حيث روى أبو العباس المبرد عن عبد الرحمن بن عوف قال : دخلت يوما على أنى بكر الصديق في علته التى مات فيها فقلت له تارك بارثا يا خليفة رسول الله ﷺ . فقال : أما إني على ذلك لشديد الوجع ، والذى لقيناه منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى . إني وليت أموركم خيركم في نفسى ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه .

وأنت إذا تأملت في هذه الكلمات رأيت وجه القرابة يتجلى في إعراض عمر عن ترشيحه خلفا له ، مع جعله أمر الخلافة بين ستة من الصحابة بعضهم لبعض كفاء .. ومن شأن هذا التكافؤ بينهم أن يدعوهم إلى التناقص ابتغاء الظفر بهذا المصب الجليل يجمع الله به للمخلصين الصادقين شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، وبذلك تمتهد السبل للفرقة تصدع الشمل ، وللتنازع والخصام يحل محل الوفاق والوثام .

ولو أنه رضى الله عنه كان قدرشح عليا ، لوجد سننا شريفا لتصرفه هنا في عمل رسول الله حين رشح أبا بكر ، ثم في عمل أنى بكر حين رشح عمر . ثم إنه لو فعل لوجد في علي من الخصائص والمميزات ما لم يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله ، فهو قريب من رسول الله ﷺ قرابتين .. قرابة عن

طريق النسب الشريف ، ثم هو أيضا — قريب منه قرابة عن طريق نشأته في يده وتأديته وغله من ينابيع النبوة . وليس لغمر على من أصحاب النبی هاتان الخصيصتان الشريفتان اللتان لا يتناول منصب الخلافة إلى خير منهما لدنيا الإسلام والمسلمين . وقد تسأل رحمك الله — عن المعنى الذى سوغ لعمر رضى الله عنه الإغضاء عن على حتى جعله واحدا من ستة ليس لأحدهم من الخصائص ماله هو كرم الله وجهه ؟..

وإنه لطيب لى أن أعينك بالله تعالى من أن يمسك طائف من الشيطان يخيل لك أن عمر كان أسمر هوى أو حليف نزوة ، فإن الرجل فوق ذلك وأجل من ذلك عند الله وعند رسول الله وعند على نفسه ، وكذلك هو عند كل ذى دين يخشى الله ويتجههم العصية المذهبية مؤثرا العدل والإنصاف على الجور والميل والاعتساف .

ونقف بك وقفتين لا ترى متنداها عنهما في هذا المقام .. إحداهما تتعلق بفضل عمر . وثانيتها تتعلق بما عسى أن يكون قد اختلج في نفسه فصرفه عن ترشيح على لإمارة المؤمنين .

فأما الوقفة الأولى فخلاصتها : ما أخرجه جامع الأصول من أن عمر قال لأبى بكر : يا خير الناس بعد محمد رسول الله .. فقال أبو بكر : أما إذ قلت ذلك ، فلقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل خير من عمر ) .

وعن عمر رضى الله عنه قال : وافقت روى في ثلاث : تمنيت أن تؤمر بالصلاة في مقام إبراهيم ، فجاءت الآية الكريمة : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (١) ثم تمنيت أن يحجب نساء النبى ﷺ فجاءت الآية الكريمة : ﴿ وَكَرُنَ فِي يَتْرِكُنْ ﴾ (٢) .. الآية . ثم سألتنا رسول الله الرأى في



أسرى بدر فقلت يا رسول الله : تمكنتنا حتى نضرب أعناقهم . ولكن رسول الله أخذ القدية فعاتبنا الله في ذلك حتى قال ﷺ : (إن كاد ليصيبنا في خلاف عمر عذاب ) .

وقد روى الزبير بن بكار قال : خطب عمر أم كلثوم بنت علي فقال له إنها صغيرة ، فقال عمر نزوجنيها يا أبا الحسن فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصد أحد . فقال علي : أنا أبعثها إليك ، فإن رضيتها زوجتكها . فبعثها إليه فرفضها وتزوجها . ثم جاء إلى المجلس في المدينة فجلس في الروضة التي كان يجلس فيها المهاجرون الأولون فقال : رفوفى ، رفوفى . قالوا : يم يا أمير المؤمنين ؟ . فقال : تزوجت أم كلثوم بنت علي بن أبى طالب ، إذ كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة ، إلا سببى ونسبى وصهرى) . فأحببت أن أكون كذلك من رسول الله ﷺ فتزوجت أم كلثوم . . فهذه فضائل جمعها الله لعمر ، وإنها لثرق بالمسلم حتى تكاد تلحقه بعالم الملائكة فلا يكاد يخضع لهوى ولا يستأسر لنزوة .

هذا ، وأما المعنى الذى صرف عمر عن ترشيح علي لإمارة المؤمنين ، فمبلغ علمنا أن عمر رضى الله عنه كان يرى الغيرة من علي تكاد تأكل صلور منافسيه حسدا له وجعلنا لفضله . ثم هو بعد غرض لثارات كثيرة في بيوتات عربية قرشية جعلت الحاقدين عليه والمتربصين به أكثر عددا وأشد سلطانا وأوسع حيلة من المنتصرين له والقائمين معه . ولعل عمر رضى الله عنه كان قد بلغه الحديث الذى يذكره بعض أهل العلم فوثق به . ورأى أن فيه توجها من رسول الله لا يجوز خلافه ، فذلك قوله ﷺ : ( إن تؤمروا أبا بكر تعبدوه أمينا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة ، وإن تؤمروا عليا — ولا أراكم فاعلين — تعبدوه هاديا مهديا يأخذ بكم الطريق المستقيم ) .

وأنت إذا تدبرت في هذا الذى رويك من فضائل عمر ومن حسن تقديره لعلّى في فضله وفي منزلته بين معاصريه ، لم تشك في أن عمر لم يصرفه عن إفراده بالترشيح لإمارة المؤمنين إلا ابتغاء الخير للأمة في عاجل الأمر وآجله ، ومادلك عليك — إذا أحسست النظر — ببعيد — والله الهادى إلى سواء السبيل .

---

## الكبير ، أمين على وصفه لنفسه

الكبارة صفة في الإنسان تجعله يحرص على تحصيل معالي الأمور وتجنب ما يخفض من قدر الناس . وهذا الطراز من الناس لم تغل منه أمة في جاهلية ولا إسلام ، لأن هاديتهم في الحياة فطرة سوية تقوم في النفس الإنسانية مقام الدين . فإذا صاحب هذه الفطرة السوية يحرم على نفسه كل ما يشين شرفه أو يؤذى مروءته ويشيع عنه سوء الأحوال بين الناس ، فإن هو لم يترك الكذب ديننا تركه أنفه ، وإن هو لم يمتنع عن شرب الخمر ديننا امتنع عن شربها سموا بنفسه عن أن يكون حيوانا يمشى على قدمين في أرض الله ، وإن هو لم يأخذ بالأخلاق الفاضلة خضوعا لسلطان الدين فإنه يأخذ بها لأنها من مكارم الأخلاق ، على ما تشر إلى ذلك الكلمة التي قالها لرسول الله ﷺ شيخ بنى شيان : والله يا أخا قريش لو لم يكن هذا الذي تدعونا إليه ديننا ، لكان في أخلاق الرجال حسنا .

وإذ قد كانت هذه الكلمات ذات أستاذ موثوقة إلى أصحاب المروءات ، فإن مما لا يخفى عليك — حفظك الله — أن الإمام علياً — كرم الله وجهه — قد جمع الله له بين أمور ثلاثة تتراد له شرف الفضيلة ، وتأتى به عن حسة الرذيلة : نسبه العريق في بنى هاشم ، ونشأته الكريمة في بيت عبد المطلب ، وتربيته الشريفة بين محمد بن عبد الله وخديجة بنت خويلد .

وفي ظل كل من هذه الأمور الثلاثة اعتنق كرم الله وجهه الإسلام فلم يسجد لصنم قط ، ولم يألف رذيلة قط . فإذا وصف نفسه فإنه بنفسه خير ثم هو على ذلك أمين . ولها كان من الخير أن نسوق إليك وصفه لنفسه بلغته هو — كرم الله وجهه — فذلك حيث يقول :

« والله لأن أيت على حسك السعدان مسهدا ، أو أجر في الأغلال مصفدا ، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد ، أو غاصبا لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الغرى حلولها .

« والله لقد رأيت عقيلاً أخى وقد أملق حتى استباحنى من بر كم صاعا ، ورأيت صبيانه شعث الشعور غير الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظيم<sup>(١)</sup> ، وعاودنى مؤكدا وكرر على القول مرددا ، فأصغيت إليه سمعى . فظن أني أبعه دينى وأتبع قياده مفارقا طريقي ، فأحميت له حديدته ثم أدنينها من جسمه ليحتر بها ، فضح ضجيج ذى دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل . أتمن من حديدته أحماها إنسانها للعبة ، وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟

« أتمن — يا عقيل — من الأذى ، ولأأمن من لظى ؟ وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها ، ومعجونة شئتها كأنما عحنت يريق حية أو قينها ، فقلت : أصيلة أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت . فقال الطارق : لا ذا ولا ذاك ، ولكنها هدية . فقلت : هبلك الهبول ، أعن دين الله أتيتنى لتخدعنى ؟ أغتبط أنت أم ذو جنة أم بهجر ؟ والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحتم أفلاكها على أن أعصى الله في ثملة أسلها جلب شعيرة ، ما فعلته . وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة في قم جرادة تقضمها . ما لعل ولنعم يفنى ولنة لا تبقى ؟

« نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل ، وبه نستعين » .

(١) العظيم : — بكسر الميم واللام — شيء تصبغ به ، ولعله البيلة التي تصبغ بها الثياب في مصر كما ذكر صاحب المصباح .

ففى هذه الكلمات الشريفة : كلمة « السعدان » وهونبت ذو شوك يقال له حبسك السعدان ، كما يقال له حبسكة السعدان . وهذا النبت من أفضل مراعى الإبل . وفيه جاء المثل : « فسى ولا كالك ، ومرعى ولا كالسعدان » . وكلمة المسهد تعنى الممنوعة من النوم ، والأغلال القيود . والمصفد المقيد ، والحطام عرض الدنيا ومتاعها .

ثم قال كرم الله وجهه : كيف أظلم الناس لأجل نفس تموت سريعا — يعنى نفسه . وكلمة أملق الرجل تعنى أنه افتقر . والعظم — بكسر العين واللام نبت يصبغ به الثوب أو غيره إذا أرادوا له أن يسود .

وقوله لأخيه : ثكلتك الثواكل دعاء عليه بالموت . والمفلوكة فى وعائها نوع من الحلواء كان قد أهداها له الأشعث ، وكان — كرم الله وجهه — ييغض الأشعث والأشعث ييغضه فظن الأشعث أنه يستميل الإمام بهده الهدية ، ولذلك رد الإمام هديته ولولا ذلك لقبها ، لأن رسول الله ﷺ قبل الهدية .

ولا بأس بقبول الهدايا ، وقد قبل هو نفسه كرم الله وجهه هدايا جماعة من أصحابه . وقد دعاه بعض من كان يأنس إليه إلى حلواء عملها يوم نوروز فأكل ، ثم سأل صاحب النار : لم عملت هذا ؟ فأجابه : لأنه يوم نوروز . فضحك الإمام وقال : « نورزوا لنا فى كل يوم إن استطعتم » . وكانت هذه الكلمة دعابة مه لأصحابه ، والمداعبات من لطائف الأخلاق وسجاجة الشيم .

## دعاء المؤمن ربه مرآة لنفسه

قيل لأحد العارفين : إننا نتعامل مع أصناف كثيرة من الناس ونحن لا ندري من دخيلة أنفسهم شيئا ، فربما أخطأنا الطريق في معرفتهم فاحتملنا بذلك أوزارا تنال منا في دنيا أو دين . فم تنصح لنا — وفقك الله للخير — إذا أقدمنا على التعامل مع الناس ؟ ولم يطل التأمل بالعارف طويلا حتى قال لهم : انظروا إلى هؤلاء في أعقاب الصلوات وهم يدعون الله ، فإن العبد أصدق ما يكون إذا دعاه ربه في ملأ من الناس أو ناجاه بينه وبين نفسه . وعن هذه الطريق تعرفون الصالح من الطالح ، والصادق من الكاذب ، ومن يصلح لفتحكم ومن لا يصلح ، فذلك هي الطريق الفاردة بالقدرة على بيان أحوال العباد .

ولست ترتاب — رحمك الله — في أن هذه الكلمات قائمة في نفس العارف بالله على صفاء سريرة وطول تجربة وإخلاص في بذل النصيحة . تأدبا بأدب رسول الله ﷺ في حديثه الشريف : ( الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ) .

ولقد اختلف الناس اختلافا كثيرا حول الإمام — كرم الله وجهه — بين غال في بغضه غلوا أخرجه من الإسلام ، وبين غال في حبه غلوا أخرجه من الإسلام أيضا . ولم يسلم من البلاء في الصلة به — كرم الله وجهه — إلا أولئك الذين وصفهم هو بقوله : « خير الناس النقط الأوسط ، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي » .

وقد حرص هؤلاء السادة على أن يلتمسوا حقيقة نفس الإمام من ضراعتة إلى الله تعالى على ملأ من أصحابه أو على خطوة بره في محرابه ، إذ كانت تلك

هي الطريقة المثلى في تبیان الحقائق تمهيدا للأسوة به والسیر مع خُلقائه في طريقهم إلى الظفر بمرضاة الله رب العالمين .

فمن دعواته التي تدل على صدق عبوديته لله قوله — كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ :  
 « اللهم اغفر لي ما أنْتَ أعلم به مني ، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة . اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضل في هداك ، أو أضام في سلطانك ، أو أضطهد والأمر لك . اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائسي ، وأول وديعة ترجعها من ودائع نعمك عندي . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتن عن دينك ، أو نتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك .

اللهم صن وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإفطار ، فأسترزق طالبي رزقك وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطاني وأقتن بدم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع ، وأنت على كل شيء قدير .

اللهم إنك آنس الآنين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمايرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أو حشتم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبت عليهم البلياء لجئوا إلى الاستجلاء بك ، علما بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك .

اللهم إن فهمت<sup>(١)</sup> عن مسألتني أو عهت<sup>(٢)</sup> عن طلبي ، فدلني على مصالحني ، وخذ بقلبي إلى مراشدني ، فليس ذلك بنكر من هداياتك ، ولا بدع من كفاياتك .

(١) الفهامة : العي ، وهو السجر عن البلياء .

(٢) العهت : التحير ، تقول العرب فلان في عهته من أمره ، تعني أنه متحير متردد .

اللهم احملنى على فضلك ولا تحملنى على عدلك ، يا أرحم الراحمين .  
يقول — كَرَّمَ اللهُ وجهه — فى وصفه لله عز وجل : إن الله تعالى يأثس أوليائه من الوحشة . والفعل من باب ضرب ، فالعربى يقول : أنس فلان فلانا أنسا ، كما يقول ضربه ضربا ، والمعنى أنه أزال وحشته . ولما كان الإنسان محتاجا إلى من يخرجه من ضيق الوحشة إلى فرج الأنس ، كان فى أخلائه وأصدقائه كثير ممن يأنسه ويخرجه من ذل الوحشة إلى عز الأنس . ولا ريب فى أن الله تعالى إذا تحبب لأوليائه كان أعظم أنسا لهم ممن سواه . وكما وصف الإمام رب العالمين بأنه أعظم أنسا لأوليائه من كل آنس ، كذلك وصفه بأنه سبحانه أبلغهم إحضارا لكفاية المتوكلين عليه وأقومهم بذلك فى غير تشبيه ولا تمثيل .

وكذلك وصفه بأنه سبحانه مطلع على غيبهم بصير بما يستقر فى أعماق نفوسهم ، فإذا استغاثوه أغاثهم ، وإذا سألوه أعطاهم ، وإذا لاذوا به حماهم . ثم دعا الإمام ربه بأن علمه بحاله يغنيه عن سؤاله ، فإذا منعه العى عن تجلية مسألته وشدة حاجته ، أو حملته الشدائد على الحيرة وعدم تبيين الطريق ، فإنه سائل مولاه أن يدلّه على ما يعلمه سبحانه مصلحة له ، وأن يأخذ بقلبه إلى ما فيه رشد . ثم قرر — كَرَّمَ اللهُ وجهه — حقيقة لكل من يرتاد سبل الخير ، فقال : إن من غير المنكر أن هدايتك يا الله لعبادك قائمة ، وأن كفايتك لهم حاصلة .

غير أنه — كَرَّمَ اللهُ وجهه — لفت إلى حقيقة لا تنبى الغفلة عنها ، وهى أن يسأل المؤمن ربه فضله لا عدله ، فإن الفضل مظنة النجاة ، وأما العدل فإنه مظنة العطب . ولذلك كان أسلافنا يقولون فيما يأثره الثقلت من الأدعية : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك . ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك . اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به



نفسك وأنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم  
الغيب عندك ، أن تعيذني بفضلك من عدلك ، وأن تجعل القرآن العظيم شفاء  
صدرى ، ورييح قلبي ، ونور عيني ، وجلاء همى وغمى يا حى يا قيوم يا ذا  
الجلال والإكرام .

---

## تأديب على عسكره بأشرف الأخلاق

كان الإمام كرم الله وجهه يدعو الله تعالى ويستعينه ، وفي دعائه هذا متخشعا ضارعا تأديب لجيشه عن طريق دعوته إياه إلى القدوة به . ثم يتجه بعد ذلك بالخطاب إلى جيشه ، فيجتمع لجيشه به أمران كلاهما يشتمل على خير كثير .. ذكر الله تعالى واللجأ إليه ، ثم النزول على وصايا الإمام التي لا ملد لها إلا من شرف الأخلاق ، ومن أدب الإسلام .

فأما دعوته جيشه إلى القدوة به في ضراسته وخشوعه واستسلامه لأمر الله ، فذلك قوله في ميدان الجهاد :

« اللهم إليك أفضت القلوب ، وامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، ونقلت الأقدام ، وأنضيت الأبدان . اللهم وقد صرح مكون الشنان ، وحاشت مراجل الأضغان . اللهم إنا نشكركم إليك غيبة نبينا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا . ربنا افتح بيننا وبين قوما بالحق وأنت خير الفاتحين » .

يقول — كرم الله وجهه — إن قلوبنا أصبحت خالية إلا من جلال الله تعالى والأمل فيه ، ثم يقول بعد إن أعناقنا امتدت إليه وحده تطلب عونه وتوفيقه ، وقد شخصت الأبصار في غير حركة خشوعا لله ، وانتظارا للفرج وانجلاء الكرب . ثم يقول إن الأبدان أصبحت هزيلة من طول الهم ومشقات السفر وتعب لقاء الأعداء ، ثم يشكو إلى الله تعالى أن الناس كانوا يضمرون التباغض بينهم ، فأما اليوم فقد أصبحت النيات معروفة ، والصدور مكشوفة ، وبغض الناس بعضهم بعضا على غاية الصراحة والوضوح ، تلى الأضغان في الصدور كما يقل الماء على مواقد النار . ثم تخففه العبرات — كرم الله وجهه — وهو يشكو إلى الله غيبة رسوله ﷺ ، لأنه لو كان موجودا حيا

بينهم ما حدث من الخلاف ما يقض المضاجع بالليل ويزعج السلامة والسلام  
بالتنار . وليس بعد تلك الشدائد التي أجملتها هذه الكلمات إلا أن يتدارك الله  
أهل الحق برحمته ، فيفتح بين القوم بالحق فإنه سبحانه خير الفاتحين .  
هنا ، وأما اتجاهه إلى جيشه بالوصية مستعجلة صريحة ، فذلك قوله كرم  
الله وجهه :

« لا تقاتلوهم حتى يسلوكم ، فإنكم — بحمد الله — على حجة ،  
وترككم إياهم حتى يبدعوكم حجة أخرى لكم عليهم . فإذا كانت الهزيمة  
عليهم بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوراً ، ولا تجهزوا على جريح ،  
ولا تهبجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسبين أمراءكم ، فإنهن  
ضعيفات القوى والأنفس . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات ،  
ولقد كان الرجل يتلول المرأة في الجاهلية بالحجر أو المراوة فيعير بها في نفسه ،  
ويعير به عقبه من بعده » .

ولا بد من وقفات حيال وصيته هذه — كرم الله وجهه — يتضح بها  
مهم ، أو ينكشف بجمل ، أو يكتمل ما يحتاج إلى تكميل :

وأولى هذه الوقفات أنه نهي أصحابه عن البغي ، والابتداء بالحرب بغى  
بلا ريب . وقد روى عنه أنه قال : « ما نصرت على الأقران الذين لقيتهم في  
مجال الجهاد إلا بأني لم أبتدىء بالمبارزة . وذلك حق ينصرو الواقع من حيث كان  
الباغى ظالماً وكان المبغي عليه مظلوماً . وسنة الله التي لا تتخلف أن ينصر المظلوم  
على ظالمه ، فذلك هو السر في أنه أمر جيشه بعدم البدء بالقتال حتى لا يكونوا  
بغاة ظالمين فيتخلى الله تعالى عنهم إلى مناصرة المبغي عليهم من عباده المظلومين .  
وثانية الوقفات نهي كرم الله وجهه أصحابه عن قتل الذي أدير تاركا الحرب ،  
ثم نهي عن إتمام قتل الجريح .

ذلك أن قتال الذي لا سلاح معه كقتال الذي معه سلاح لا يستخدمه .. كلاهما ينبغي أن يكون في عصمة من القتل والاعتداء ، عصمة يقضى بها تمام المروءة ويدعو إليها شرف الإسلام . وكذلك كانت وصايا رسول الله ﷺ لجيوشه ألا يقتلوا شيخا كبيرا فانيا ، ولا طفلا ولا امرأة ، ولا يعقروا بعرا إلا للأكل ، وأن يتركوا الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله في الصوامع والديار فلا يهجموهم ، بل يتركوهم وما تفرغوا له . وعلى هذه السنة مضى أبو بكر ومضى عمر وسائر أصحاب رسول الله . ولا ريب في أن أمير المؤمنين عليا أحرص أصحاب رسول الله على الائتثار بأمر الله والمضى على سنة رسول الله ﷺ .

وإليك نص ما أخذه أصحاب رسول الله عن رسول الله ﷺ ، ونحن نسوق إليك هذا النص عن كتاب لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب كان يبعث به إلى أمراء الجيوش ويقول فيه : « بسم الله وعلى بركة الله وبمعونة الله ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تسرفوا عند الظهور على الأعداء ، وإياكم والمثلة ، ولا تقتلوا حرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقروا أن تطعوا هؤلاء عند التقاء الزحفين وفي شن العارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالربح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

ومن أعجب ما يقف المسلم عنده متأملا في ما أنعم الله به على الإمام علي من رحابة الصدر وشرف الخلق والتقدير بما كان يدعو الناس إليه ، ما يرويه الثقات عن زوجة كبير من كبار البصرة . فقد قالت هذه المرأة له — كرم الله وجهه — بعد أن أظفره الله بأهل البصرة . فلما مر بابها نادته قائلة له : يا علي لا مرحبا بك ، أيم الله منك وللك كما آيتم أولادى من أبيهم . ولم يرذ

— كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ — على المرأة ولا حرض عليها من يتولى تأديبها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها . فلما فهمت إشارته سكنت هي وانصرف هو عنها على شدة دواعيه إلى أن يكشف سترها ويمهد السبيل للقسوة في تأديبها جزاء وفاقا لما اقترفته مما يعرض للخطر أسرار الجيش . ذلك أنها كانت قد سترت عندها في بيتها رجلين من أعداء أمير المؤمنين عليّ ، هما عبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم . فلم يشأ — كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ — أن يفضح تصرفها علنا أمام الناس ، ولكنه استبدل بذلك أن يشير إليها إشارة تفهمها المرأة وحدها دون غيرها من سائر الحاضرين . فقد أشار للمرأة إلى الموضع الذي كانت المرأة قد جعلته مخبئا لأعداء الإمام ، فلما فهمت المرأة إشارته انصرفت ساكنة شاكرة لأمر المؤمنين شرف خلقه وعظيم حلمه وحسن معاملته إياها — كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ — ورضى الله عنه وأرضاه .

وثالثة الوقفات كلمته عن شرف الخلق العربي في الجاهلية ، حيث ذكر أن الرجل إذا ضرب المرأة أصبحت تلك الضربة سبة عليه وعلى عقبه من بعده . وقد جاء الإسلام فأقر هذه المكرمة فكان تماما لمكارم الأخلاق ، كما قال رسول الله ﷺ : ( إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) .

## الاجتهاد أصل في التشريع

لا ينبغي أن يغيب عك — حفظك الله — أن الاجتهاد في تطبيق الأحكام أصل في الشريعة المحمدية المسموح ، ثم لا ينبغي أن يغيب عك — أيضا — أن الحلفاء الراشدين أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا قد اجتهدوا في تطبيق الأحكام الشرعية ، فمنهم من أداه اجتهاده إلى الوقوف مع النص — كتابا أو سنة — ومنهم من أداه اجتهاده إلى اعتبار مصلحة الأمة في تطبيق الأحكام . وقد كان الخليفة أبو بكر والإمام عليّ يقفان مع النص ، وكان أمير المؤمنين عمر وأمر المؤمنين عثمان يستصحبان المصلحة ، وهم جميعا مثوبون — أعطوا أم أصابوا — بيد أن المخطئ له أجر واحد والمصيب له أجران اثنان .

ونضرب لك مثلا يترأى فيه اختلاف المجتهد من أولئك السادة رضى الله عنهم وعابهم أجمعين ، وهذا المثل يقوم شاخ المعالم في قسمة الفىء والصدقات بين المسلمين :

فقد كان أمر المؤمنين عمر — رضى الله عنه — يفضل في العطاء بعض المسلمين على بعض ، فيفضل السابقين على غيرهم ، ويفضل المهاجرين من قريش على المهاجرين من غير قريش ، ثم يفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، ثم يفضل العرب على العجم ، ثم يفضل السادة على الموالي .. ولم يكن الفاروق ليصدر في هذا التفضيل عن هوى ، وإنما كان يصدر عما أداه إليه اجتهاده مما تستقيم به أحوال رعاياه ، على نحو ما فعل في عام الرمادة من التجاوز عن قطع يد السارق .

وعلى غير هذا النهج كان الخليفة الأول أبو بكر أيام خلافته ، فكان يرى أن

يسوى بين المسلمين كافة في العطاء ، وقد كان استفتى الإمام علياً فأفتاه بالتسوية في العطاء .

فلما أفضت إمارة المؤمنين إلى الإمام علي — كرم الله وجهه — عمل بما كان قد أشار به على أنى بكر ، فسوى في العطاء بين أهل الإسلام على الرغم من نصحاته الذين يرون في التسوية سبباً يتلوع به أعداؤه إلى النيل منه والكيد له وتسليط الضغائن عليه . ولكنه أعار نصحاء هؤلاء أذناً غير مصغية فجعل يلومهم أو يؤنبهم على نصحتهم له ، مهما تكن غايتهم منه وإخلاصهم فيه .

فذلك حيث روى عنه الرضى أنه قال في خطبة له — كرم الله وجهه :  
أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليهم ؟ لا والله لأقرب ذلك ولا أحوم حوله ما أجمع نجم في ليل أو أشرقت شمس في نهار . ولو كان المال لى لسويت بينهم في العطاء ، فكيف وإنما المال مال الله . ألا وإن إعطاء في غير حقه تبذير وإسراف ، ولئن رفع صاحبه في الدنيا ليضعه في الآخرة . ولئن أكرمه عند الناس ليهينه عند الله . وما وضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله ، إلا حرمه الله شكرهم ، وكان لغيره ودهم ، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم فإنهم شر خليل وألم خدين .

هنا ، وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان أن تصرف أمير المؤمنين عمر في التفضيل بين الناس كان أدنى إلى القبول وأرضى للخاصة من الناس . ذلك أن الناس ليسوا جميعاً في منزلة واحدة يتساوى فيها الفاضل والمفضول والشريف والمشروف . فإذا جاء الإمام كرم الله وجهه فتذكر لهذا العرف الذى كاد يلتحق بالأمور الفطرية ، فقد نصب نفسه هدفاً لمذمة عدو أو ملامة صديق . ولقد حدث أن جاء إليه من يستحق العطاء وكان معه غلام له عتيق ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد جئت ومعى غلامى هذا الذى أعتقته منذ قليل .

فأجابه الإمام : نعطيهِ كما نعطيك . فقال الرجل : أيأخذ غلامى مثلما آخذ ؟ قال الإمام : نعم . ثم أمر له بثلاثة دنانير ولغلامه بثلاثة دنانير أيضا .  
ولاشك أن الرجل قد انصرف عن هذا الموقف بهم مقعد مقيم ، ولئن كان هذا الرجل قد عصمته صحبته لرسول الله من أن يواجهه الإمام بما يكره من لغو القول وسوء الأدب ، لقد كان غيره من وجوه قريش على غير هذا الأدب . فأقبل على الإمام يواجهه بما يثير غضب الحليم . وأعنى هذا الوليد بن عقبة بن أفي معيط الذي قال : يا أبا الحسن ، جنيت علينا جنایات لا نذكرها إلا لتوقظ الحفائظ وتثير الأحقاد ، وإنك لتعلم أنك قتلت أفي يوم بدر وخذلت أخي يوم الدار ، ونحن إخوانك ونظراؤك من بني عبد مناف ، ومع ذلك نؤثر أن نكون معك على أعدائك على أن تترك لنا ما أصبناه من المال أيام عثمان وعلى أن تقتل قتاليه . ثم أعلم — يا أبا الحسن — أننا لو خفناك لترتكك ولحقنا بمعاوية في الشام . فأجابه الإمام رضى الله عنه يقول : أما ما ذكرتم من وترى<sup>(١)</sup> إياكم ، فاعلموا — يا بني العاص — أن الحق هو الذى وتركم وجنى عليكم ، وأما تركي لكم ما أصبتم من المال فاعلموا أنه ليس لي أن أترك لكم حق الله ولا لعمركم . وأما قتلة عثمان فلو لزمى قتلهم اليوم لقتلتهم بالأمس ، ولكن الذى لكم على أن تؤمنكم لأن خفتموني ، والذى لي عليكم أن أسيركم إذا خفتكم<sup>(٢)</sup> .

فلما فرغ الإمام من حديثه إلى الوليد على هذه الصورة المنصفة ، لم يجد بدا من القيام إلى أصحابه فحدثهم بما قاله الإمام ، ثم افترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف . وكان عمار بن ياسر حريصا على جمع الكلمة ورأب الصدع فقال لأصحابه : قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم ، فإنه قد بلغنا

(١) تقول العرب : وترت الرجل ، قتلت جميعه فأردته منه .

(٢) يقول إذا خفتكم مقيمين معي فإسى أخرجكم إلى الجهاد .



عنهم ما نكره من الخلاف والظن على الإمام ، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير وطلحة . فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف فدخلوا على الإمام على قاتلين : يا أمير المؤمنين انظر في أمرك ، فقد نقض قومك عهدك ، وأخلفوا وعذك ، وجعلوا يدعون سرا إلى رفضك ، وذلك أنهم كرهوا التسوية بينهم وبين الأعاجم فأنكروا ذلك أشد إنكار ، وأخذوا يعظمون عدوك ويظهرون الطلب بدم عثمان تفريقا للجماعة ، وتألفا لأهل الضلال .

فخرج الإمام إلى المسجد فصعد المنبر فقال : « نحمد إليكم الذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة وبغير حول منا ولا قوة . فأفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم إليه وسيلة أطوعهم لأمره ، وأعلمهم بطاعته ، وأتبعهم لسنة رسوله ، وأحياهم لكتابه . ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وذلك عهد رسول الله فينا ، لا يحل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق ثم صاح بأعلى صوته ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> . ثم قال : يا معشر المهاجرين والأنصار أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هُنَا كُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم قال غاضبا إن هذا الفء ليس لأحد على أحد فيه أثرة ، فهو مال الله وأنتم عباد الله ، وهذا كتاب الله فمن لم يرض به فليتول كيف شاء .

ثم نزل عن المنبر فصلى ركعتين ، ثم بعث إلى طلحة والزبير فأتياه فقال لهما : نشدتكما الله هل جئتاني طامعين للبيعة ، ودعوتاني إليها وأنا كاره لها ؟ قالا : نعم . قال الإمام : فما دعاكما بعد إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيتك بيعتنا على

(٢) الحجرات ١٧

(١) آل عمران ٣٢

أن لا تنقض الأمور ولا تقطعها دوننا ، وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت . فأنت تقسم القسم وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا . فقال : لقد نعمتاً يسيراً وأرجأتكما كثيراً ، فاستغفر الله يغفر لكما . ثم سألهما قائلاً : ما الذى كرهتما من أمرى ؟ قالاً : خلافك عمر بن الخطاب في القسم ، فقد جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا .

وما زال الحوار بين الإمام وبينهما على نحو نكره أن نمضى فيه ، ونحن نحرم على أن نتأدب بأدب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حيث قال — رضى الله عنه : تلك فتنة عصم الله أيديها منها فلا نخوض بالسنتنا فيها ، والله المسؤل أن يفضل فيرضى عنهم أجمعين .

ولقد كان الإمام — كرم الله وجهه — يقيس الناس إلى نفسه في شرف فطرته ، وكآل عدالته ، وقوة زهادته ، فجعله ذلك حسن الظن بالأيام شأن الكبار دائماً في تعاملهم مع سواد الناس . وكانت قدرته على البيان النابع في نفسه عن اقتناع يشبه اليقين ، يوحى إليه أن الناس يأخذون عنه ما يتحدث إليهم به في مثل يقينه واطمئنانه ، على حين أن الناس في معظم الأحيان عبيد الدنيا وزينتها ، على ما يقول الثقة البصر . إن أكد الأسباب في تقاعد العرب عن الإمام على إنما هو أمر المال ، فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف ، ولا عريباً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميل أحداً إلى نفسه كما كان يفعل معاوية — رحمه الله ، ولذلك تركه الناس كلياً والتحقوا بمعاوية . فشكا الإمام ذلك إلى بعض ثقاته فقال له الثقة : يا أمير المؤمنين إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأى الناس واحد ، وقد اختلقوا وتعادوا فضعفت النية وقل العدد . وأنت تأخذهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف الوضع من الشريف ، فليس للشريف

عندك فضل منزلة على الوضع ، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنایع معاوية عند أهل الضاء والشرف ، فتاقت أنفس إلى الدنيا وقل من ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يجتوى الحق ويشترى الباطل ويؤثر الدنيا ، فإن بذلت المال للناس آمال إليك أعناق الرجال واستخلص لك ودهم ، والله يصنع لك ويكتب عدوك . وقد أجاب الإمام هذا الناصح الثقة قائلا له : أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل فإن الله يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١) وإلى لأحشى أن أكون مقصرا فيما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور إلى عدل ، ولم يلتصقوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسفل يوم القيامة عن فراقهم لنا ساعين إلى الدنيا أم قاصدين إلى مرضاة الله عز وجل . وأما ما ذكرت من بدل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نوثق أحدا من الفئء أكثر من حقه ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

ولقد بعث الله محمداً فكفره بعد القلة ، وأعز فخته بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله رضى ، وأنت من آمن الناس عندي وأنصحهم لي وأوثقهم في نفسى إن شاء الله .

ولقد كان الإمام على — مع عدله وزهده — مثلاً أعلى في العزوف عن الدنيا ولزوم ما لا يبصر عليه إلا الصابرون ، حتى لقد كان أصحابه وأبناء أصحابه يعجبون من أمره ويخافون أن يحملهم على ما حمل عليه نفسه ، وذلك

أمر شديد شاق . وإليك هذا الذى يرويه الثقات فى هذا المجال ، فيقول الشعمى : دخلت الرحبة بالكوفة وأنا غلام مع غلمان آخرين ، فإذا أنا بعلى — كرم الله وجهه — قائما على صيرتين<sup>(١)</sup> من ذهب وفضة ومعه محففة ، وهو يطرد الناس بمخففته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس ، ولم يحمل إلى بيته منه قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحق الناس . فسألنى أبى : من هو يا بنى ؟ قلت : هو ابن أبى طالب أمير المؤمنين . ثم قصص على أبى ما كان يصنع الإمام ، فبكى أبى بكاء شديدا ثم قال : بل رأيت يا بنى خير الناس .

وكذلك روى محمد بن فضيل قال : انطلقت مع قنبر غلام على فإذا هو يقول : قم يا أمير المؤمنين فقد خيأت لك خبيثا .. قال الإمام : وما هو ؟ قال قنبر : رأيته يا أمير المؤمنين لا تترك شيئا إلا قسمته ، فأحببت أن أدخر لك هذا من بيت المال . فقال الإمام : ويحك يا قنبر ! لقد أحببت أن تدخل بيتى نارا عظيمة . ثم سل سيفه وأخذ يضرب به الفرارة<sup>(٢)</sup> ضربات كثيرة فانتثر ما فيها بين إناء مقطوع نصفه وإناء مقطوع ثلثه . ثم دعا بالناس فقال : اقسموا بالخصص بينكم . ثم قام إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه . وقد كان الإمام مع هذا يأخذ من كل عامل نصيبا مما يعمل .. ولقد جاءه ذات يوم ابن أخيه عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب فقال له : لو أمرت لى يا أمير المؤمنين بمعونة أو نفقة ، فإنى لأملك شيئا إلا أن أبيع دابتي . فقال له الإمام — كرم الله وجهه — : والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك . وقد كان — كرم الله وجهه — كثيرا ما يقول : يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عنديكم بغير راحلتى وغلامي فلان ، فاعلموا أنني خائن .

(١) الصيرة : الكوفة من النوى بلا عدد ولا وزن .

(٢) الفرارة : كس من صوف ونحوه توضع فيه الأشياء .

فهذه الكلمات ومثلاتها كانت تعبيرا صادقا غاية الصدق عن سياسته لنفسه وتعامله مع الناس ، حتى قال فيه جعفر الصادق : ما تجاذب عليا في ذات الله أمران إلا أخذ بأشدهما كلفة ، وأثقلهما وطأة .

وأية ذلك أنه كان يأكل من ماله في المدينة مع أنه كان مقيما بالكوفة ، ثم هو — بعد — لا يطعم إلا ما يقيم أوده ويمسك عليه قوته ، يتنى بذلك شرف الاقتداء برسول الله ﷺ ، فقد روى الثقات عن عقبه بن علقمة قال : دخلت على علي — كرم الله وجهه — وهو بالكوفة ، فإذا بين يديه قعب لبن حامض أذنتى حموضته ، وفي يده رغيف يابس تبدو قشارة الشعر على وجهه . قرأته بكسر الرغيف ويستعين أحيانا بركبته ، وإذا جاريته « فضة » قائمة على رأسه فقلت لها : أما تتقون الله في هذا الشيخ ؟ ألا نخلم له الدقيق ؟ فقالت الجارية : إنه أخذ علينا عهدا أن لا نخلم له دقيقا ما صحبناه . ولم يكن يسمع هذا الحوار بيني وبين الجارية ، فالتفت إليها يقول : ما تقولين يا فضة ؟ فقالت : سل الرجل يا أمير المؤمنين .. فسألني فأجبت بما قلت للجارية من نخلم الدقيق ، فلم يتألك أن بكى ثم قال : بأنى وأمى من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز البر حتى فارق الدنيا . وهكذا كانت سيرته رضى الله عنه ، يتحرى أشد الأمرين وأثقلهما على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

لقد كان الإمام — كرم الله وجهه — ثقیل التبعات أمام الله وأمام الناس ، وكان عليه أن يتخفف من كل ما يهيمه من أمر الدنيا وأمر الدين ، وكان من أشد شيء عليه أن يسمع متغاليا في مدحه يحاول أن يرفعه فوق الناس .

فمن أسوأ صور الغلو فيه رضى الله عنه ما يذكره بعض هؤلاء الحمقى ، فيقول إنه نزل ذات يوم مع بعض أصحابه لصلاة العصر فإذا الشمس تكاد أن تغيب ، فدعا الله فرجعت كمقدارها من صلاة العصر . فلما فرغوا من الصلاة غابت الشمس .. وليس يرتاب ذو عقل في أن هذه الدعوى قد اختلقها خيال مريض

يريد أن يفسد على المسلمين أمر الدنيا وأمر الدين . وإلا فكيف تمسك الشمس عن جريها إلى العاية المقدورة لها ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّهُ لَئَلَّامٌ لِّلْجُنَّةِ لَئِن سَأَلْتَهُنَّ مَتَى تَأْتِي السَّاعَةُ قَالَتٍ لَّيْلٌ أَوْ بَارُكٌ فِي السَّاعَةِ لَئِن سَأَلْتَهُنَّ لَيَفْجُرْنَ فِيهَا الْعُيُونُ لَئِن سَأَلْتَهُنَّ لَيَفْجُرْنَ فِيهَا الْعُيُونُ لَئِن سَأَلْتَهُنَّ لَيَفْجُرْنَ فِيهَا الْعُيُونُ ۚ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ (١) . فليس في وسع عاقل مسلما أو غير مسلم أن يزعم عودة الشمس لإنسان مهما تكن منزله عند الله رب العالمين .. وإذا زعم زاعم هذا الزعم فإنه إما ولي أحمق ، وإما علو خبيث يتردى رداء الإسلام وهو أعدى أعداء الإسلام .

وأسوأ من هذه الصورة في باب الغلو زعم من زعم أن الله تعالى حل في بدنه ، كما قالت النصراني في عيسى عليه السلام .

وقد كان — رضى الله عنه — عثر على قوم استحوز عليهم الشيطان فغلوا غلوا شديدا ، حتى كفروا بالله وجعلوا ما جاء به رسول الله فاتخذوا الإمام إلها لهم وجعلوا يقولون له : أنت خالقنا ورازقنا . فنصحهم واستأبهم فلم يتردعوا .

وذات يوم في رمضان مر بهم وهم يأكلون نهارا ، فقال لهم : أمسافرون أنتم أم مرضى ؟ قالوا : لا مرضى ولا مسافرون . فسألهم : أفمن أهل الكتاب أنتم ؟ قالوا : لا . ثم قالوا : أنت أنت ، لم يزيدوه على ذلك . ففهم مرادهم من هذه الكلمة فنزل عن فرسه فألصق خده بالتراب ثم قال : ويلكم ! إنما أنا عبد من عبيد الله فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام . فأبوا أن يقولوا له شيئا ، فأخذ يدعوهم مرارا بالله وهم لا يحيون . فنهض عنهم ثم قال : شدوهم وثاقا . ودعا بالفعلة والنار والخطب ، ثم أمر بحفر بئرين يتصل أحدهما بالآخر عن فتحتين في أسفلهما ، وألقى الخطب في أحدهما وأشعل فيه النار فدخن عليهم ، وجعل الإمام يهتف بهم ويناشدهم أن يرجعوا إلى الإسلام وهم يأبون ذلك عليه ، فأمر بالخطب والنار

فألقي عليهم فاحترقوا ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لنرمى في النية حيث شئت إذا لم ترم في الحفـسـرتين  
إذا ما حشيتا حطباً بنار فذاك الموت نقداً غير دمين

ثم لم يرح الإمام واقفا عليهم حتى صاروا حمماً .. ومعروف عند أهل العلم أن أول من جهر بالعلو في أيام الإمام هو عبد الله بن سبأ . فقد قام إليه وهو يخطبه فقال له : أنت أنت . وجعل يكررها . فقال له : وذاك من أنا ؟ فأجابه : أنت الله . فأمر بأخذه وأخذ قم كانوا معه على رأيه . ثم قال — كرم الله وجهه — : يهلك في رجلان .. محب يطربني فيضعني غير موضعي ويمدحني بما ليس في ، ومبغض يرميني بما أنا منه بريء .. وذلك هو تأويل الحديث المروي عن رسول الله في الإمام فقد قال له عليه السلام : ( إن فيك — يا علي — مثلاً من عيسى بن مريم : أحبه النصارى فرفعته فوق قدره ، وأبغضته اليهود حتى بهت أمه ) .

وهنا نرى من الحق علينا أن نذكر لك حفظك الله ما يرويه الثقات أن عبد الله ابن عباس شفع في عبد الله بن سبأ ، قائلاً للإمام علي إنه تاب فاعف عنه يا أمير المؤمنين . فأطلقه الإمام بعد أن اشترط عليه أن لا يقيم بالكوفة . فقال له : أين أذهب ؟ فقال له : تذهب إلى المدائن . فغاه إليها . فلما قتل الإمام أظهر ابن سبأ مقاتله وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه . ثم قال ابن سبأ لما بلغه مقتل الإمام : والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرة لعلمنا أنه لم يمت ، وهو لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه . فلما بلغت تلك المقالة ابن عباس قال : لو علمنا أنه يرجع لما تزوجنا نساءه ولا قسمنا ميراثه .

وليس يرتاب الذين يتمثلون موقف الإمام أنهم لا يروونه إلا بين صديق أحق وعلو خبيث ، وكل منهما يسهم بأوفر نصيب في كل ما يجعل حياته ثقيلة الأعباء معقدة التبعات .

ذلك أن أنصار عثمان وذوى قريبه كانوا يكيلون للإمام ويترصون به الدوائر ، لا تقتصر لهم همة ولا يردعهم عن الكيد رادع ، ولم تكن خصومة القوم له خصومة مبدأ ينافخون عنه ، أو عقيدة ينتصرون لها ، ولكنها كانت خصومة مصلحة تطلب المال لا يعتبها أن يكون من باب حرام أو من باب حلال .

وهذا اللون من الخصومة هو شر الخصومات على الإطلاق .. وبما ضاعف البلاء بهذا اللون من الخصومة خصومة أخرى أنشأتها تسويته في العطاء بين الفاضل والمفضل والشريف والمشروف ، حتى رأى الناس بعض أصحاب رسول الله يضيق صدره بهذه التسوية .

فإذا انضم إلى ذلك ما كان يحيط به القولون له والغالون فيه ، فإن البلاء يزداد شدة ونار الفتنة تزداد اشتعالا ، فإذا المعارك بينه وبين أعدائه في ميادين القتال يستخدم فيها الخبثاء هذه الأساليب المثيرة للأحقاد ، فيزداد العدو طمعا فيه والصديق ضيقا به ونكوصا عنه ، وإذا هو على ذلك يتمشى أن يجد فرصة يفرصها فيتحفف بها مما يقاسيه من هم مقعد مقيم .. ومهما أسرف المشرفون في التحامل على بعض أصحاب رسول الله ، فإن من الحق الذى لا ينبغي الضيق به أن لكل منهم من أدب رسول الله وتربيته إياهم نصيبا قل أو كثر .

وفيما كان الإمام يتربص فرصة تحمد بها نار الفتنة وتحرق في أجوائها أعلام السكينة ، إذا كتاب إلى الإمام — كرم الله وجهه — من معاوية يقول فيه — رحمه الله — : « أما بعد ... فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك وكل واحد منا يرى أنه على حق فيما يطلب من صاحبه .. ولن يعطى واحدنا الطاعة للآخر . وقد قتل فيما بيننا بشر كثير ، وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى . وأنا سوف نسأل عن هذه المواطن ولا يحاسب غوى وغريك . وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك في حياة وعز وبراءة ، وصلاح للأمة وحقق للدعاء وألفة للدين وذهب



للضعفائى والفتن أن نحكم بينى وبينكم حكمين مرضيين أحدهما من أصحابى  
والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله فذلك خير لى ولك وأقطع  
لهذه الفتن . فاتق الله فيما دعيت إليه وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله  
والسلام . فأجاب الإمام على هذا الكتاب قائلا : « من عبد الله على أمر  
المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان : أما بعد فإن أفضل ما شغل المرء به نفسه ،  
اتباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه . وإن البغى والزور  
يزريان بالمرء فى دينه ودنياه . فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شئ وصلت إليه  
منها ، ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته ، وقد رام قوم أمرا بغير الحق  
وتأولوه على الله فأكذبهم ومتعمهم قليلا ثم اضطروهم إلى عذاب غليظ . فاحذر  
يوما يقتبط فيه من حمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده  
وغرته الدنيا فاطمأن إليها . ثم إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولقد أجبنا  
القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبا . ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالا  
بعيدا » .

ولم يمكن بد معاوية أن يكتب إلى الإمام فكتب إليه يقول :  
« أما بعد عافانا الله وإياك فقد آن لك أن تحيب إلى ما فيه صلاح وألفة  
ما بيننا . وقد فعلت الذى فعلت وأنا أعرف حقى ولكنى اشتريت بالعفو صلاح  
الأمّة . ولم أكن فرحا بشئ جاء ولا ذهب وإنما أدخلنى فى هذا الأمر القيام بالحق  
فيما بين الباغى والمبغى عليه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. فدعوت إلى  
كتاب الله فيما بيننا وبينك فإنه لا يجمعنا وإياك إلا هو ، نحى ما أحيا القرآن  
ونغيت ما أمات القرآن .. والسلام » .

ولم يشأ الإمام أن يرد على كتاب معاوية فاستبدل بالكتابة إليه عمرو بن  
العاص يعظه : أما بعد ، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولن يصيب صاحبها منها

شيئا إلا فحنت له حرصا يزيد به فيها رغبة .. ولئن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغ .. ومن وراء ذلك فراق ما جمع . والسعيد من اتعظ بغيره ، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك ، ولا تجارى معاوية في باطله والسلام .

فكتب عمرو إلى الإمام : أما بعد ، فقد أصف من جعل القرآن إماما ودعا الناس لأحكامه ، فاصبر — أبا حسن — فإننا غير منيليك إلا ما أملك القرآن والسلام .

وليس يخفى عليك — أعزك الله — المعنى الذى قصدنا إليه من إثبات هذه الرسائل فى هذا المقام ، فإن الناظر يدرك لأول وهلة أن العصية القبلية هى التى كانت تجتمع بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان . ولكن كان معاوية قد دعا الإمام إلى تحكيم القرآن لقد كان فى دعوته هذه يصدر عن عقيدة ، فأما عمرو فإنه كان يصدر عن مصلحة فيما يرى كثير من كتاب التاريخ ، وعلم ذلك عند علام الغيوب .

وأيا ما كان الأمر فإن الناس قد سعلوا بأبلغ السعادة بما كان قد شاع بينهم من أمر التحكيم ، فجعلوا يروجون الأخذ به والمصير إليه حتى جاء إلى الإمام بعض خاصته قائلا له : يا أمير المؤمنين ما أرى الناس إلا قد سرهم أن يحيبوا إلى مادعوا إليه من حكم القرآن . فإن شئت أتيت معاوية فسألته ماذا يريد . فأجابه الإمام : سأتيه . ثم أتاه فسأله : يا معاوية لأى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله بما فيها ، فابحثوا رجلا منكم ترضون به ونبعث نحن رجلا منا على أن نأخذ عليهما أن يعملما بما فى كتاب الله ولا يعدوانه ، ثم تتبع ما اتفقا عليه . فبعث الإمام قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام واجتمعوا بين الصنفين المتقاتلين ومعهم المصحف فظفروا فيه وتبارسوا ، واجتمعوا على أن يحبوا ما أحيا القرآن ويمتروا ما أمات .

ثم انصرف كل فريق إلى صاحبه ، فقال أهل الشام : إننا رضينا واخترنا عمرو بن

العاص . وقال القراء من أنصار الإمام : قد رضينا نحن أبا موسى الأشعري . فقال لهم الإمام : إني لأرضى بأبي موسى . غير أن فريقا من أنصاره قالوا : لا نرضى إلا به لأنه كان قد حذرا ما وقعنا فيه . فقال الإمام لهم : إنه ليس لي برضا ، وقد فارقتني وغذلت الناس عني وهرب مني ، ولكنني أرضى ابن عباس فأوليه ذلك . فقالوا : والله ما نبالي أن تكون أنت أو ابن عباس ، ولسنا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما أدنى من الآخر .

وإن مما يأكمل القلب حرقه وأسى أن يتمثل أحدنا الإمام — كرم الله وجهه — مكرها على أن يرضى الأشعري نائبا عنه في التحكيم بدلا من ابن عباس ، وقد سمع القوم من الإمام أنه لا يثق بأبي موسى الأشعري وأنه ليس له رضا لأنه كان قد فارقه وغذلت الناس عنه وهرب منه . ثم لأن أبا موسى لا يقوم لابن عباس مقام عمرو ابن العاص الذي رضىه معاوية . ذلك أن ابن العاص — إلى جانب عمرو — يحمل كل عقدة يعقدها ويعقد كل عقدة يحلها ، ولكن أبا موسى ليس من ذلك في شيء . فإصرار القوم على أبي موسى في مواجهة ابن العاص مظنة مكر آثم أو غياء مبين ، وذلك أمر تضيق به الصدور ضيقا يضاعف الألم به ما يذكره الشعي من قول بعض المنتصرين للحق في ميدان القتال : والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة . فهذه الصورة الشوهاء من المنطق المعادى للإسلام كان لها أسوأ الأثر في نفس الإمام حتى قال : « أما وقد أبيت إلا أبا موسى فاصنعوا ما شئتم » . وما إن سمع القوم هذه الكلمة حتى بعثوا إلى أبي موسى في الشام وقد اعتزل القتال ، فأثاء مولى له فقال : إن الناس قد اصطلحوا . فقال أبو موسى : « الحمد لله رب العالمين » .. فقال له المولى : وقد جعلوك حكما . فقال أبو موسى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم جاء حتى دخل عسكر الإمام وإذا أبيات من الشعر تحيى خلفه وفيها يقول الشاعر :

لو كان للقوم رأى يعصمون به من الضلال رموكم بابن عباس  
 لله در أيه أيما رجل ما مثله لفصال الخطب في الناس  
 لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن لا يبتدى ضرب أحماس لأسداس  
 وبذلك استقر أمر التحكيم على رضا أهل الشام بعمر ورضا أهل العراق بأبي  
 موسى فأخذوا في سطر كتاب المودعة وفيه : « هذا ما تقاضى عليه على أمير  
 المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان .. إلى آخره » .

وقد كان من المتوقع القريب ألا يقبل معاوية هذا الكتاب على هذه الصورة  
 فقال : بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته . وقال عمرو : نكتب  
 اسم على واسم أيه . فلما أعيد الكتاب إلى الإمام أدركته فطرته الشريفة وعقيدته  
 السقية فأمرهم بمحو لقب أمير المؤمنين على الرغم مما لفته إليه بعض أنصاره في قوله  
 للإمام : « لا ترفع من الكتاب لقب أمير المؤمنين فأني أخشى إن رفعتموه ألا يعود  
 أبدا » .

وهنا يذكر الثقات أن عمرو بن العاص هو الذى عاد بالكتاب إلى الإمام وهو  
 الذى طلب منه أن يحو اسمه من إمرة المؤمنين ، فقص الإمام عليه وعلى من  
 حضر قصة صلح الحديبية قائلا لهم : لقد كنت أما الذى كتب الكتاب بين  
 المسلمين وبين المشركين ، وأنا اليوم — أكتبه إلى أبنائهم كما كتب رسول الله إلى  
 آباءهم . فقال عمرو : سبحانه الله أتشبهوا بالكافرين ونحن مسلمون ؟ فأجابه  
 الإمام : « يا عمرو متى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا ؟ » فقام عمرو  
 مغضبا فقال : والله لا يجمع يسي ويملك مجلس بعد اليوم . فأجابه الإمام : أما  
 إنى لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك .. فجاءت عصابة قد وضعت  
 سيوفها على عواتقها فقالوا : يا أمير المؤمنين مرنا بما شئت . فقام الصحابي الجليل  
 سهل بن حنيف فقال : أيها الناس اتهموا رأيكم ، فلقد شهدنا صلح رسول الله  
 ﷺ يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ثم لم نر في ذلك الصلح إلا خيرا .

ولعلك تحب أن تلم بصورة الكتاب بين الإمام ومعاوية .. فإليك نصه : هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . قاضى عليّ بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعة المسلمين ، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعة المسلمين .. أننا ننزل عند حكم الله تعالى وكتابه فهو بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن ، فإن وجد الحكماء ذلك في كتاب الله اتبعوا ، وإن لم يجدوا أخذوا بالسنة العادلة غير المفرقة .

وقد أخذ الحكماء « عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص من عليّ ومعاوية ومن الجندين » أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلتهما والأمة لهما أنصار . وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعملوا بما يقضيان عليه بما وافق الكتاب والسنة ، وأن الأمن والمواذعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم ، وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكم بين الأمة بالحق لا بالهوى على أن يكون أجل المواذعة سنة كاملة ، فإن أحب الحكماء أن يعجلا الحكم عجلاه ، فإن توفى أحدهما فلا يمر شيعة أن يختار مكانه رجلا لا يألو العذل والحق . فإن توفى أحد الأمرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرضون أمره ويحملون طريقته .

فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود وتراضى الناس ، خرج الأشعث مع آخرين بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس ، فمر به على صفوف أهل الشام فقرأهم ففرضوا به ، ثم مر به على صفوف أهل العراق فقرأهم عليهم ففرضوا به ، حتى إذا مر برباط عترة من شيعة الإمام قرأهم عليهم فقال فيبان منهم : « لا حكم إلا لله » ، ثم حملا بسبوفهما على أهل الشام فقاتلا حتى قتل على باب رواق معلوية فهما أول من حكم ، ثم مر الأشعث بالكتاب على « مراد » فقال قاتل منهم : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . ثم مر بالكتاب على رايات قم

فقرأه عليهم فقال رجل منهم : « لا حكم إلا الله يقضى بالحق وهو خير الفاصلين » . فقال رجل منهم لآخر كلاما يخرسه على النبيل من الأشعث ، فخرج إليه أحد بنى تميم قاتلا له : أتحكامون الرجال في أمر الله ؟ فأين قتلاتنا يا أشعث ؟ ثم شد بسيفه ليضربه به ولكنه خطاه وأصاب عجز دابته ، فصاح به الناس فكف ورجع الأشعث إلى قومه فأنبأهم بذلك . ثم ذهب إلى الإمام قاتلا له : لقد عرضت الحكومة يا أمير المؤمنين على صفوف أهل الشام وصفوف أهل العراق فقالوا جميعا رضينا ، حتى مررت برايات بنى راسب ونبذ من الناس سواهم فقالوا لا حكم إلا الله . فيا أمير المؤمنين ما يستحق هؤلاء إلا القتل فاجمع أهل العراق وأهل الشام على هؤلاء الخارجين حتى تقتلهم .

فقال الإمام — كرم الله وجهه — : هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ قال الأشعث : لا . قال الإمام : اتركهم إذن . وقد ظن رضى الله عنه أنهم قليلون لا يعبأ بهم . فما راعه إلا نداء الناس من كل جهة ومن كل ناحية : الحكم لله يا على لا لك . لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله . إن الله قد أمضى حكمه في معلوبة وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم ، وقد كنا زلنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين غير أنه قد بان لنا الآن أننا زلنا وأخطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا على كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا وإلا يرونا منك . فقال الإمام : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع ؟ أليس الله يقول : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم أرى — كرم الله وجهه — أن يرجع ، وأبى الخوارج إلا تضليل التحكيم والطنن فيه فبرئت من الإمام وبرىء الإمام منهم ، فقام إليه قائم فقال : يا أمير المؤمنين ،

أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ فوالله إني لأخاف أن يورث ذلًا . فقال الإمام : أبعد أن كتبناه تنقضه ؟ . إن هذا لا يحل :

وما كان الإمام — كرم الله وجهه — ليقبل التحكيم ويرحب به إلا وقد رأى في شيعة الخوارج والفشل عن الحرب ، ولقد كانت همدان جاءت إليه تعدد بأن تقف خلفه ركنًا حصينًا تنزل في مناصرته النفس والنفيس . فلما رأى من همدان هذه العزائم الشريفة مع ما بدا في صفوف أنصاره من الخوارج قبل التحكيم قائلًا لهم لو كان هنا قبل تسطر الصحيفة لأزلت أعداءكم عن عسكرهم أو تفردت سالفتي<sup>(١)</sup> ، فأنصرفوا راشدين إن شاء الله .

وهكذا يحرص الإمام — كرم الله وجهه — أشد الحرص على أن يلزم النهج القويم مهما كلفه ذلك من المشاق التي لا يصبر عليها إلا الصابرون الصادقون . ولا ينبغي أن يغيب عنك من شؤون الاجتماع أن ثمة فرقًا بين اثنين قلقت بهما السياسة إلى ميادين الحرب وكل منهما يرجو الظفر بصاحبه — بيد أن أحدهما يتقيد في تصرفاته بمنهاج دى قناسة من دين أو قانون ، على حين أن الآخر لا يتقيد إلا بما يرجوه ويسعى إليه من الظفر بصاحبه والفوز بغايته ، مهما تكن السبيل إليه مشروعة أو غير مشروعة .

وأنت إذا تدبرت أمر الرجلين ظهر لك على غاية الجلاء أن أدنى الرجلين إلى الظفر بصاحبه والفوز بغايته ، هو أبعدهما عن التقيد بالمناهج المقدسة . وكذلك كان الإمام — كرم الله وجهه — مع أعدائه يصف ولا يصفون ، ويتقيد ولا يتقيدون ، وفي هذا المعنى يذكر النقات من أهل العلم أن الناس في أزمنة السوء ينسبون أصحاب الغدر إلى الفطنة والدكاء ، فيقولون لمن يخدع ويغدر ويمكر إنهم أذكاء أكياس عقلاء ، ثم ينسبون أصحاب هذه الأخلاق إلى حسن الخيلة وصحة التدبير . غير أن الذي تقلب في الأمور وحنكته الخطوب والحوادث هو

(١) كتابة عن القتل .

الذى ينتهز فرصتها فيبادر إلى اختراعها ، فإنه لا يتأثم ولا يتحرج .

وما كان الإمام — كرم الله وجهه — ليرضى أمرا ينكره شرف الفطرة وبضيق به أدب الإسلام ، وآية ذلك : أن أهل الشام ملكوا عليه — في موقعة صفين — شريعة الماء وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشا ، فضاربهم على الشريعة حتى ملكها عليهم وطردهم عنها . فرغب إليه أصحابه أن يقتلهم بسيوف الظمأ ويمنعهم الماء قاتلين له : إنك إن فعلت أخذتهم أسرى قبضا بالأيدى دون حاجة إلى قتال . ولكن الإمام — كرم الله وجهه — أئى له شرف فطرته وقوة دينه أن ينزل على نصيحة أصحابه ، فقال لهم : إني لا أستحل ذلك ، وفي حد السيف عنه غنى . ثم أفرج عن الماء لأعدائه ، وقد كانوا حراصا على أن يقتلوه مع أصحابه بسلاح الظمأ ، ثم لم يقنع بذلك حتى قاسم أهل الشام الشريعة شطرين بينه وبينهم ، وتلك مكربة من أعظم مكارم الأخلاق .

وإذ قد كانت فضائل الإنسان تتبع في نفسه من نبع واحد وتستند إلى أصل واحد ، فإن مما يجرى مع هذه الفضيلة في قسمة الماء بينه وبين أعدائه فضيلة أخرى لا تقل شرفا عن صاحبها ، وتلك هي أن بعض أنصاره استأذنه في أن يبيت<sup>(١)</sup> معاوية رحمه الله ، فقال له الإمام : إن رسول الله — ﷺ — نهى أن يبيت المشركون ، فلا يبيتوا أنتم رجلا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ونتبه هذه السانحة لتذكرك أن هذه الأخلاق الشريفة التى كان يتعامل بها الإمام مع الناس ، قد أخذنا أبناءه وآل بيته منها بأوفر نصيب وأوفاه . ولذلك لم يستقم لهم أمر الحكم ولا أسلمت دنيا السلطان لهم قيادها ، إذ كان سلطان الحكم أدنى إلى أهل الدنيا منه إلى أهل الدين .

(١) التبيت : تقبل العرب ، بيت فلان بنى فلان إذا أتوهم بيانا فكبهم وهم غافلون من هو أن يطسوا فيؤخذون به ، فذلك هو التبيت وهو منى عنه حتى مع المشركين ، لأنه ليس من أخلاق الإسلام .



ذلك أن الدين يفرض على صاحبه أسلوباً في التعامل مع الناس يقيد حريته في الأُحد بما يدينه من غايته المطلوبة له ، على أن تكون تلك الغاية بمنأى عن كل ما يشين المروءة أو يعاند الدين .

وغر تلك الطريقة طريقة أصحاب الدنيا وطلاب الحياة ، فإنهم يضعون نصب أعينهم الظفر بمنافسهم والقوز دونهم بالسلطان لا يتحرون في ذلك حلالاً ولا يتحرجون من حرام ، وإنهم ليعلمون أن الناس معهم بمشاعرهم ومصالحهم ماداموا قد أدركوا غايتهم وظفروا بالسلطان .. وقد مهد لهذا اللون من الناس الشاعر العرفي السبيل إلى ما يسوغ هذا السلوك الذي لا يعنيه الحلال والحرام وإنما يعنيه شيء واحد ، أن الناس يقفون معه وقد نسوا ما اجترح من سيئات واقترف من خطايا ، فذلك حيث يقول شاعرهم :

والناس من يلقى خيراً قاتلون له ما يشئى — ولأُم المخطئى الجبل  
وتلك هى حال الإمام — رضى الله عنه — مع أعدائه ، فقد كان يتقيد بأدب الله وأدب رسوله بمقدار ما كان أعداؤه لا يعينهم هذا الأدب في كثير ولا قليل .  
ومصادق ذلك موقفه مع أهل الشام في قسمته الماء بينهم وبينه ، مع أنهم حاولوا أن يقتلوه مع أصحابه ظمئاً حين تمكنوا من السيطرة على الشريعة .  
ومصادق ذلك أيضاً نبيه أوليائه عن الغدر بأعدائه ، مع أنهم كانوا حراساً على الغدر به .

ومصادق ذلك أيضاً قبوله أبا موسى الأشعري في التحكيم بينه وبين معاوية ، مع العلم بأن أبا موسى ليس كفئاً لعمرو بن العاص في رأى الذين عاشوا الرجلين وعرفوا ما عند أى موسى من سلامة الصدر وشدة الحرص على إصلاح ذات البين بين المسلمين . إذ كان قد حمد الله على نعمائه حين انتهى إليه نياً رفع المصاحف ابتغاء الاحتكام إلى ما جاء في الكتاب العزيز من تفضيل الحلم على الجهل ، وإيثار السلام على الخصام . فلما قيل له إنك أحد الحكمين اعتبر ذلك مصيبة

يسترجع معها المسلم ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. والذين يتأملون في هذه الكلمات سرعان ما يواقع ظنونهم أن أبا موسى لم يكن صالحا لهذه المهمة الخطيرة ، وخاصة أن معه عمرو بن العاص الذى كان يتعصب لمعاوية ويقف إلى جانبه رغبة أو رهبة . على أن التفاوت بين الرجلين لم يكن أمرا خفيا على ما يقول الثقات من أن سيدا من سادات العرب قام إلى أفى موسى لما أراد المسير ، فقال له : يا أبا موسى إنك على وشك المسير إلى التحكيم ، فاعلم أنك قد قلدت أمرا عظيما لا يحجر صدعه ولا تستقال فتته ، ومهما ثقل من شيء ثبتت حقه وتبلى صحته وإن كان باطلا . ثم اعلم — يا أبا موسى — أنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم على . وتذكر — يا أبا موسى — أنه قد كانت منك تضيطة أيام الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا والرجاء منك يأسا . ثم قال له شريح في ذلك شعرا :

أبا موسى رميت بمكر عمرو      فلا تضع العراق فدتك نفسى  
ولا يخذلك عمرو إن عمرا      حليف المكر مطلع كل شمس  
له خدع يحار العقول فيها      موهمة مزعوفة بلبس  
وإن غدا يحى بما عليه      كذلك الدهر من سعد ونحس  
فلا تجعل معاوية بن حرب      لهذا الأمر رأسا أى رأس  
هناك الله للإسلام فردا      سوى عرس النبى وأى عرس  
فهذه العظة لأنى موسى من شريح بن هانئ يبلان على أن الرجل كان طيب القلب سليم دواعى الصدر .. والمؤمن أبدا غر كريم .

فلما سار أبو موسى سار معه وجوه القوم ، وكان آخر من ودعه الأخنف بن قيس فأخذ بيده ثم قال له : « يا أبا موسى اعرف خطب هذا الأمر واعلم أن له ما بعده . واذكر أنك إن أضعت العراق فلا عراق . فاتق الله تجمع لك التقوى دنياك وآخرتك .. وإذا لقيت عمرا — غدا — فلا تبدأ بالسلام وإن كان

سنة ، ولا تعطه يدك فإنها أمانة ، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة ، ولا تلقه إلا وحده ، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تحباً فيه لك الرجال والشهود .. فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي ، فليتنخذ أهل العراق من قريش الشام من شاعوا ، أو فليتنخذ أهل الشام من قريش العراق من شاعوا . فلما فرغ الأحنف من نصيحته لم يزد أبو موسى على أن قال له : « قد سمعت ما قلت » .. ولم يجد الأحنف في هذه الكلمة ما يدل على أن علياً في موضع الضن من صدر أبي موسى ، فرجع يقول للإمام : أي أننا بعثنا رجلاً لا ينكر خلقك . قال الإمام ما يقوله ربيب محمد رسول الله : « الله غالب على أمره » . ولقد كان طبيعياً أن يشيع أمر الأحنف وأبي موسى في الناس ، حتى يقول أحد الشعراء الفحول من شيعه الإمام :

لعمرك لا أنفى مدى الدهر خالعا	علياً بقول الأشعري ولا عمر
فإن يحكما بالحق تقبله منهما	وإلا أثرتها كراغمة البكر <sup>(١)</sup>
ولسنا نقول الدهر ذاك إليهما	وفي ذاك لو قلناه قاصمة الظهر
ولكن نقول الأمر والهي كله	إليه وفي كفيه عاقبة الأمر
وما اليوم إلا مثل أمس وإنسا	لنفي وشل الضحضاح أو لجة البحر

\*\*\*

فلما سمع الناس هذا الشعر شحذهم على أبي موسى ، واستبطاء القوم وظنوا به الطنون . ومكث الرجلان أبو موسى وعمرو بنومة الجندل لا يقولان شيئاً ، وكان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علياً ومعاوية . وكان رجلاً له بأس ورأى ومكان في قريش ولم يكن له هوى في علي ولا في معاوية .. وذات يوم أقبل راكب من بعيد فإذا هو عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال له سعد : مهيم<sup>(٢)</sup> . فقال : التقى الناس

(١) يزيد : أوقدنا ناز الحرب مششومة على المسلمين أجمعين

(٢) مهيم : كلمة استفهام ما حالئك ما شئت .

بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص ، وقد حضر ناس من قريش عندهما وأنت من أصحاب رسول الله ومن أهل الشورى ، وأنت الذى أمر النبی بأن تتقى دعوتك ولم تدخل فى شىء مما تكره الأمة ، فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . فقال أبوه له : مهلا يا عمر ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( تكون بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى ) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره ، ولو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبى طالب . وإنك قد رأيت أباك كيف وهب جقه من الشورى وكره الدخول فى الأمر .. وعند ذلك ارتحل عمر وقد استبان له أمر أبيه . وكان الحمد قد أبطأ على معاوية فبعث إلى رجال من قريش كرهوا أن يعينوه فى حربه ، قائلاً لهم : إن الحرب قد وضعت أوزارها والتقى هذان الرجلان فى دومة الجندل فاقدما على . فأتاه عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهم بن حذيفة العدوى ، وأتاه المعيرة بن شعبة وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب فقال له : ما ترى يا مغيرة ؟ قال : يا معاوية لو وسعنى أن أصرك لصرتك ، ولكن على أن آتيك بأمر الرجلين . فرحل حتى إلى دومة الجندل فدخلى على أبى موسى — كالزائر له — فقال : يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء .. قال أبو موسى : أولئك خير الناس حفت ظهورهم من دمائهم ، ومحصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى المغيرة عمرو بن العاص فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء ؟ قال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلا . وعند ذلك رجع المغيرة إلى معاوية فقال له : قد ذقت الرجلين .. أما عبد الله بن قيس فخالف صاحبه علياً وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر وهواه عبد الله بن عمر ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى تعرف ، وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه .

ثم يروى الثقة بعد أن ساق هذا الكلام فيقول : وعلى حين غفلة إذا صوت عبد الله بن عمرو بن العاص ينطلق من مكان خفى فيقول له : فأين أنت يا أبا موسى من معاوية ؟ فأنى عليه أبو موسى . فقال عبد الله بن عمرو : أأنت تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال : بلى . قال : أشهد . ثم قال : فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان ، ثم إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت . فإن حشيت أن يقول الناس ولي معاوية الأمر بلا سابقة .. فإن لك حجة أن تقول وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير ، مع أنه أحو أم حبيبة أم المؤمنين وزوج النبی ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة . فقال أبو موسى : اتق الله يا عمرو .. أما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف بولاه أهله ، ولو كان على الشرف يتولى الناس إمرة المؤمنين لكان أحق الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والفضل .. مع أنى لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفاً لأعطيته على أنى طالب . وأما قولك إن معاوية ولي عثمان ، فأنى لم أكن أوليه إياه لنسبه من عثمان وأدع المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لى بالإمرة والسلطان .. فوالله لو خرج لى من سلطانه ما وليته وما كنت أرشئى فى الله ، ولكنك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب . فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد بإحياء اسم عمر بن الخطاب أن تباع ابن عمر لديه فما يمنعك من ابنى عبد الله بن عمرو وأنت تعرف فضله وصلحه . فقال أبو موسى : إن ابنك لرجل صدق — يا عمرو — ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . ولا بأس أن تروى لك بعض كلمات فى هذا المعرض وربما انتفع بها الذين يحرصون على أمانة التاريخ ، فقد ذكر الثقات من أهل المعرفة أن أبا موسى الأشعري كانت فيه غفلة كان ينتهزها ابن العاص كلما امتهدت إلى ذلك سبيل . ومهما يكن من أمر فقد التقى الحكمان فى دومة الجندل ، وبدأ دهاء عمرو يؤتى أكله . وكان أول ذلك أن عمراً أخذ يقدم أبا موسى فى الكلام قائلاً له : إنك

صحب رسول الله ﷺ قبل ، وأنت — مع ذلك — أكبر منى سنا فتكلم أنت ثم أتكلم أنا . فجعل ذلك سنة وعادة بينهما . ولم يكن الأمر يعدو أن يكون مكرًا وخديعة ومقدمة لخطئة رجمها عمرو بهداء وإحكام بقومان على نظر بعيد حين تسنح الفرصة ، وذلك أن يكون أبو موسى قد ألف تقدم عمرو في الكلام كما يكون الناس قد ألفوا ذلك منهم فلا يستغفرون . ثم بالغ عمرو في إحكام الخطئة فكان يعطيه التقدم في الصلاة وفي الطعام فلا يأكل حتى يأكل ، وإذا تحدث إليه خاطبه بأجل الأسماء فيقول له يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى اطمأن إليه أبو موسى وظن أنه لا يفتشه . فلما انخفضت الزينة بينهما ، قال له عمرو : أخبرني ما رأيك يا أبا موسى . قال : أرى أن أخلع هذين الرجلين ونجمل الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاعوا . قال عمرو : الرأي — والله — ما رأيت . فأقبل إلى الناس وهم مجتمعون فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة . فقال عمرو : صدق أبو موسى . ثم قال : تقدم فتكلم يا أبا موسى . فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس قائلاً له : ويحك ، والله إنى لأظنه خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقد مه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده . فإني لا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قتت به في الناس خالفك . ثم قام أبو موسى فقال : لقد اجتمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي معاوية وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين وإني قد خلعت عليًا ومعاوية جميعًا فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى ، فقام عمرو فقال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة فإنه ولي عثمان وأحب الناس بمقامه . فلما فرغ الرجلان قام رجل على عمرو فقصه بالسوط وحمل ابن عمرو على الرجل فقتله بالسوط فقام الناس فحجزوا بينهما . وقد كان علي عند التحكيم مقيمًا بالكوفة فلما بلغه حكم الحكامين وحمل له وخطب الناس فقال : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل . ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحيا ما أمات واتبع كل منهما هواه وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية فكلاهما لم يسترشد الله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير . ومن هنا بدأت الفتنة أشد ما كانت بلاء على الإسلام والمسلمين . والله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو ولي التوفيق .

## علَى بين الغلاة والقلاة

إن من الحق أن نقضى حق هذا العنوان بتوضيح معنى الكلمتين فيه :—  
« غلاة » و « قلاة » ، فنقول وبالله تأييد ومنه — سبحانه — نستمد المعونة  
والتوفيق : إن كلمة « غلاة » جمع غال على مثال قاض ، والمراد بالغال هنا كل  
من جاوز حد الاعتدال في حب الإمام على كرم الله وجهه . وعلى هذا النحو  
كلمة « قلاة » فإنها جمع قال على مثال قاض أيضا ، والمراد بالقال هنا كل من  
أبغض — أشد البغض — علياً رضي الله عنه .

ثم إن شر مما تخضعت عنه بحنة التحكيم بين على كرم الله وجهه وبين معاوية  
رضي الله عنه ، مولودان شائهان كان لهما أسوأ الأثر في حياة الأمة الإسلامية ،  
فعنهما انصدع صفها وتشتت شملها وتفرقت كلمتها ، حتى طمع فيها أعداؤها  
ويش منها أولياؤها .

وهذان المولودان الشائهان يحمل أحدهما راية الغلو في حب على ، ويعمل  
الآخر راية الغلو في بغضه ، فكلاهما عدو له — كرم الله وجهه — ، وكلاهما  
موضع لسخط الله وبلاء على الإسلام والمسلمين .

ولست نجد أسلوبا صالحا لوصفهما في العاجل والآجل ، إلا أن تضعهما في  
نطاق الآية الكريمة من سورة الحج ﴿وَمِنَ الثَّامِرِ مَنْ يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ  
أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١) .

وعلى أن كتابنا هذا ليس كتاب تاريخ لا نجد ندحة عن الإكثار بمحدث عن

الطائفتين : طائفة الشيعة ، وطائفة الخوارج . والله المسئول أن يعصمنا من الزلل وأن يجنبنا الخطأ إنه أعظم مأمول وأكرم مسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .  
فأما طائفة الشيعة فإننا نعني بهم في هذا الحديث « الغلاة » الذين وضعوا علياً في منزلة الألوهية ، على ما يقرر ذلك العلامة الشهرستاني في كتابه الملل والنحل . فيذكر أن من طوائف الشيعة الغلاة النصيرية ، ثم يذكر عن النصيرية أنهم يقولون : إن في عليّ جزءاً إلهاً وقوة ربانية . وهم يستدلون على ذلك بقلعه باب خيبر إذ كانت القوة البشرية لا تستطيع ذلك ولا قبل لها به . وثمة طائفة أخرى تدعى « الإسماعيلية » ، والفرق بين النصيرية والإسماعيلية — فيما ذكر الشهرستاني — أن النصيرية أميل إلى تقرير الجزء الإلهي في عليّ ، وأما الإسماعيلية فإنهم أميل إلى تقرير الشركة في النبوة بين محمد وعليّ .

ولست ترتب في أن أولئك وهؤلاء ينتظمهم الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه عبد الرحمن بن عليّ الشيباني في التيسير ، عن معاوية رضى الله عنه وفيه يقول : قام فينا رسول الله ﷺ — فقال : ( ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة : ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ) ، وهي الجماعة . وقد زاد في رواية : ( .... وسيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب<sup>(١)</sup> بصاحبه ، لا يبقى معه عرق ولا مفصل إلا دخله .

ففي هذا الحديث بيان من رسول الله ﷺ لأمرين :

أولهما : أن الفرقة الناجية في الأمة المحمدية هي الفرقة التي تلزم جماعة المسلمين . ولن تجتمع هذه الجماعة إلا على حق يستند إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ — ثم إلى اجتهاد أئمة الأمة وولاة الأمر فيها من العلماء والأمرأ رضى الله عنهم .

(١) ذاء يصيب الكلب فلا يعض معه إنساناً إلا صر به كلباً مسعوراً .



وثاني الأمرين : أنه — ﷺ — لفت أمته لفتا يستدعى الحذر ، فبين أن في هذه الأمة من سيخرج على جماعتها خروجا يسوقه إليه هواه . وأن هذا الهوى يجري فيه كما يجري الكلب في جسد من عضه الكلب المسعور ، فتعرض له أعراض رديئة فاسدة قاتلة لا يستعصى عليها في الجسم الإنساني شيء إلا أصابته بدائها ، سواء في ذلك العروق والمفاصل وكل ما يجري فيه دم الإنسان ، فإذا الإنسان الذي كرمه ربه بالعقل والمروعة والوقار ينبح نباح الكلب حتى لا يشك من يسمع صياحه في أنه إنما يسمع صياح كلب عقور .

وأنت إذا تمثلت هذا الحديث النبوي الشريف — على ما ينبغي له من عناية واهتمام ، فإنك لا تشك في أن الغالين في حب عليّ كرم الله وجهه كالأقالين له كلاهما يدخل في نطاق هذا الحديث النبوي الشريف ، وكلاهما هنالك لا محالة .

كما يؤكد هذا المعنى حديث آخر : ( يهلك فيك — يا علي — اثنان : محب غال ومبغض قال ) .

وقد كانت مبادئ أولئك الغلاة من الشيعة مهذا لدعوة ثورية ، تنفيا للهدم ممعنة في العمل على سحق تعاليم الإسلام سعيا إلى تحطيم السلطة السياسية الإسلامية التي تقوم على تلكم التعاليم .

وكانت الطائفة الإسماعيلية الباطنية أنشط طوائف الشيعة هؤلاء في نشر تعاليم الهدم لسلطان الإسلام . وإلى تلك الطائفة الغالية ينتمي أعظم الدعاة الثوريين المتأمرين ، وهو عبد الله بن ميمون القلاح سليل فقيه ملحد من جنوب فارس يدعى ميمون بن ويسان . وما كان ابن ميمون هذا يبحث عن أنصاره بين الشيعة الخالص ، ولكنه كان يلتصقهم بين الملحدين والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية والحاقدين من كل جنس وكل مذهب وكل ملة ، وإلى هؤلاء أنفضى بسره وخفي عقيدته ، وهي أن الأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية من البشر .

وغمر خفى على البصراء أن ذلك الفوضى الملحد كان يتجنب الاستعانة بالنفوس المخلصة والعقول الكبيرة ، إذ كان دعاته يحرصون على إخفاء حقيقة عواطفهم وعقائدهم فيحادثون كل طبقة باللغة التى تفهمها وعلى المعانى التى تروقها فتستأسر لها . وربما لجأوا إلى أعمال الشعيرة التى قد يعثرها عامة الناس وسفلة القوم معجزات أو كرامات . ولقد أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة عجيبة هى أن جمهرة عظيمة من رجال يعتقدون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معا لإدراك غاية لا يعلمها إلا القليل أو أقل القليل منهم . وحق علينا لك أن نلفتك إلى أن الشيعة الإسماعيلية فهم مخلصون غيارى على الإسلام والمسلمين ، كما أن فهم ملاحدة باطنيين يترصدون النواثر بالإسلام والمسلمين .

ومن هؤلاء الباطنية الملحدتين الجمعية السرية المهائلة التى يطلقون عليها اسم « الفداوية » . وقد كان الفداوية هؤلاء يربون مذ الحداثة على المخاطرة والتضحية المطلقة واحتقار الحياة الدنيا التى ينبغى الفرار منها والزهد فيها إلى الحياة الآخرة ذات النعيم الخالد الذى لا يحول ولا يزول . فكان زعماء الجمعية الفداوية المقدسون يربون أعضاء جمعيتهم تربية لا يملكون معها لأنفسهم وسيلة من وسائل الاختيار . ذلك أنهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحصينة فى ربوع الجبال حدائق غناء ذات بهجة ، وقد غرست فيها أطيب الفواكة وأزكى الأزهار والورود ، إلى جانب الفوارات والشلالات البديعة ، ثم يزينون ذلك كله بأنفس الرياش والبسط ، وقد غصت بالفتيات وهن يطفن بأقلام ذهبية من الخمر . وكل من تلوح فيه النجابة والإخلاص من الفتية الفداوية يدعونه إلى مجلس شيخ الجبل ، ثم يسقونه جرعة من شراب مخدر لعله هو الحشيش ، ثم ينقل — خفية — إلى إحدى هذه الحدائق الغناء ويرج به إلى إحدى الأبياء الضخمة فينام بضربة المخدر ، ثم يستيقظ على ألحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارات الشاعرة . ثم يسقونه المخدر ثانية لينقلوه خفية أيضا إلى مجلس شيخ الجبل ، فإذا انتبه أكدته

الشيخ أنه لم ينتقل عن مكانه وأن الذي رآه إنما هو الفردوس بكل ما فيه من لذات ومتع . ثم يلفتة إلى أنه يفوز بهذا الفردوس إلى الأبد إن هو أحسن طاعته لقادته وبذل نفسه في سبيل الله .

وأمام هذه الصورة العجيبة التي لا يرق إليها الخيال ، لا يجد إبليس مندوحة عن التحلى عن أحاييله ومكائده لأولئك الحبياء الذين يتآمرون ذلك التآمر . ويدبرون هذا التدبير . ولك بعد ذلك أن تخيل المجتمع الإنسانى الذى تسلط عليه هذه الأفكار بتلك الخطط التى لا تستقيم معها حياة ولا يقى فى سلطانها أحياء .

هذا وأما الخوارج فإليهم الإشارة فى قصة يرونها الإمام ابن كثير ، وفيها أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إلى أصحابه من بيوت بعض نسائه ، فقام وقاموا معه فانقطعت نعله فتحلف عليها على يخصصها . فمشى رسول الله ﷺ ومشى معه أصحابه ، ثم قام ينتظر علياً وقام أصحابه معه . فقال ﷺ : ( إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ) . فاستشرف أصحابه لهذه البشرى وفيهم أبو بكر وعمر ، فقال — صلوات الله عليه — : لستم أنتم ولكنه خاصف النعل . يعنى ﷺ علياً — كرم الله وجهه — . وقد شرح أهل الحديث الذين يقاتلهم على تأويل القرآن كما قاتلهم النبى على تنزيله ، فقالوا : إن هؤلاء التأولين هم الناكثون طلحة والزبير ، ثم القاسطون أنصار معاوية ، ثم الملقون الخوارج على أهل الإسلام .

ومن الحق علينا لمن يقرأ كتابنا هذا أن نذكر له مبدأ ظهور الخوارج شيئاً من سيرتهم ، فقول وبالله تأييد ومنه تعالى نستمد المعونة والتوفيق .

حين استمرت نار الحرب بين أنصار الإمام على من أهل العراق وأنصار معاوية من أهل الشام ، قام عبد الله بن عمرو بن العاص ثم نادى : يا أهل العراق أنا عبد الله بن عمرو بن العاص ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للمدين أو

للدنيا ، فإن تكن للدين فقد أعزنا وأعزتم ، وإن تكن للدنيا فقد أسرفنا وأسرفتم . وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتونا إليه لأجبتكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله ، فاعتموا هذه الفرصة عسى أن يعيش فيها المحترق وينسى فيها القتل ، فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل . فأجابه سعد بن قيس الحمداي فقال بلسان أهل العراق : يا أهل الشام إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا وقد سميتوها غدا وسرفا ، وأنتم اليوم تدعوننا إلى ما قاتلناكم عليه أمس ، وما كان لأهل العراق أن يرجعوا إلى عراقهم ولا لأهل الشام أن يرجعوا إلى شامهم بأمر أجل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه .

فقام الناس إلى على كرم الله وجهه فقالوا له : أجب القوم إلى المحاكمة . ثم قام الأشعث فخطب أصحابه من كتلة ثم قال : « يا معشر المسلمين قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا من القتال والقتل وما ضي في من العرب ، وقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن تواقفنا غدا فلا مندوحة من فناء العرب وضيمة الحرمات . أما والله لا أقول هذه المقالة جزعا من الحرب ، ولكني رجل مسن أخاف على النساء والنزاري إذا فئنا . اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم أقصر ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

وقد مضى القوم يتناقلون كلمات الأشعث الكندي فيقولون : لئن التقينا غدا لتقبل الروم على ذراري أهل الشام ونسائهم ، ولتقبل فارس على ذراري أهل العراق ونسائهم . وإنما يتسقى هذا الخطر المترص ذوو الأحلام والنبي . وعن هذه الكلمة رفعت المصاحف على أطراف الرماح ، وثار أهل الشام في سواد الليل ينادون : يا أهل العراق من لذرارينا إذا قتلتمونا ومن لذراريكم إذا قتلناكم ؟ فإله الله في البقية منا ومنكم . ثم أصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرماح ، ومصحف دمشق الأعظم بحمله عشرة رجال على رءوس الرماح وهم ينادون :

كتاب الله بيننا وبينكم . ومن هنا انطلق القوم إلى التحكيم في كتاب وقعه الإمام — كرم الله وجهه — ومعاوية غفر الله له .

فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود وتراضى الناس ، خرج الأشعث بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس ويعرضها عليهم . فمر على صفوف من أهل الشام فأسمعهم إياه فرضوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق فأسمعهم إياه فرضوا به . حتى إذا مر برايات قبيلة عنزة وقرأه عليهم قال خيانتهم : « لا حكم إلا لله » . ثم حملا على أهل الشام بسيفيهما فقاتلا حتى قُتِلَا على باب رواق معاوية .

ثم مر الأشعث بنسخة الكتاب على قبيلة مراد فقال رئيسهم : ما لعلّى في الدماء قد حكم لو قاتل الأحزاب يوما ما ظلم ثم أخذ يتف : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . فهنا هو مبدأ ظهور الخوارج . ومع ذلك الجو المفعم بالخلاف مضى التحكيم إلى غايته فحكم القوم أبا موسى وعمرو بن العاص .

هذا ما يتعلق بالعلاة في حب عليّ وهم الشيعة ، وأما ما يتعلق بالغلاة في بغضة وهم الخوارج ومن ظاهريهم ، فإن أصدق حديث عنهم حديث رسول الله ﷺ فقد أخرج ثقات المحدثين — وفي طليعتهم البخاري ومسلم — أن عليّا كرم الله وجهه — قال : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا ، فوالله لأن أحر من السماء أحب إليّ من أن أقول عليه ما لم يقل ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة . وإن سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من حبر قول البهية ، ويقرعون القرآن لا يتجاوز إيمانهم حناجرهم ، يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ) . ففى هذا الحديث بين رسول الله ﷺ خصائص الخوارج يانا لا يشوبه غموض ولا إبهام .

وقد ألزمهم النبي ﷺ صفة المروق من الدين حتى سارت في دنيا الإيمان والمؤمنين مسحة الأمثال السائرة والحكم المسلمة ، فإذا طرقت كلمة المروق مسامع الناس لم تكن لها دلالة إلا على الخوارج .

وإلى جانب هذه الصفة شعار للخوارج يجتمعون تحت لوائه ويحكمون إلى منطقته وإن يكن منطقاً غير مفهوم ولا مسلم عند أرباب العقول ، ذلك أنهم لزموا هذه الكلمة التي ترشد إليهم وتدل عليهم وهي كلمة « لا حكم إلا لله » . وفي تسقيفه هذه الكلمة يقول — كرم الله وجهه — : « إنها كلمة حق يراد بها باطل . نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : « لا إمرة إلا لله » . وأنه لا بد للناس من أمر يرأو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع الكافر ، ويجمع به القوى ، حتى يستريح البر ويستراح من الفاجر » .

ويرى الثقات من أهل العلم أن الإمام حين سمع تحكيمهم قال : « حكم الله أنتظر فيكم » . ثم قال : « أما الإمرة البرية فيعمل فيها التقى ، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته » .

إن أحداً من أهل البصر بشئون الاجتماع البشري لا يرتاب في أن علياً — كرم الله وجهه — قد لقي من العنت وشدة الهول ما تنوء به شم الجبال وهو يتعامل مع القالين له ، حتى لقد كان — رضى الله عنه — أحق بقول الشاعر :

لقد زادني حبا لنفسي أنسى      بغيض إلى كل امرئ غير طائل  
وأنى شقى بالثلم ولن ترى      شقيا بهم إلا كريم الشائبيل

والذين يطالعون كتب التاريخ — في تدبر واستبصار — لا يسعهم إلا الإيمان البصير بأنه — كرم الله وجهه — سلك كل السبل إلى اقناعهم ورجعهم إلى الصواب الذي هربوا منه وتنكروا له ، ولكنه لم يجد إلى اقناعهم سبيلا . وقد كان مع أهل بيته الميامين حريصا على جمع الكلمة ، ولم الشمل ، ووحدة الصف ، يحاول ذلك حيناً بالحجة النيرة والبرهان الساطع ، يتحدث إليهم خطيباً بينهم ،

وحينا يبعث إليهم برجل من أهل البيت الهاشمي يخادتهم ويخادونهم ويخادهم ويخادونهم على ما يركى ذلك المؤرخ البصر والحدث الثقة صاحب كتاب « صفين » ، فذلك حيث قال رحمه الله : « لما رجع على — كرم الله وجهه — من صفين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى استجمعوا ثم خرجوا إلى صحراء حروراء وهناك تنادوا : « لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » . ألا إن علياً ومعاوية قد أشركا بالله رب العالمين . ولم يسمع الإمام — كرم الله وجهه — إلا أن يرسل إليهم عبد الله بن عباس فنظر في أمرهم وكلمهم ، ثم رجع إلى الإمام فسأله : ماذا رأيت ؟ قال ابن عباس : والله ما أدري ما هم . قال علي : رأيتهم منافقين ؟ قال ابن عباس : والله ما سيماهم بسما المنافقين لأن بين أعينهم أثر السجود ، ولكنهم يتأولون القرآن .

وعلى أثر هذا الحوار بين الإمام وابن عمه ، أصدر — كرم الله وجهه — كلمة تقوم مقام القانون في الدول المعاصرة : « دعوهم لا تتعرضوا لهم مالم يسفكوا دماً أو يغصبوا مالاً » . ثم أرسل إليهم — كرم الله وجهه — يقول لهم : ما هذا الذي أحدثتم وماذا تريدون ؟ قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصفين ثلاث ليال ونسب إلى الله من أمر الحكامين ، ثم نسبر إلى معاوية فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه .

وأنت لا ترتاب — أعزك الله بالحق — في أن الإمام لو استجاب لهذا الرأي فخرج على ما اقترح المتأولون ، لكان انتصاره على معاوية أمراً محتوماً لا شك فيه . ولكنه أتى هذا وأنكره وضاق به صدرا بين الإقبال عليه والإعراض عنه . ولو أنه كان من الذين يحسنون المكر ويسلكون سبيل الدهاء لقبول هذا الاقتراح ، ولكنه كان وفيما للحق لا يطلب النصر بأي ثمن ومن أية طريق .. ولكنه يطلبه من الطريق المشروعة التي تسيغها المروعة ويرضاها الإسلام . فذلك هو المنهج الذي وضعه وألزم نفسه السر في طريقه والاستشارة بهداه حيث قال في خطبته : « إن

الوفاء توأم الصدق . لا أعلم جمة أوقى منه ، ولا يغتر من علم كيف المرجع ، ولقد أصبحنا في زمان اتخذ أكثر أهله الفدر كيسا وعقلا ، ثم نسبهم أهل الجهل في زمانهم إلى حسن الحيلة . ولقد يرى الذي تحول وتقلب في الأمور ، وحنكته الخطوب والحوادث وجه الحيلة واضح المعالم ، غير أنه لا ينتهز فرصتها ولا يبادر إلى اغتنامها من له في الدين حجة تلزمه التقوى وتمنعه الخداع .

ولئن كانت هذه الكلمات الشريفة تستهدف أشرف مكارم الأخلاق ، إنها لتحول في الوقت نفسه بين القائد وبين الانتصار . ذلك أن الحرب خدعة ، فإذا التقى قائدان لحركتين متناقضتين وأحد القائدين يلتزم قانون الأخلاق والآخر يطلب النصر على أى وجه ومن أية طريق ، إنك لا ترتاب في أن صاحب القانون الخلقى الرفيع غير قادر على أن يثبت لخصمه الذى لا يبالي قانونا ولا يتقيد بتشريع . وكذلك كان سلوك الإمام — كرم الله وجهه — وتلك كانت سجيته وشيمته . فقد ملك أهل الشام عليه الماء بصفين وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشا ، فضاربهم الإمام على مورد الشاربة حتى ملكه . فقال له جنده وشيعته : اقتل خصومك بسيف العطف وامنعهم الماء تأخذهم قبضا بالأيدى . ولكنه رفض ذلك لأنه تصرف بأباه الإسلام من حيث أن الجميع كانوا يستظلون بالعلم الذى يحمل شعار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس يليق بمن ينتصر للإسلام أن يخرج على الإسلام وهو يزعم أنه وليه يتأدب بأدبه ويتحرى مرضاة الله فيه .

ولقد ورث عن الإمام هذا الخلق الشريف أبنائه من بعده في أخبار كثيرة ليس إلى حصيها سبيل . فقد كان القوم أصحاب دين وليسوا من الدنيا في شيء . وإذا طلبوها فإنما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالإمرة في الدنيا ، فلم يستقم لهم ذلك لأن الدنيا أميل إلى أهلها منها إلى الزاهدين فيها .



ومهما يكن الغدر وسيلة إلى تحقيق الأطماع فقد كان الإمام على يرفضه ،  
 لقول رسول الله ﷺ : ( لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ) .  
 ومن هنا حرص أشد الحرص على أن يتعامل مع الناس في صراحة ووضوح ،  
 فلا يقابل أهل الغدر بالغدر ، وقد بغضى عن أهل الشر رجاء أن يهديهم الله سواء  
 السبيل . ولو شئت أن تعرف طرفا من فضائله في وصف بعض أحفاده له ، لكان  
 عليك أن تبحث في بطون الكتب عن الكلمات الشريفة التي وصفه بها جعفر  
 الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب  
 رضي الله عنهم أجمعين . فذلك حيث يروى الثقات أنه قيل لجعفر الصادق : إن  
 قوما هاهنا ينتقصون عليا — كرم الله وجهه — فقال : بم ينتقصونه لأبائهم ؟  
 وهل فيه موضع نقیصة ؟ والله ما عرض لعلي أمران كلاهما لله طاعة إلا عمل  
 بأشدهما وأشقهما . ولقد كان يعمل العمل كأنه قائم بين الجنة والنار ينظر إلى  
 ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له . وإن كان ليقوم إلى  
 الصلاة فيقول : ﴿ وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً وَمَا  
 أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) . فإذا تلا تلك الآية — مفتتح الصلاة — تغير لونه  
 حتى يعرف ذلك في وجهه . ولقد أعتق ألف عبد من كذب يده كلهم يقر في  
 جيبه وتخفي فيه كفه . ولقد بشره مبشر بعين نبعث في ماله فلم يزد على أن قال :  
 بشر الوارث ، بشر الوارث . ثم جعل العين صدقة على الفقراء والمساكين وابن  
 السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، رجاء أن يصرف الله النار عن وجهه  
 ويصرف وجهه عن النار .

ولقد روى عنه الثقات كلمته : « لا والله لا يحبني كافر » ، وعن أبي سعيد  
 الخدري رضي الله عنه قال : كنا بنور إيماننا نحب علي بن أبي طالب ، فمن أحبه  
 عرفنا أنه منا ، وإلا عرفنا أنه ليس منا بسبيل .

\*\*\*

أما وقد انتهى بنا القول في الخوارج إلى هذا الرأي ، فإن من الحق الذي لا نجد عنه محيصاً أن تنوج هذا الحديث بكلمات لعالم أزهري جليل القدر ، ملم بأكثر العلوم الإسلامية التي تقوم على التحري لصحة السند وصدق الخبر وشرف الغاية ، فنقول والله تعالى المستعان :

قال العالم العلامة سيد بن علي المرصفي في كتابه رغبة الآمل : الخوارج جمع الخارجة ، وهم الطائفة الذين نزعوا أيديهم عن طاعة ذوى السلطان من أئمة المسلمين بدعوى ضلالتهم وعدم انتصارهم للحق . ولهم في ذلك مذاهب ابتدعوها وآراء فاسدة اتبعوها . واعلم — رحمك الله — أن أبا العباس الميرد أطلق لسانه في أخبار الخوارج فأورد لها منتثرة النظام دون أن يجعل لكل طائفة حدا تنهى إليه . فبينما هو يحدث عن طائفة إذا هو يشب فيحدث عن طائفة أخرى في غير عصرها .

وقد ذكر في كتابه الكامل « الصُفْرى » ، وهى — بضم الصاد — نسبة إلى صفرة ألوانهم من كثرة صيامهم النهار وقيامهم الليل .

ثم لما عزم هؤلاء الخوارج على أن يبايعوا لواحد منهم يدعى عبد الله بن وهب الراسي ، وقد آثروه على غيره على الرغم من قوله لهم : يا قوم دعوا الرأى يغب ، وإياكم والرأى الفطير والكلام القضيب ، فإن غيوب الرأى يكشف للمرء عن فضه<sup>(١)</sup> ، وازدحام الجواب مضلة للصواب .

وقد كان عبد الله بن وهب الراسي ذارأى وفهم وشجاعة ولسان ، ولكن الرجل على شدة تمسك القوم به رفض أن يلى أمورهم لأنهم لا يكادون يشنون على رأى ، مع سوء تأويلهم لكتاب الله وخضوعهم لأهوائهم دون هدف واضح ولا غاية مستبصرة .

---

(١) نص الأمر : أصله ومرجه .

وإذا أردت أن تدرك مبلغ التناقض وسوء التأويل في تصرف هؤلاء  
المساكين ، فإليك ما يرويه الثقات من أصحاب الأخبار :

أقبل ذات يوم عالم سلفى جليل في رفقة له يطلبون غاية لهم تعينهم على  
معاشهم ومعادهم ، وفيما هم في الطريق إلى غايتهم أحسوا الخوارج  
فخافوهم ، ولكن العالم الجليل الذي كان معهم طمأنهم طالبا إليهم أن يدعوا  
الأمر له بدون أن يشاركوا فيه . ومضى الراكب حتى إذا بلغوا موقف الخوارج  
ومركز قيادتهم سألوهم : ما أنتم ؟ فقال الرجل العالم المجرب : نحن مشركون  
مستجبرون لنسمع كلام الله ونعرف حدوده . فقالوا له : قد أجرناك أنت  
وأصحابك . فقال لهم الرجل : علمونا . فجعلوا يعلمونه أحكامهم وجعل هو  
يقول : قد قبلت أنا ومن معي . قالوا : فامضوا إذن في رعاية الله فإنكم إخواننا .  
قال الرجل ليس ذلك لكم إذ كان الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَخَذَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ اسْتِجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبَعَهُ مَائِنَهُ ذَلِكَ  
يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال الخوارج : ذلك لكم إذن أن نصاحبكم إلى غايتكم . فساروا بأجمعهم  
معهم حتى بلغوهم المأمن .

فهؤلاء قوم أنجاهم من الخوارج قولهم لهم نحن مشركون . ولو قالوا لهم نحن  
مسلمون لقتلوهم . وذلك بلا ريب عجيب في منطق العقل ومنطق الإسلام .  
وقد ذكر أهل العلم — فيما يشبه التواتر — أن عليا — كرم الله وجهه —  
كان قد وجه إليهم عبد الله بن عباس ليناظرهم ، فلما بلغ عملهم قال لهم :  
ما الذي تقمتم على أمر المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكم في  
دين الله خرج من الإيمان ، فإذا اعترف بكفره وتاب إلى ربه ، عدنا له بررة أو فداء .

قال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن أن يقر على نفسه بالكفر إذا علم من نفسه أن إيمانه بالله لم تحالطه شبهة ولم يمازجه ريب . قالوا له : إنه قد حكم . قال ابن عباس : إن الله قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد في الحرم وحال الإحرام ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَظْلٍ مِنْكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> . فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : لقد حكم عليٌّ فلم يرض بالحكم . فقال ابن عباس : إن الحكومة مثل الإمامة فإذا فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقوالهما . فقال الخوارج بعضهم لبعض : إن هذا من قريش فهو من القوم الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وإذ قد كان الشيء يذكر بالشيء ، فقد جاء في الحديث أن رجلاً أعرايا أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : إني أصبت ظلياً وأنا محرم . فالتفت عمر إلى عبد الرحمن بن عوف قائلاً له : قل ! فقال عبد الرحمن : يهدي شاة . فقال عمر للأعرابي : أهد شاة . فقال الأعرابي : والله ما درى أمير المؤمنين ما فيها حتى استفتى غيره . فخففه عمر بالثرة وقال : أتقتل في الحرم وتضعف الفنيا ؟ إن الله عز وجل قال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَظْلٍ مِنْكُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> . فأنا عمر ابن الخطاب وهذا عبد الرحمن بن عوف وقد حكمنا .

ومن طريف أحبار الخوارج قول أحدهم ، وكان من الذين قعدوا عن الخروج إلى الحرب :

أبا خالد فانقر فلست بخالد      وما جعل الرحمن عنرا لقاعد  
أترعم أن الخارجى على الهدى      وأنت مقيم بين لص وجاحد  
فكتب إليه أبو خالد شعرا يقول فيه ردا على شعره :  
لقد زاد الحياة إلى حبا      بناتى لإنهن من الضعاف

أحاذر أن يرمن الفقر بمدى وأن يشربن رنقا بعد صاف  
وأن يعرشن إن كسى الجوارى فتبو العين عن كرم عجاف  
ولولا ذاك قد سومت مهري وفي الرحمان للضعفاء كاف  
أهانا من لنا إن غبت عنا وصار الحى بعدك فى اختلاف  
وليس يخفى عليك — حفظك الله — أن القوم كان يترص بعضهم ببعض  
ويختلف بعضهم مع بعض ، فإذا قال أبو خالد أحد القعدة من الخوارج هذا  
الشعر الذى مر بك آنفا ، فلا يدعه الخوارج يمر فى الناس حتى يعارضوه  
بشعر مثله . ففى ذلك قال عمران بن حطان يحرض على الخوارج وبذل النفس  
فى سبيل مبادئ أولئك الملاحين من الخوارج :

لقد زاد الحماسة إلى بغضا وجبا للخروج أبو بلال  
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذرا العوالى  
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أنى بلال لم أبال  
فمن يك هم الدنيا فإنى لها والله رب البسيت قال  
وحق لك عليا أن نلفتك إلى أن أبا بلال الذى يتغنى بحبه الخوارج هو  
مرداس بن أدبه ، وفيه يقول عمران بن حطان يرثيه بعد أن قتل :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه يارب مرداس اجعلنى كمرداس  
تركى هاتما أبكى لمرزأتى فى منزل موحش من بعد إيناس  
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس  
أما شربت بكاس دار أولها على القرون فذاقوا جرعة الكاس  
فكل من لم يذقها شارب عجلا منها بأنفاس ورد بعد أنفاس  
هنا وقد كان القوم يطاردون وفى ذورهم عمران بن حطان ، وكان  
عمران هنا علما أديبا شاعرا .. وذات يوم عرف أمير المؤمنين عبد الملك بن  
مروان منزل عمران بن حطان فقال لأحد بطانته : اذهب إليه فجننى به .

فذهب الرجل إليه فقال له : إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك . فقال  
عمران : لقد أردت أن ألقاه ولكنى لم أستطع ذلك ، فإني لأحمد الله أننى لم  
أقابل هذا الرجل عبد الملك بن مروان . ثم أنشد يقول :

لو كنت مستغفرا يوما لطاغية كنت المقدم فى سرى وإعلانى  
لكن أبى لى آيات مطهرة عند السلاوة فى طه وعمران  
ثم ارتحل الرجل حتى نزل بصديق له من بنى كلاب يدعى « زفرة » ،  
وكان عمران يطيل الصلاة وكان غلمان من ذوى قرياه يضحكون منه ، فأتاه  
رجل ذات يوم فسلم عليه ثم قال له : إن كنت خائفا آمناك ، وإن كنت فقيرا  
جيرانك . فلما أمسى هرب وخلف رقعة يقول فيها :

مازلت تسألنى حولا لأخبركم والناس من بين مخنوع وخناع  
فاكف لسانك عن لومى ومسألنى ماذا تريد لى شيخ لأوزاع  
وعلى فحش مسلك هؤلاء القوم وإزعاجهم الآمنين ، كانوا يسيئون أبلغ  
الإساءة لى كتاب الله الكريم فيتناولونه على غمر وجهه . ذلك أنهم كانوا  
يقتلون أطفال المسلمين ، فإذا لامهم على ذلك لائم فزعوا لى كتاب الله  
يلتمسون فيه ما يصلح فى سوء نظرهم وسفه أحلامهم أن يكون سندا لهم فى  
تصرفهم الشنيع .

وذات يوم خطب خطيب يشهر بالخوارج ويرمىهم بأنهم أعداء الله وأنهم  
سلكوا مسالك لا تقبلها مروءة ولا يرضاها دين .

وما إن سمع القوم بهذا التشهير ورأوه يجرى على ألسنة الناس حتى قام  
خطيبهم يقول : إنا حين نفعل ذلك إنما نستند إلى الآية الشريفة التى تقول على  
لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ  
ذِيْلًا ۚ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُغْلِبُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْبَثُوا إِلَّا فَاْجِرًا كَفَرًا ۝ ﴾ (١) .

قال الخراجي : فحين نقتل الأولاد نحمل المجتمع من كفرهم وشرهم  
إذا كفروا ، إذ قد كان الله تعالى قد أخبرنا أن أولاد الكافرين سيكونون  
كافرين مثل آبائهم .

ولست ترى — حفظك الله — تأويلا للقرآن أسوأ من هذا التأويل الذي  
لا تنصره لغة ولا يسوغه دين .

ومن أعجب العجب في حديث هؤلاء الخوارج ما يذكره صاحب  
الكامل عن مرداس أبي بلال ، فقد كان رجلا تعظمه الخوارج ، فلقبه ذات  
يوم صاحب خير وكان له جواسيس يأتونه بأخبار الأمر عبيد الله بن زياد ،  
فقال صاحب الخبر لأبي بلال : لقد سمعت الأمر البارحة يذكر البلجاء  
وأحبها ستؤخذ إلى السجن أو إلى القتل . وقد كانت البلجاء هذه شديدة  
التعصب للخروج على أمراء المؤمنين وعماهم ، فذهب أبو بلال إلى البلجاء  
يخبرها أو يبشرها أو ينصح لها فقال لها : استري يا بلجاء فإن هذا المسرف  
على نفسه قد ذكرك ، وإني أخاف عليك . قالت : إن يأخذني فهو أشقى  
ني ، فأما أنا فليست أحب أن يموت إنسان بسببي . وقد كان ما توقعه أبو بلال  
فقد وجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى إليه بها ، فقطع يديها ورجليها ورمى بها في  
السوق ، فعل الحاكم الأحق الذي يدعو الناس إلى شدة المقت له والخروج عليه  
حتى يتمنوا أن يزول سلطانه على أي وجه وبأي أسلوب . وقد كان من الذين  
دعاهم الحق إلى الخروج على الأمير .. أبو بلال ، إذ مر بها وهي ملقاة في  
السوق والناس مجتمعون عليها بين شامت وساخط ، فسأل أبو بلال :  
ما هذا ؟ فقالوا : تلك هي البلجاء . فخرج إليها فنظر ثم عض على شفته ثم  
قال : إن هذه لأطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس . ثم إن عبيد الله بن زياد  
تبع الخوارج فحبسهم وحبس مرداسا معهم ، فرأى صاحب السجن شدة  
اجتهاده وحلاوة منطقة فأثر ذلك في نفسه تأثرا شديدا ، فعرض عليه أن يوليّه

معروفا ، فقال له : أفرايت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك ، أتعود بعد أن تقضى حاجتك من رؤية أولادك ؟ فأنعم له مرداس وشكر له حسن صنيعه . وكان يفعل ذلك في كل ليلة يذهب إلى بيته ثم يعود إلى سجنه تحقيقا لما وعد به حارسه . وذات يوم كلم عبيد الله بعض الحمقى من بطانته قائلين له : اقمع النفاق قبل أن ينجم ويستفحل ، فإن كلام هؤلاء الخوارج إلى الناس أسرع إلى القلوب من النار إلى يابس الحطاب .

فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرطة ، فقال ابن زياد : ما أدري ما أصنع هؤلاء ؟ وإنى كلما أمرت رجلا من الشرطة بقتل رجل منهم فتكوا بالقاتل . والله لأقتلن من في حبسى منهم أجمعين . ومضى السجنان على عادته مع مرداس فأخرجه إلى منزله كما كان يفعل ، وقد شاع في الناس أمر الوالي بعزمه على قتل من في سجنه أجمعين . فلما كان السحرياً مرداس للرجوع إلى الحبس فقال له أهله : اتق الله في نفسك فإنك إن رجعت قتلت وأهلك في حاجة إليك . فقال مرداس : لا والله ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجنان فقال له : إنى علمت ما عزم عليه صاحبك . فأجابه السجنان : ثم رجعت مع علمك هنا ؟ قال : نعم . وإذا زميل للحارس يحىء فيخبر عن مرداس قائلا : لقد مر مرداس بأعرابي يهنا بعيرا له وبطلية بالقطران من الجرب ، فتحرك البعير من حرارة القطران حركة المألوم . وبعد ذلك سقط مرداس مفشيا عليه فظن الأعرابي أنه قد صرع ، فذهب إليه وقرأ في أذنه آيات من القرآن . فلما أفاق قال له الأعرابي : لقد قرأت في أذنتك . فأجابه مرداس : ليس بي ما خفته على من الصرع ، ولكنى رأيت بعيرك هرح من القطران فذكرت به قطران جهنم فأصابني ما رأيت . فقال له حارسه : أنت والله رجل طيب ولن أفارقك أبدا .



وقد كان مرداس قد شهد موقعة صفين مع الإمام على — كرم الله وجهه — ولكنه أنكر التحكيم ونجا من كل ما كان يحيط به من أسباب الموت . فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى أنه جاد في طلب الخوارج ، عزم على المعاناة بالخروج قتالا لأصحابه : والله ما يسنا المقام بين هؤلاء الظالمين . والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإن تمريد السيف وإخافة السيل لعظيم أيضا .. ولكننا ننتبذ عنهم ولا نجرد سيفا ولا نقاتل إلا من قاتلنا . فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلا حالقهم وحالفوه على الموت في انتصارهم لفكرهم الجائر وتصرفهم الباطل وتكرهم للإسلام والمسلمين . حتى كانت الطامة التي شقبت الدنيا بها إلى اليوم ولا تزال تشقى بها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الطامة العظيمة والفجيعة الأثيمة هي قتل الإمام بأيدي أولئك الفجرة الخارجيين .

ولعل أول نذير يقتل الإمام كرم الله وجهه ، تلك الخطبة التي توجه بها إلى الخوارج قتالا في صرامة النوى لا يخشى إلا ربه : أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم أثر يأتى الحديث . أبعد إيماني بالله وجهادى مع رسول الله ﷺ ، أشهد على نفسى بالكفر كما تطلبون ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتلين . ألا فأوبوا شر مآب .. وارجعوا على أثر الأعقاب .

أما إنكم ستلقون بعدي ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة .

فقى هذه الكلمات يقول الإمام كرم الله وجهه هؤلاء البغضاء إلى الله ورسوله والمؤمنين : ارجعوا شر مرجع . ثم يقول لهم داعيا عليهم : لا بقى منكم غير ، ثم يقول لهم أيضا : عودوا على أثر الأعقاب . وقد أخذ الإمام كلمته هذه من قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِينَ اسْتَفْهَوْا الشَّيَاطِينَ ﴾ (١) . الآية .

ولست تحتاج إلى من يذكرك بأن الخوارج هؤلاء قد وقع لهم ما دعى به الإمام عليهم بعده ، الذل الشامل ، والسيف القاطع ، وما زالت حالهم تضمحل حتى أفنهم الله وأفنى جمهورهم بعد أن شمت بهم العدو ، وزهد في مودتهم الصديق .. وذلك شأن الغلاة في كل زمان ومكان .

ومن أعجب ما يآثره الثقات من حديث الخوارج ، أنه كان قد انتبى إلى الإمام قوله خطيب يتوجه بها إليه : « يا أمير المؤمنين قد هلك القوم بأجمعهم » . فقال كرم الله وجهه : « كلا والله إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء . كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلايين » .

ومع أن الإمام رضى الله عنه وصف هؤلاء القوم بما يسلكهم مع الشياطين ، إلا أنه كرم الله وجهه نبى عن قتالهم متجها بالحديث إلى الذين يستمعون القول فيندبرونه : « لا تقاتلوا الخوارج من بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » . وقد كان أمرا سائعا أن يتوقع أهل النظر البعيد شرا للإمام على أيدي الخوارج ، فذهب إليه من يحذره من الخوارج ويذكر له أنهم أهل خيانة وغدر ، وربما يفكرون في اغتياله ليخلو لهم الطريق إلى ما يريدون من فتل وقطع طريق . فلما بلغ الإمام هذا التحذير قال كلمته واثقا بقدر الله وبأنه لا يرد الحنر القدر ، فذلك حيث قال : « إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتى ، فحينئذ لا يعطش السهم ولا يبرأ الكلم » .

ثم أنشد شعرا يقول فيه كرم الله وجهه ورضى الله عنه :

أى يومئى من الموت أفر      يوم لا يقبلر أم يوم قذر  
يوم لا يقبلر لا أرهبه      ومن المقسلور لا ينجو الحنر

## ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

لقد انفرجت الجنة عن الإمام وأسلمته إلى قاتليه من كلاب النار .  
ففى سنة أربعين من الهجرة الشريفة ، وفى يوم حمعة من شهر رمضان قُتل  
الإمام كَرَّمَ الله وجهه .

وتفصيل الخبر فى ذلك أن جماعة من الخوارج اجتمعوا قتلناكروا أمر الناس  
وعابوا على ولائهم ما شاء لهم الهوى أن يعيبوا ، ثم ذكروا أسلافهم الذين قتلوا  
من قبل فى معركة النهروان فترحموا عليهم وهم يقولون : ما نصنع بالبقاء  
بعدهم ؟ وهم الذين كانوا دعاة الناس إلى عبادة الله لا يخافون فى ذلك لومة  
لاهم . فحبذا لو بعنا أنفسنا لله فأتينا أئمة الضلال فالتمسنا قتلهم ، إذا لأرحنا  
منهم البلاد ولأخذنا بثأر إخواننا . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبى  
طالب . وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان . وقال  
عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . ثم تعاهدوا وتوثقوا بالله  
لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه بقتله أو يموت دونه .  
فأخذوا أسياهم فسقوها مما قاتلوا وتواعدوا السبع عشرة نخلو من رمضان أن  
يثبت كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه . وأقبل كل رجل منهم إلى  
المصر الذى فيه صاحبه .

فأما ابن ملجم المرادى فكان عناده فى كنده ، فخرج فلقى أصحابه  
بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئا من أمره . ثم لقى ابن ملجم فى  
ذلك اليوم امرأة تدعى قطام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان وكانت المرأة  
فائقة الجمال . فلما رآها ألبست بعقله ونسى حاجته التى جاء لها ، ثم خطبها  
ليتزوجها فقالت له : لا أتزوجك حتى تشفىنى . قال : وما يشفىك ؟

قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب . قال : هو مهر لك . فقالت له : اتخمس غرته ، فإن أصبت شقيت نفسك ونفسي وبنوك العيش ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . فأجابها : والله ما جاء فى الخارجى إلى هذا المصر إلا قتل على ، فلك ما سألت . قالت : اطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت إلى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها . ثم ذهب ابن ملجم إلى رجل من أشجع يقال له شبيب بن بجرة فقال له : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : قتل على بن أبى طالب . فقال له الرجل : ثكلتك أمك . لقد جئت شيئاً إداً ، كيف تقدر على على ؟ قال : أكنم له فى المسجد ، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه . فإن نجونا شفيناً أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال الرجل : ويحك ! لو كان غير على لكأن أهون على . لقد عرفت بلاءه فى الإسلام وسابقتة مع رسول الله ﷺ ، وما أجدنى أنشرح لقتله . قال : أما تعلم أنه قتل أهل الهر العباد الصالحين ؟ قال : بلى أعلم . قال : فقتله بمن قتل من إخواننا . فأجابه إلى ما دعاه إليه . ثم جاعوا قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة ، فقالوا لها : لقد اجتمع رأينا على قتل على . فقالت المرأة : إذا أردتم ذلك فأتوني . ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قُتل فى صبيحتها على سنة أربعين فقال : هذه الليلة التى أوعدت فيها صاحبى أن يقتل كل منا صاحبه . فدعت لهم بالحريز فعصبتهم به ، وأخذوا أسياфهم وجلسوا فى مواجهة السدة التى يخرج منها على . فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه فى عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف . وهرب وردان حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بنى أبيه وهو ينزع الحريز عن صدره ، فقال : ما هذا الحريز والسيف ؟ فأخبره بما كان وانصرف . فجاء فعلاً به وردان فقتله ، ثم خرج شبيب نحو

أبواب كنيسة في الغلس ، وصاح الناس فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر وفي يد شبيب السيف ، فأخذه وجثم عليه الحضرمي . فلما رأى الناس قد أقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده ، خشى على نفسه فتركه ونجا شبيب في غمار الناس ، فشدوا على ابن ملجم فأخلوه . إلا أن رجلا من همدان يكنى أبا آدماء أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه . وتأخر على وتقدم جمعة بن هبيرة فعصى بالناس العداة : ثم قال كرم الله وجهه : على بالرجل . فأدخل عليه فقال له : ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى أحسنت . قال : فما حملك على هذا ؟ قال : لقد شحذت سيفي أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال كرم الله وجهه : لا رآك الله إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه . وما يذكر في هذا المقام أن محمد بن الحنفية قال : كنت أصلي تلك الليلة التي ضرب فيها على في المسجد الأعظم ، وكان معي كثير من أهل الكوفة يصلون قريبا من السنة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود وما يسأمون من أول الليل إلى آخره . فلما خرج على لصلاة الغداة جعل ينادي : أيها الناس الصلاة . الصلاة . فنظرت إلى بريق وسمعت الكلمة : « الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك » . ثم رأيت سيفا ، ثم سمعت عليا يقول : لا يفوتكم الرجل . وشد الناس عليه من كل جانب ، ثم لم أبرح حتى أخذ ابن ملجم وأدخل على علي ، فدخلت فيمن دخل من الناس فسمعت عليا يقول : « النفس بالنفس ، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي » . ثم دخل الناس على الحسن بن علي فرعين لما حدث ، فبينما هم عنده وابن ملجم مكثوف بين يديه ، إذ قالت أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : يا عبد الله إنه لا بأس على أبي ، وإن الله مخزئك . فقال الملعون : فعلت من تبكين ؟ لقد اشتريت السيف بألف ، وسقيته السم بألف ، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل الكوفة ما بقي منهم أحد .

وبذكر أهل الثقة أن جندب بن عبد الله دخل على علي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فقدناك — ولن نفقدك — أفنباع الحسن ؟ فقال كرم الله وجهه : « لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر » . ثم دعا الإمام حسنا وحسينا فقال لهما : « أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بقتكما ، ولا تيكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للأخيرة وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم نصرا ، واعملا بما في الكتاب ، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم » . ثم نظر إلى ابنه محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال علي : فإني أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمرا دونهما . ثم قال للحسن والحسين : أوصيكما به فإنه ابن أبيكما ، وقد علمتا أن أباكما كان يحبه . ثم قال للحسن : أوصيك أي بني — بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة . وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، وحلم عند الجهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الأمر ، والتفاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، واجتباب الفواحش ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلوة والصيام » . انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب . الله الله في الأيتام فلا تنوا أفواههم ، ولا يضيعن بحضرتكم . والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم صلى الله عليه وآله . والله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب الله . والله الله في ذمة نبيكم فلا يظلمن أظهركم . والله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله أوصى بهم .

والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم ، وقولوا للناس حسنا ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت وأستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ثم أنهاكم عن المثلة . ثم سكت عن الحديث رضى الله عنه فلم يطق إلا بلا إله إلا الله محمد رسول الله حتى قبض وهو يقول : « يا بنى عبد المطلب لا ألفتكم تخوضون دماء المسلمين فتقولون قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتل إلا قاتلي . انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إياكم والمثلة ، ولو كانت بالكلب العقور » .

فلما قبض رضى الله عنه بعث الحسن إلى ابن ملجم فقال للحسن : هل لك في خصلة فيها خير لك ومرة لقلبك ؟ قال الحسن : نعم . قال ابن ملجم : ألتمني أذنك . قال الحسن رضى الله عنه : أما هذه فلا . فقال له جلساؤه : لعل في خبره خيرا فألقمه أذنك . قال الحسن : إنه يريد أن يقضها والخبيث لا أمان له . وقد انتهب ابن ملجم هذه الساعة قال : « والله الذى لا إله إلا هو لو مكنتي منها لأخذتها من صماخها . ومضى ابن ملجم يقول في صوت خفيض يسمعه الحسن دون جلسائه : إني والله ما أعطيت الله عهدا إلا وفيت به ، ولقد كنت قد أعطيت الله عهدا عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خليت بيني وبين العهد الذى أعطيته ربي ، ولك عهد الله أن أقتل معاوية . فإن لم أقتله أو قتله ثم بقيت أن أتيتك حتى أضع يدي في يدك فإما قتلتني وإما تركتني لأني قد ثارت لك . ولم يسمع الحسن إلا أن يقول له : لا والله حتى تمانى النار . ثم قدمه فقتله ، ثم أخذه الناس فأدبروه في الحصور ثم أحرقوه بالنار .

هنا .. وأما البرك الذى كان قد أخذ على عاتقه قتل معاوية فإنه فى تلك الليلة التى ضرب فيها على قعد لمعاوية بالشام ، فلما خرج ليصلى الغداة شد عليه بسيفه فوقع السيف فى إلبته . فأخذ إلى معاوية فقال له : إن عندى خبرا يسرك ، فإن أخبرتك فهل ينفعنى ذلك عندك ؟ قال معاوية : نعم . قال البرك : إن أخا لى قتل عليا الليلة . قال معاوية : لعله لم يقدر على ذلك . قال بلى ، إن عليا يخرج ليس معه من يحرسه . فأمر به معاوية فقتل . ثم بحث إلى الساعدى الطيب فلما نظر إلى معاوية قال : اختر إحدى خصلتين إما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة فيها دواؤك ولكنها تقطع منك الولد ، فإن ضربتك مسمومة . فقال معاوية — غفر الله له — : أما النار فلا صبر لى عليها ، وأما انقطاع الولد فإن فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى . فسقاه الطيب تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها . ثم أمر معاوية بعد ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد .

وأما عمرو بن بكر الذى كان قد أخذ على عاتقه قتل عمرو بن العاص فقد ذهب إلى مصر وراح يرصد عمرو بن العاص فى الليلة المهددة ، غير أن عمرا لم يخرج للصلاة لأنه كان يشتكى بطنه فأناب عنه خاتمة بن حنيفة صاحب شرطته ، فخرج ليصلى فشد عليه وهو يعتقد أنه عمرو بن العاص فضربه فقتله ، فأخذه الناس فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة . فقال الرجل : من هذا الذى تسلمون عليه بالإمرة ؟ فأجابوه بأنه عمرو بن العاص أمير مصر . فقال : فمن قتل إذن ؟ قالوا : قتل خاتمة بن حنيفة صاحب شرطة عمرو . قال : أما والله ما ظننته غيرك يا عمرو بن العاص . فقال عمرو : لقد أردت أن أرى الله ولكن الله أراد خاتمة ، فقدمه عمرو فقتله فبلغ ذلك معاوية فكتب إلى عمرو :



نحوت وقصد بل المرادى سيفه      من ابن أئى شيخ الأباطح طالب  
ويضربنى بالسيف آخر مثله      فكانت علينا تلك ضربة لازب  
وأنت تناغى كل يوم وليلة      بمصرك يضا كالغباء السوارب  
وهنا قال ابن أئى ميامى المرادى فى قتل على :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة      كمهر قطاه من فصيح وأعجم  
ثلاثة آلاف وعبد وقينة      وقتل على بالحسام المسمم  
فلا مهر أغلى من على وإن غلا      ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم  
وقال أبو الأسود الدؤلى يروى عليا :

أئى شهر الصيام فجمعونا      بخير الناس طرا أجمعنا  
قتلتم خير من ركب المطايا      ورحلها ومن ركب السفينا  
إذا استقبلت وجهه أئى حسين      رأيت البدر راع الناطرينا  
لقد علمت قريش حيث كانت      بأنك خيرها حبا وديننا

## عند الشدائد تذهب الأحقاد

لا يزال الناس تحركهم الخصومات فتحبب إليهم الباطل وتبغض إليهم الحق ، فإذا استأثرت رحمة الله بأحد الخصمين عبت نار الخصومة في صدر صاحبه ، ثم اعترف له بما كان يمتاز به من جلال الأعمال وحمائد الخصال . وكذلك كان سلوك أمر المؤمنين معاوية بإزاء علي — كرم الله وجهه — فقد سمع رجلا يقول له : جئتك يا معاوية بعد قتل أبيخل الناس علي بن أبي طالب . فتغير وجه معاوية ثم قال له : ويحك ! كيف تقول هنا ؟ كيف تقول إنه أبيخل الناس وهو الذي لو ملك بيتا من تبر وبيتا من تبن . لأنفد تبره قبل تبنه ؟ ثم هو الذي كان يكس بيوت الأموال ويصلى فيها ، ثم هو الذي قال : يا صفراء ويا بيضاء غرا عيرى . ثم هو الذي لم يخلف موراثة وقد كانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام .

ولقد كان الإمام علي كرم الله وجهه على ما وصفه الشعبي فقال : إنه أسخى الناس ، وإنه على الخلق الذي يحبه الله من السماحة والسخاء ، فما قال لسائل قط : لا . ولقد يذكر الناس أن أهل البصرة حاربوه وضربوا وجوه أولاده بالسيف ثم سبوه ولعوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ثم نادى مناديه في أقطار العسكر : لا ، لا تتبعوا موليا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا مستأسرا . ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر على فهو آمن . وغير خفى أنه في هذه الأخلاق الكريمة لم يكن مبتدعا ولكنه كان متبعاً لسنة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لما تبرد والإساءة لما تحفت معاملها . ولو أنك تركت ذلك كله إلى سجاحة الأخلاق وبشر الوجه وطلاقة الحيا ، لرأيت أنه المضروب به المثل في كل ذلك حتى عابه به

أعداؤه ، فقال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دعابة شديدة . ولقد كان الإمام مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين قد مسه الطوى ، إذ كانت هيبة تلك هبة التقوى . وقد بقى هذا الخلق الشريف متوارثا متناقلًا في محبيه وأوليائه وآل بيته حتى يوم الناس هذا ، ومن له أدنى معرفة بأحلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك له كما يعرف الصفاء للسماء واللطف للهواء .

وأنت إذا شئت معنى الزهد في الدنيا فرحت تلتسمه فيه فإنك ستره سيد الزهاد وبذل الأبدال ، وإليه تشد في ذلك الرحال ، فإنه ما شبع من طعام قط . وكان أعشن الناس مأكلا وملبسا ، حتى قال في ذلك عبد الله بن أبي رافع : دخلت على الإمام يوم عيد فقدم جرابا محتوما فوجدنا فيه خبز شعير بابسا مرضوضا ، فقدم فأكل . فقلت : يا أمير المؤمنين كيف تحتمه على هذه الصفة فيه ؟ فقال كرم الله وجهه : لقد خفت هذين الولدين أن يخلطاه بسمن أو زيت . وكان ثوبه مرقوعا بجلد تارة ولبيف أخرى . وأما العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصياما ، ومنه تعلموا صلاة الليل وملازمة الأوراد . وأحب أن ألفتك — حفظك الله — إلى أن هذه الكلمات التي سقناها إليك في هذا الفصل هي من الرواة الثقات من أوليائه وأعدائه على سواء ومما ينبغي أن تلقى بالك إليه أن بعض الذين وصفوه للنيل منه كانوا يقفون عند الظاهر مما يحتمله اللفظ من المعاني ، كما تراهم يقولون : إنه لا رأى له . فاعلم رحمك الله أن أعداءه إنما قالوا ذلك فيه لأنه كان متقيًا بالشرعة لا يرى خلافها ولا يعمل بما يقتضى الدين تحريمه ، على ما قال هو نفسه : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب . على حين أن غيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه . ولست ترتاب في أن من يعمل بما يؤدي إليه اجتهاده دون قيود إنما تكون أحواله الدنيوية أقرب إلى الانتظام منها إلى الانتشار ، ومن تقيد بالشرع أو بالقانون كانت أحواله الدنيوية أقرب إلى الانتشار منها إلى الانتظام .

## أعذب الشعر أَرْضَاهُ لِلْحَقِّ

تلك القضية في هذا العنوان ليست إلا نسخاً لقضية تشابهها . يقول القائل « أعذب الشعر أكذبه » . ذلك أن حلالة الشعر العربي ماثلة في سمو خياله وحسن نظمه وشرف غايته . والكذب على قبح سيرته وشؤم مجاله يناقض الجمال أشد مناقضة ، إلا عند أولئك الذين يطيب لهم أن يرتعوا في مراتع خيال شائته الصورة وخيم الظلال .

ومبلغ علمي بك أسعدك الله أنك تكره الكذب في مختلف صورته وشئ مساراته ، ذلك أن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى نار الدنيا ونار الآخرة . ولقد يعرف الناس كما تعرف أنت أن من أهل المروءات من يأثر الناس عنه الكلمة التي تقول : لو لم أترك الكذب لإرضاء للدين لتركته لإرضاء للمروءة . فتأمل هذه المعاني — وأنت تقرأ للشريف الرضي شعراً يرى فيه واحداً من سواد الناس لا يمتاز بفضيلة ترفع من قدره أو تعلو من ذكره ، فتراه يقول في رثاء صديقه هنا :

أعلمت من حملوا على الأعواد      أرأيت كيف خبا ضياء النادى  
جبل هوى لو خر في البحر اغتدى      من وقعته متابع الإزبد  
ما كنت أدري قبل حطك في الثرى      أن الثرى يعلو على الأطواد

وأنت إذا تأملت ذلك القول على ما ينبغي له بالإضافة إلى المقول فيه ، رأيت أن هذا الشعر غير خليق بمن قيل فيه . ولو قد كان لشعر أن يختار أحق الناس به لكان لهذه الأبيات أن تختار الإمام علياً كرم الله وجهه دون سواه من الأشراف والأبطال الذين تلدهم الأيام ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد استشهد الإمام بضربة سيف من غادر فاجر ثم دفن ، لعلك تتطلع  
إلى شعر قيل فيه يتراءى جماله وعذوبته في الصدق أبعد ما يكون من الكذب ،  
حيث قال شاعر عربى عريق العروبة شديد الولاء للإمام من أهل العراق :  
يا قبر سيدنا المحسن له صلى الله عليه وسلم عليك يا قبر  
ما ضر قطرا أنت ساكنه ألا يحل بأرضه قطر  
فلينديس سماح كفك في الثرى وليورقن بجنبك الصخر  
ونفترض بك هذه الفرصة لنذكرك بما لا يليق بك أن تغفل عنه وهو أن  
وحدة الفكر التي تتراءى في أبناء الأمة العربية الإسلامية ، ليست لها أسباب  
دعت إليها وحملت عليها إلا أدب الإسلام وثقافته القائمة في صدور المسلمين  
على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ثم على المأثور من تصرف أسلافنا  
الصالحين . ولذلك يستحس المسلم أمرا من الأمور أو تصرفا من  
التصرفات ، فإذا كل مسلم يشاركه في هذا الاستحسان مهما اختلفت  
بالمسلمين يثابتهم المنزلية والإقليمية . وآية ذلك ماثلة في العاطفة نفسها هي  
التي أوحى إلى الشاعر المصرى الذى ينتسب إلى دار العلوم انتساب معرفة  
وثقافة ، وأعنى به المرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب ، فذلك حيث قال :  
أعزنى ذات أجنحة لعل بها ألقى على السحب الإماما  
وإمام بنى الهدى وهو ابن تسع وأول مسلم صلى وصاما  
أبا السبطين كيف تقى المعاني تشارا في مديحك أو نظاما  
مقامك دونه نُجِبُ القسواف وإن كانت مومة كراما  
بنفسى إذ تجود بغير نفس تخاف على الخيفة أن تضاما  
ألا تب يد بالفرد ثارت تمد إلى أى حسن حماما  
لو أن السيف كان له خيل لمبرد عنه وانتلسم انتلاما  
ولكن القضاء جرى برزء به انحلت عرى الصبر انفصاما  
إلى دار السلام مضى على وجولر في منزلها السلاما

فهذا شعر تراءى عنونه في الصدق وليس في الخيال المريض .  
ونتتيز بك هذه السائغة لئلا تفتك إلى رواية كذوب تقرر للتافهين من خلق  
الله أن الإمام — كرم الله وجهه — وضع في صندوق وحمل على بعير ثم أرسل  
البعير يسير حيث يشاء . ووجه الكذب في هذه الرواية البغيضة يرشد إليه  
ما رواه ابن أبي الحديد مما يؤثر أن نرويه لك عن كتابه شرح نهج البلاغة ،  
فذلك حيث قال : إن أولاد الرجل أعرف بغيره . وأولاد كل الناس أعرف  
بقبور آبائهم من الأجانب . وقد سئل الحسين بن علي رضي الله عنهما : أين  
قبرتم أمير المؤمنين ؟ قال رضي الله عنه : خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة حتى  
مررنا به على مسجد الأشعث ، حتى انتهينا به إلى الظهير بجانب العري وهناك  
قبر كرم الله وجهه .

وهذا القبر هو الذي زاره بنوه لما قدموا إلى العراق وفي طليعتهم جعفر  
الصادق بن محمد الباقر . وقد مضى على أثر جعفر الصادق في زيارة القبر  
الشريف كل أولاد وأحفاد وأولياء الإمام .

على أن من أهل العلم من يذكر أن قبره الذي يزوره الناس اليوم إنما هو قبر  
المغيرة بن شعبة ، وهو كما ترى كلام لا يوثق به ولا يطمئن إليه ، ولعله أدنى  
إلى كلام الأعداء الكاشحين مه إلى كلام الأولياء الصالحين . وأيا ما كان  
الأمر فقد مضى الإمام إلى غاية ينتهي إليها بنو آدم بغير فرق بين أمير ومأمور  
ورئيس ومرعوس ، غير أنه مضى وقد خلف موته على هذه الصورة الأسيفة  
فتنا كثرة عصفت بالأمة ، واغترصت فرصتها شياطين الإنس والجن يفسدون  
على البشرية سلام الدنيا وسلامة الدين .

ولو كان للإمام كرم الله وجهه وللخلفاء الراشدين من قبله أن يستوا للأمة  
تركيزية من يخلفهم ويقوم بأمر الأمة من بعدهم ، لقد كان من شأن ذلك أن  
يلطف نار الفتن التي استعرت في العالم الإسلامي. ينفخ في نارها المحرص على

الجله والجنشع إلى السلطان . ولكنهم جميعا — رضى الله عنهم — ضاقوا قراها بالكسروية والقيصرية فأثروا أن يتركوا الأمر شورى ، كما أراد للأمة الإسلامية رسول الله ﷺ . والله المستول أن يجمع الكلمة ويهلم الشمل ويوحد الصف على خطة فى الحكم تسعد بها دنيا المؤمنين ، ولا يضيق بها صدر الإسلام الخنيف . ولعلك سائل بعد ذلك عن السر الذى دفعنا إلى أن نقول هذه الكلمات ، وهو سر لا يمكن حجبها ولا يليق الضن به لأنه مكشوف معروف ، وهو أن الإمام الحسن بن على لحق بأبيه شهيدا أيضا كما لحق هو وأبوه بالشهداء من قبله .. عمرو وعثمان وسائر الذين اختلفوا اختلافا أوجعا ، يثر الماراة فيه ما يتمثله أحدنا فى كلمة أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو يقول : لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نأخذ بنصال السهام إذا غشنا مجتمعات الناس خشية أن تصيب النصال بالأذى المسلمين ، غير أننا اليوم يسندها بعضنا فى صلور بعض .

كان أبى سعيد يقول هذه الكلمات وهو لا يملك دمه من شدة ما كان يتمثل أمر رسول الله ﷺ حازما صريحا يستبقى للناس الأمن والسكينة والسلام . ولئن كان أبى سعيد الخدرى قد استسلم لأسى عنيف ودمع غزير ، إننا لا نستطيع ذلك لأننا لا نطمع فى أن نسمو إلى الآفاق العليا التى كان يعيش فيها بأرواحهم وذكرياتهم أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم . وإذا كان لا بد من كلمة تمضى بصاحبها فى هذه الطريق الشريفة ، فهى أن نعاهد الله تعالى على الدأب لدعم قواعد العدل ورفق ألوية السلام .

## الإمام الحسن في منصب أبيه

كان أمرا محتوما على الأمة بعد رحيل الإمام إلى الله رب العالمين أن يتابع للحسن بن علي بالخلافة ، وقد كان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة فقال له : أبسط يدك أبياعك على كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ وقتال الْمُحَلِّين . فقال له الحسن — رضى الله عنه — لا يريد القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ، ثم يدخل في الجماعة . وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافق على رأيه فعزله وأمر عبد الله بن عباس : فلما علم عبد الله بن عباس بالذي يريد الحسن أن يأخذه لنفسه ، كتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه ، فأجابته إلى ذلك معاوية . ثم خرج الحسن بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفا ، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن . فبينما الحسن في المدائن إذ نادى مناد في العسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا . ففر الناس ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته ، وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . فلما رأى الحسن تفرق الأمر عليه بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن جندب فقدموا على الحسن بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه . ثم قام الحسن في أهل العراق فقال : يا أهل العراق إنه يسخر نفسى عن الإمارة ثلاث ، قتل أبى وانتهاك سرادق ومنزعتى بساطا كان تحتى . ثم دخل الناس في طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة وقد كتب الحسن إليه في الصلح وطلب الأمان . ثم قال الحسن للحسين وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب : إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح . فقال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحذوثة معاوية وتكذب



أحدثه على . فقال له الحسن : اسكت فأنا أعلم منك . فلما انتهى كتاب الحسن بن علي إلى معاوية . وأرسل معاوية عبد الله بن عامر — كتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية . فقام قيس بن سعد في الناس فقال : يا أيها الناس اختاروا إما الدخول في طاعة إمام ضلالة ، وإما القتال مع غير إمام . فقالوا : بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة ولا نقاتل مع غير إمام . ثم بايعوا لمعاوية وانصرف عنهم قيس ابن سعد .

في هذه السنة سنة ٤٠ بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ، وقد كان عليّ كرم الله وجهه يدعى بالعراق « أمير المؤمنين » وكان معاوية يدعى بالشام « الأمير » ، فلما قضى علي كرم الله وجهه ودخلت سنة إحدى وأربعين دعى معاوية أمير المؤمنين ، وسلم الحسن فيها الأمر إلى معاوية فدخل الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة ، ثم لم يلبث الحسن رضي الله عنه إلا قليلا حتى طعن طعنة أشوته فنالت منه ولكنها لم تصب مقتله .

## كذلك يكون ريب النبوة

إن أولى الناس برسول الله ﷺ من يحكم نفسه ويسمو بها فوق الأحقاد إيثارا لمكارم الأخلاق . وكذلك كان أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فما يعرف التاريخ أنه خضع لنزوة أو استسلم لشهوة ، شأن أحرار النفوس الذين نشأهم بيت النبوة في ظلال وارفقة من كرم المروعة وأدب الإسلام . وآية ذلك الذى نقول ما يرويه الثقات من البصراء بأحداث التاريخ أن حجر بن عدى الكندى ، خرج فى أصحاب له يظهرون البراءة من أهل الشام وفى طليعتهم معاوية ، فأرسل الإمام كرم الله وجهه إليهم يقول لهم : كفوا عما بلغنى عنكم . فحاء إليه القوم مع زعيمهم حجر فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق ؟ قال بلى . فقالوا : أليسوا هم مبطلين ؟ قال الإمام : بلى هم مبطلون . فسأله القوم : لم منعنا من شتمهم إذن ؟ قال : كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . وخير لكم أن تصفوا صاويء أعمالهم فتذكروا من سبهم ما يقوم مقام شتمهم ، فذلك أصوب فى القول وأبلغ فى العذر . وحينما لو استبدلتم بذلك كله دعاء صالحا لهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا . وأصلح ذات بينهم وبيننا . اللهم وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغي من لهج به . ولم يسع القوم إلا أن يحميوا الإمام بقولهم : نقبل عظمتك وتنادب بأدبك . ثم يقول له أحدهم فى لهجة الخطيب : والله يا أمير المؤمنين إني ما أحبيتك ولا بابعتك على قرابة يبنى وبينك ، ولا على إرادة مال تؤتيني ، ولا اتقاس سلطان ترفع ذكرى به . ولكننى أحبيتك بمخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله ﷺ وآله ، وأنت أبو الغيرة التى بقيت فينا من رسول الله ، وأنت أسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظم

المهاجرين سهما في الجهاد . ولو أننى كلفت نقل الجبال الرواسى أو نزع البحور الطوامى فى أمر أقوى به وليك وأهين عدوك .. ما رأيت أنى قد أدبت كل الذى يحق على من حقتك . فقال كرم الله وجهه باسطا يديه إلى السماء : اللهم نور قلبه بالتقوى واهده إلى صراطك المستقيم . ثم التفت إلى القوم يقول لهم : لبت أن فى جندنا مئة مثل هذا . فقال حجر بن عدى : لو كان ذلك لصح جندك وقل فهم من يمشك . ثم وقف حجر وجعل يقول : يا أمر المؤمنين نحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها ونتنجها ، وقد ضارمتنا وضارمتها ، ولنا أعوان وعشرة ذات عدد ، ورأى مجرب وبأس محمود ، وأزمتنا متقادة لك بالسمع والطاعة . فإن شرقت شرقنا وأن غربت غربنا ، وما تأمرنا به فعلنا . فقال له كرم الله وجهه : أكل قومك يرى مثل رأيك ؟ قال الرجل : ما رأيت منهم إلا حسنا ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة .

وإذا كان لكل موقف عبرة ، فإن عبرة هذا الموقف أن الذين نبى الإمام عن سبهم أطلقوا ألسنتهم فى سبه حتى كانوا يسبون على منابر الجمعة . ومن العجيب فى هذا أنه أباح لأولياته أن يسبوه على قدر ما حنرهم أن يتبرعوا منه . فذلك قوله كرم الله وجهه : « أما إنه سيظهر عليكم بعدى رجل سيأمركم بسبى والبراءة منى . أما السب فسبوى فإنه لى زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرعوا منى فإنى ولدت على الفطرة ، وصبقت إلى الإيمان والمجرة » . وأحسب أن مما تم به الفائدة فى هذا الموقف الأليم أن أقف بك عدة وقفات حول وصية أمير المؤمنين أوليائه بهذه الكلمات .

وأولى هذه الوقفات أن ما توقعه كرم الله وجهه قد وقع على أسوأ صورة وفى أوقع أسلوب . ولعلك سائل عن السر فى قدرة الإمام على استجلاء الغيب حتى وقع ما كان قد وقع . وجواب سؤالك هذا أنه كرم الله وجهه كان

محدثا . والمحدث — على مثال محمد — هو الذى يلقى فى نفسه الشيء فيخبر به على سبيل الفراسة . وذلك نوع يخص الله به من يشاء من عباده الذين اصطفاهم مثل عمر رضى الله عنه ، وقد جاء الحديث الشريف بهذا المعنى فقال صلوات الله عليه : ( قد كان فى الأمم محدثون وفى أمتى منهم عمر بن الخطاب ) . ولست تستبعد — هناك الله للصواب — أن يكون الإمام كرم الله وجهه من الذين اصطفاهم الله فآلهمهم ما يكون على ما يكون ، وإما أن يكون رضى الله عنه قد قاس الأشباه والنظائر بعضها إلى بعض ، فهدته فطرته السوية وفراسته النقية إلى ما سيكون من أمره بين الذين غلبوه على الخلافة واستأثروا دونه بإمرة المؤمنين .

وثانية الوقفات : أن بنى أمة ساءهم الله كانوا يأمرؤ الناس بسب على والبراءة منه ، حتى لقد ذكروا أن خالدا القسرى أحد ولائهم على العراق فى خلافة هشام بن عبد الملك كان يلحن عليا على المنبر فيقول : اللهم العن على بن أفى طالب بن عبد المطلب صهر رسول الله ﷺ وآله . وما زال الأمر على ذلك حتى إذا ولى الإمرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر بترك ذلك ، ووضع مكانه الآية الشريفة :

﴿ إِنْ أَلَّهِ يَأْمُرُ بِالْعَلْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ومما يآثره الثقات عن عمر بن عبد العزيز فى هذا الموطن أنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود ، فمر فى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ونلن عليا عليه السلام . فلما دخل المسجد تركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردى . فلما رآنى قام فصلى وأطال فى الصلاة كالمرضى

عنى . فلما انفصل من صلاته كلع في وجهى ، فقلت له : ما بال الشيخ ؟ فقال لى : أنت اللأعن عليها منذ اليوم ؟ قلت : نعم . قال : فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ فقلت : وهل كان على من أهل بدر ؟ فأجابنى : ويحك ! وهل كانت بدر كلها إلا له ؟ فقلت : لن أعود . فقال : آ الله أنك لن تعود ؟ قلت : نعم . فأمسكت لسانى بعد . ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة وأنى يخطب يوم الجمعة وهو حيثذ أمير المدينة ، فكنت أسمع أى يمر في خطبته تهلل شقاشقه<sup>(١)</sup> ، حتى يأتى إلى لمن على عليه السلام فيجمعهم وقد عرض له من الفهاهة والحصر ما الله به عليم . وكنت أعجب من ذلك حتى قلت له يوما : أنت أفصح الناس بما أرى ، فما بالى أراك أفصح خطيب يوم حفلك ، حتى إذا مررت بلمن هذا الرجل صرت عيبا ألكن ، فقال : يا بنى ، إن الذين تراهم تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم لو علموا من فضائل هذا الرجل ما يعلمه أبوك ، لم يتبعوا منهم أحد . ففرقت كلمته في صدرى — مع ما كان قاله لى معلنى — فأعطيت الله عهدا لن كان لى في هذا الأمر نصيب — لأغيرنه . فلما من الله بالخلافة أسقطت ذلك وجعلت مكانه الآية من سورة النحل .

وفي فضل عمر بن العزيز قال كثير يمدح عمر ، ويذكر قطعه السب عن على — كرم الله وجهه — :

وليت فلم تشتم عليا ولم تحف	بريما ولم تقلل إساعة مجرم
وكفرت بالعفو الذنوب مع الذى	أتيت فأضحى راضيا كل مسلم
ومازلت تواقا إلى كل غاية	بلغت بها أعلى الصلاء المقدم
فلما أتاك الأمر عفوا ولم يكن	لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذى يفنى لأن كان بائدا	وآثرت ما يبقى برأى مصمم

(١) الشقاشقة : تتابع الكلمات في فم الخطيب إذا بلغ عتبة المحاضرة

والوقفة الثالثة حول الفرق بين سبه وبين البراءة منه — كَرَّمَ اللهُ وجهه — ،  
وجملة القول في ذلك أن في سب الشريف انتشار صيت وعلو ذكر ، وفي ذلك  
ما يشير إلى الزكاة من حيث كان بعد الصيت كنهاء الرزق كلاهما فيه معنى  
السمة والازدياد . وزبما كان السب عصمة للدم في عهود الظلمة ، وقد  
رخص القرآن الكريم للمسلم أن يقول كلمة الكفر إذا أكره عليها .

وهنا يتضح الفرق بين السب الذي أباحه الإمام لأوليائه حرصا عليهم  
ونأيا بهم عن مواطن الشدائد والمشقات ، على حين أنه كَرَّمَ اللهُ وجهه حذر  
من البراءة منه . إذ كانت البراءة قد وردت في القرآن الكريم مقترنة بالمشركون  
على ما يقوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) . وعلى ما يقول أيضا : ﴿ إِنْ اللَّهُ بَرِءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) . فقد صارت البراءة بحسب العرف الشرعي مطلقة على  
المشركين خاصة ، فوجب أن يحمل النهي عن التبري منه على التحريم ..  
وذلك السبب غير موجود في سبه رضى الله عنه وأرضاه .

ورابعة الوقفات : حول الرجل التقى حجر بن عدى الكندى ، فقد طلب  
إليه أحد ولاة الدولة الأموية أن يسب عليا ولكه أوى مؤثرا غضب الحاكم على  
النيل من أمير المؤمنين على . وما كان لحجر بن عدى في قوة خلقه وشرف  
مروءته إلا أن يقف مع الشدة التي كانت سببا في الانتقام منه شر انتقام . ذلك  
أنه كان قد وقف إلى جانب الإمام على حبيبا إليه ، ملافعا عنه ، محرضا على  
أعدائه ، فلما مات كَرَّمَ اللهُ وجهه وأفضت إمارة المؤمنين إلى معاوية — رحمه  
الله — ، دعا به مع أصحابه ثم أمر بقتلهم بعد أن تنشر بين أيديهم أكفانهم  
وتحفر لهم قبورهم .. فلما قدم حجر إلى السيف جزع جزعا شديدا ، فقبل

له : أمثلك يجرع من الموت ؟ .. فقال : وكيف لا أجزع وأمام عيني سيف مشهور ، وكفن منشور ، وقبر محفور ؟ ثم قتل رضى الله عنه وأرضاه . ولعل أمير المؤمنين معاوية — رحمه الله — قد طارده شبح حجر الكندى في يقظته ومناحه ، فكان لا يفتأ يقول : يا حجر بن عدي إن يومى بك عند الله لطويل . ولسنا نملك إزاء هذه الفتن الهوجاء إلا أن نفوض إلى الله الأمر ، داعين أنفسنا ومن يأخذ عنا إلى التصديق بالحديث الشريف .. ( إن للمجتهد المخطئ أجرا ، وللمجتهد المصيب أجران ) .  
وعلم السرائر عند الله وحده علام الغيوب ..

---

## الخلافة بعد رسول الله ثلاثون

أخرج أبو داود والترمذي عن سفينة مولى رسول الله ﷺ — أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك ) وقد أخبرنا من خبره عندنا كالعيان<sup>(١)</sup> أنه عني بتحقيق هذا الحديث عناية استغرقت أمدا طويلا ، وأنه حسب مدة أبي بكر ومدة عمر ومدة عثمان ومدة علي ثم أضاف إليهم الحسن بن علي ، فإذا جملة السنين ثلاثون سنة . وليس يرتاب أهل الإنصاف في أن هذا الحديث ينبئ أن يسلك في عداد معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد يكون من الحق لمن يقرأ لنا أن يطمح إلى معرفة الفرق بين الخلافة والملك .. وجملة القول في ذلك الفرق أن الخلافة تنفي الرحمة وأن الملك يرى الرحمة خورا لا يبنئ اللجوء إليه لما فيه من انتشار الأمر وانتشار النظام . وقد تكون القسوة أقل ضحايا وأخف أعباء من التسامح الذي يغري بالخروج على النظام أهل الفساد .

وغير خفي على المتأمل أن الأخذ بحساب العرفي الصديق ، يفضي إلى اعتبار أمير المؤمنين معاوية رجل ملك وليس رجل خلافة .

وعلى أننا نحرص أشد الحرص على توقير أصحاب رسول الله ، نرى من الحق علينا أن نقرر أن أمير المؤمنين معاوية قد أخطأ الطريق في قتله حجر بن عدى وأصحابه على الصورة التي قتلوا عليها ، بين أسياف مشهورة ، وأكفان منشورة ، وقبور محفورة .

---

(١) هو الأستاذ الدكتور محمد عبده مجاني وزير الإعلام السابق في المملكة العربية السعودية .



على أننا لا نكره أن يحى إلينا من يستطيع تزييف هذه الواقعة ونسبتها إلى الاختلاق ، استرضاء للغلو في بغض معاوية رحمه الله ، أو استرضاء للغلو في حب على كرم الله وجهه ورضى عنه .. وليس ذلك على كتاب التاريخ بعيد . وما أصدق ما قاله الأستاذ الأمريكى لوثرروب ستودارد : « إن معظم التاريخ فروض ، وبقية استنتاج من هذه الفروض » .

وقد يستند المؤرخون إلى حجة تنهض دليلاً على أن معاوية ملك وليس خليفة .. وتلك الحجة هي أن معاوية عقد البيعة لانه يزيد ثم حمل الناس عليها رغبا أو رهبا . والبيعة على هذه الصورة خصيصة الملك وما هي من الخلافة بمكان قريب أو بعيد . ونحب أن نذكر الغيارى على الحق بأن معاوية — غفر الله له — لم يكن يملك إلا أن يفعل ما فعل ، إما نظرا لولته الذى هو امتداد لحياته ، وإما خشية من بنى أبيه ومن الطامعين في عطائه وهم الذين وقفوا معه وبذلوا غوالى دمائهم من أجله .. ويؤنسك بهذا الذى نقول أن العصية القبلية ذات سلطان لا يستطيع أقدر الناس أن يتفلس منه أو يتكر له . فلو أنه لم يبايع ليزيدو بايع للحسن بن على — على شرفه وفضله في نفسه وفي آباءه — لفتكت بمعاوية العصية القبلية التي لا يعيها النفوذ والسلطان .

وليس لك أن تستبعد هذا الفرض ، فإن في التاريخ ما يؤكد لك هذا الذى نقول ، وذلك أن المأمون بن هارون الرشيد كان قد بايع بولاية المهدي من بعده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ثم طرح لبس السواد وليس الخضره هو وجنته . فلما جاء الخبر بذلك أهل بغداد رلودوا منصور بن المهدي على الخلافة فأتى ، فراودوه على أن يكون نائبا للمأمون فأجابهم إلى ذلك ، ثم قتلوا عليا بن موسى الكاظم . وقد استعرت دار الفتنة في بغداد فلم يبق للمأمون عيش ، ولم يظفر الرضا الكاظمي بحياة ، ولم تستقر في جوانب الدولة العباسية حياة آمنة على نفس أو عرض أو مال .

على أن يزيد بن معاوية سلك سبيلا تؤهله إلى منصبه الذي أراده له أبوه ، ذلك أن معاوية أحب أن يقدم يزيد على جيش الصيف لغزو بلاد الروم . فدعا بأمين عباس قاتلا له : إن أحببت خرجت مع ابن أخيك يزيد بأئس بك ويستشيرك ، فيشير عليك ويكفيك أن يدخل الناس بينك وبينه فيشغلوا كل واحد منكما عن صاحبه . ثم لعلك تقل من ذكر حقلك في الخلافة فإذا الحزم بين يديك كثير ، وكل آت قريب .

ولم يسمع يزيد إلا أن يصدع بأمر أبيه فخرج على جيش الصائفة ومعه ابن عباس — رحمه الله — . فلما خرج يزيد على رأس الجيش كان فيه صاحب رسول الله أبو أيوب الأنصاري رضى الله عنه ، وكان الرجل قد مرض مرضا ظن معه أنه لاحق بالرفيق الأعلى .. فلما جاءه يزيد يعود في مرضه سأله عن حاجته التي تفر عينه وترضى نفسه ، وربما أعانته على احتمال أعباء المرض الذي كان يعانيه . وما أن سمع أبو أيوب سؤال يزيد حتى قال له : « أما دنياكم فلا حاجة لي فيها ، ولكني أحب أن تقدمني في بلاد الروم ما استطعت ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح ) وإني لأرجو أن أكون ذلك الرجل . ولم ير يزيد مندوحة عن تنفيذ وصية أبي أيوب .. فلما مات أمر يزيد بتكفينه ثم حمل على سريره والكتائب تحيط به عن يمين وشمال ، وكان القيصر في منظرته يرى فأرسل إلى يزيد يقول له : ما هذا الذي أرى ؟ .. فأجابه يزيد : هذا صاحب نبينا ﷺ ، وقد طلب إلينا أن ندفعه في هذه البلاد ولا مندوحة لنا عن تنفيذ وصيته . فأرسل إليه القيصر يقول : العجب كل العجب من نسبة الناس إليك إلى الدناء ، وهو يرسلك فتعبد إلى صاحب نبيك فتدفعه في بلادنا ، فإذا خرجت عنها أخرجنا صاحبكم إلى الكلاب . فبعث إليه يزيد : إني والله ما أردت أن أودع صاحبي بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم .. والله لئن باعني أنكم نبشتم قبره لأقتلن

كل نصراني بأرض العرب ، ثم لأهدمن كل كنيسة بناها سلطان المسلمين ..  
ولم يسع القيصر إلا أن يبحث إليه برسالة يقول فيها :  
« وحق المسيح ، لأحفظه يلى . ولقد كان أبوك أعلم الناس بك » .  
وننتهز بك هذه الساعة لنؤكد لك أن الفض من قنر معاوية في هذا  
التصرف مع يزيد ليس له وجه مقبول . بل ربما كان لمعاوية — رحمه الله —  
سند في تصرفه يستمد قوته من الحرص الشديد على مصلحة الأمة ، من حيث  
كانت مبايعة يزيد بالملك أمرا قاطعا للشعب ، أعذا للطريق على البلبلة وإثارة  
الفتن ، وبخاصة أن الراية التى كان المسلمون يلتفون حولها قد نكست وزال  
وجودها بموت أمر المؤمنين على ، الذى كانت تلتف من حوله القلوب  
وتشرح لأمره الصلور ، والذى كان يحبه أولياؤه أقوى محبة وبها به أعداؤه  
أعظم هية . ومع ذلك فقد مضى القوم إلى الله وهم في رحابه محوطلون  
بالحصانة التى تفرض علينا صيانة حرمانهم ، والامتناع من التعرض لهم بسوء  
نزولا على ما أمر به رسول الله في حديثه الشريف : ( لا تسبوا الأموات فإنهم  
أفضوا إلى ما قدموا ) . فإن كانوا قد أفضوا إلى رضوان الله فسيهم عناد لأمر  
الله ، وإن كانوا قد أفضوا إلى سخط الله فسيهم لا يساوى شيئا إلى جانب  
سخط الله ، فذلك هو أدب رسول الله الذى لا خير في تجهمه والتكر له ،  
مهما كانت العواطف من الحب والبغض مستولية على النفوس .. والله ولى  
التوفيق .

## ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾

ما أكثر ما يجد الإنسان نفسه مستأسرا لكلام يسمعه من خطيب أو يقرؤه لكتاب. فإن أنت سألته عن سر استسار له لما يسمع أو يقرأ لم يجبك بأكثر من أنه يلقى بياناً لا سبيل له إلى التعبير عنه . وربما أجابك بأن هذا البيان الذي استأسر له تحول في نفسه من الإعجاب به إلى التعجب منه . ومن هذا القليل الخطب والوصايا والمواعظ التي جمعها الشريف الرضي لأمر المؤمنين — كرم الله وجهه — ، وإليك هذه الكلمات التي وصف بها الإمام رسول الله ﷺ حيث يقول : « مستقرة خير مستقر ، ومنته أشرف منبت في معادن الكرامة ومعاهد السلامة . قد صرفت نحوه أخلة الأبرار ، وثبتت إليه أزمة الأبصار . دفن الله به الضعافن ، وأطفأ به التوائر ، وألف به إخوانا ، وفرق به أقرانا ، وأعز به الدلة ، وأذل به العزة . كلامه بيان ، وصمته لسان ، صلى الله عليه وآله وسلم . »

ثم إليك كلمات الإمام في أهل البيت حيث قال : أيها الناس انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا صمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يجلوكم في ردى . فإن لبسوا فالبسوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فضلوا ، ولا تأخروا عنهم فتهلكوا . لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يشبههم منكم . لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، وقد باتوا سجداً وقياماً يراو حون بين جباههم وحلودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم . إذا ذكر الله تعالى هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم ، ثم مادوا كأميد الشجر يوم الريح العاصف ، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب .

فهذا بيان شريف تبحر في نفسك من الإعجاب به والأرجحية له ما لا تستطيع أن تعبر عنه إلا بمثل بيان أمر المؤمنين ، وهيبات .

وليس يعيب عن فطنتك أن هذه الكلمات صورة صادقة لأمر المؤمنين كرم الله وجهه .

وباستصحاب هذه المعاني لا يسعك إلا أن تراه بين إمرتين كلتاهما تطمح إلى الاستئثار به ، وهما إمرته أهل البيان ، وإمرته أهل السلطان .

ولئن كنا قد أعطيناك صورة لبيانه في قدرته الفائقة على الوصف ، إن من الحق أن نعطيك صورة لبيانه في قدرته على العظة والإرشاد ، فذلك حيث قال كرم الله وجهه يوصي أصحابه :

أيها الناس ، تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا إلى الله بها فإنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴾ (١) .

ألا وإن الصلاة لاحت الذنوب حث الورق ، وتطلقها إطلاق الرقيق (٢) . وقد شبهها رسول الله ﷺ بالنهر يكون على باب الرجل فهو يغتسل منه في اليوم والليلة خمس مرات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدن . وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زمة متاع ، ولا فرة عين من ولد ولا مال .

وكان رسول الله ﷺ نصياً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة ، لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً

(١) المائدة ٢٤ ، ٢٣

(٢) الرقيق : جمع رقة على مثال حكم جمعاً لحكمة . والريقة هي حمل تشد به البسة أو يوضع في عنق الأسير .

تَحْنُ تَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١﴾ . فكان صلوات الله عليه يأمر بها أهله ويصير عليها نفسه .

ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا لأهل الإسلام ، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجازا ووقاية ، فلا يتبعها أحد نفسه ، ولا يكثر عليها هفوة ، فإن من أعطاها غير طيب النفس بها فهو جاهل بالسنة ، مغبون الأجر ، خال العمل ، طويل الندم . ثم عليكم بأداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها .

إنما عرضت على السلوات المبنية ، والأراضين المدحوة ، والجبال ذات الطول المنصوبة ، فلا أطول ولا أعرض ، ولا أعلى ولا أعظم منها . ولو امتنع شيء بطول أو بعرض أو عز أو قوة لا تمتنع ، ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان ، على ما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) .

فهذه الكلمات من أمير المؤمنين على ، آية على أن له حظا من خشية الله ومن الفقه بالقرآن ، لا يشاركه فيه أحد من أصحاب رسول الله .

ولا يخبر عنك — حفظك الله — أن الصلاة قد جاء فضلها الكثير الذي يعجزنا حصره . ولو لم يكن إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيده الأمر بها والمحافظة عليها ، لكان بعضه كافيا . وقد قال رسول الله صلوات الله عليه : ( عِلْمُ الْإِيمَانِ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ فَرَّغَ لَهَا قَلْبَهُ وَقَامَ بِمَحْدُودِهَا فَهُوَ الْمُؤْمِنُ ) . وقالت أم المؤمنين أم سلمة : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولن نعرفه . وقد سئل

الحسن البصرى — رحمه الله — : ما بال المتجدين أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم غلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وقال الإمام — كرم الله وجهه — : لا يزال الشيطان مذعوراً من المؤمن ما حافظ على الصلوات ، فإن ضيعهن تجرأ عليه وأوقعه في العظام .

وليس يخفى عليك ما أشار به الإمام إلى اقتران الصلاة بالزكاة ، من حيث كانت الصلاة مظهراً من مظاهر العبودية لله وحده لا شريك له ، ومن حيث كانت الزكاة مظهراً من مظاهر التواد والتراحم بين المسلمين . ولقد صدر أسلافنا عن ذلك التوجيه الكريم بما لا يشاركون فيه أحد . من الحرص على مرضاة الله رب العالمين في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

والقدوة التي لا تعدلها قدوة في هذا المعنى الشريف ، هو رسول الله ﷺ .. إذ أمر بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء . فقالت : يا رسول الله لم يبق منها غير عنقها . فقال لها : ( كلها بقی غیر عنقها ) .

وقد كان الرجل من السلف الصالح يضع الصلقة ثم ينتصب قائماً بين يدي السائل الفقير ويسأله أن يتقبلها ، حتى يصير هو في صورة السائل ويصبح السائل في صورة المتصدق .

ولا يرتاب ذو عقل ودين في أن هذه الصورة الشريفة للإمام في كلامه وسكوته وعبادته وزهادته ، لم تكن لتجتمع في صدره الشريف مع المكر والغدر . ولذلك صرح هو بهذه النتيجة فقال : والله الذي لا إله إلا هو لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن كل غدره فجرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

ومبلغ علمي بك — رحمك الله — أنك لا تجهل النبع الشريف الذي استقى منه الإمام كل ما يعرفه له الناس من فضل في شئون الدنيا وشئون

الدين : وذلك النبع الشريف هو محمد رسول الله الذي كان قدوة لأمر المؤمنين حتى كانت سيرته أشبه بسيرته في سائر أحواله ، على ما يذكر ذلك المعتدلون في حبه أبعد ما يكونون عن الإفراط الذي يلحقهم بالغلاة وعن التقريط الذي يلحقهم بالخوارج .

ولعل أقرب صورة يتجلى فيها وجه الشبه بين الإمام وبين رسول الله ﷺ ، هي أنه كان يتقيد بالص الشرعي إلا إذا دعت مصلحة للأمة إلى الاجتهاد وإعمال الرأي . وكذلك كان رسول الله ﷺ فإنه كان يعمل بالنص والتوقيف من طريق الوحي . وقد أذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يحكم في الشرعيات وغيرها بما يؤديه إليه اجتهاده ويحمله عليه رأيه في ابتغاء الخير للأمة ، على ما تشير إلى ذلك الآية الشريفة : ﴿ إِنَّا أَوْثَقْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ غَصِيماً ﴾ (١) . ففى هذه الآية بيان من الله تعالى بأن لرسوله ﷺ أن يحكم بما يراه من المصلحة دون أن ينتظر الوحي . فإذا قد كان رسول الله ﷺ قد اجتهد وأعمل رأيه ، فإن علياً اقتدى برسول الله ﷺ فاجتهد وأعمل رأيه ، مع ملاحظة أن الفرق بين الاجتهادين هو الفرق بين المنزلتين . فإذا اجتهد رسول الله ﷺ ثم أخطأ ، فإن الله تعالى لا يقره على هذا الخطأ . وهذا القدر من عناية الله تعالى بنبيه غير ثابت لعلى ، فإنه قد يخطئ فيتحمل نتيجة خطئه .

فقد يطلب حريص على المعرفة ثمرة تترتب على هذا الفرق بين الاجتهادين ، إذ لا يخفى أن لكل خلاف ثمرة ومخالاً تظهر فيه هذه الثمرة . وثمره الخلاف في هذا الموطن أن الإنسان غير المعصوم قد يعمل برأيه وبما يرى فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته ، لا يبالى وافق الشريعة أم لم يوافقها . فأما الذى ثبت له العصمة وهو محمد رسول الله ﷺ وحده ، فإن الله تعالى لا يتخلى عنه ولكنه يتداركه



دائماً بمنزلة لطيفه وجميل عابته ، فإن أصاب أقره مقلوباً ، وإن أخطأ صوب له الخطأ وربما عتابه عتاباً يليق بمنزلته ، على ما يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

وإذ كان الحديث يدعو إلى الحديث فإن الحديث عن الإمام كرم الله وجهه لا يكاد يقف عند غاية ، إذ كانت فضائله ومناقبه كالنهر يمد أوله آخره ويستمر آخره أوله ، فلا يكاد يجد المرء موقفاً يلوذ عنده بالصمت حتى يستريح ويريح . وكذلك يكون من الحق علينا أن نتون هنا في هذا الحديث عن الإمام ما يذكره ثقات العلماء من أن هناك شجراً شديداً بين سيرة رسول الله ﷺ وبين سيرة الإمام كرم الله وجهه .

فمن ذلك أن رسول الله ﷺ كان ضائق الصدر بالمنافقين وسوء سلوكهم وغيث طواياهم . كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في كثير من آياته بل في بعض السور كاملة كسورة براءة وسورة المنافقين ، وكذلك كان الإمام ضائق الصدر كثير الشكوى من منافقي أصحابه ، وكان كثيراً ما يعلن ألمه من إيذائهم له والتوائهم عليه .

هذا ما يتعلق بأمر الشريعة .. وجملة القول في ذلك أن الإمام كرم الله وجهه تابع لرسول الله ﷺ وأخذ عنه ومقتد به ، فهو واحد من المسلمين ينطبق عليه ما ينطبق على كل واحد منهم ، إلا ما يتصل بأمر الشريعة حيث القدرة على الاجتهاد ، وإلا ما يتصل بأمر العصمة فإنها شرف لرسول الله ﷺ وحده . وأما ما يتعلق بشؤون التعامل مع الناس فإن الثقات من أهل العلم يقررون أن الرجلين محمداً وعلياً تشابه أحوالهما في أكثر الأمور ، لأن حرب رسول الله ﷺ مع المشركين كانت سجالات . انتصر هو يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أحد . وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء لا عليه ولا له ، فإنهم قتلوا رئيس الأوس سعد بن معاذ وقتل منهم فارس قریش عمرو بن عبد

ود ، وانصرفوا بغير حرب . ثم حارب بعدها رسول الله ﷺ قريشا يوم الفتح فكان الظفر له . وهكذا كانت حروب على كرم الله وجهه .. انتصر يوم الجمل ثم خرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء ، وقد قتل من أصحابه رؤساء ومن أصحاب معاوية رؤساء ، ثم انصرف كل واحد من الفريقين بعد الحرب على مكانه . ثم حاربا بعد صفين أهل النهروان فكان الظفر له . وقد يأخذك العجب إذا لاحظت أن أول حروب رسول الله ﷺ كانت بدرًا وكان فيها هو المنصور ، ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية في آخر أيام على إلى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما أن مسيلمة دعا إلى نفسه في آخر أيام رسول الله ﷺ وتسمى بالنبوة ، وقد اشتد أمر معاوية على عليّ كما اشتد على رسول الله ﷺ أمر مسيلمة .

وقد مات عليّ شهيدًا بالسيف ، ومات رسول الله ﷺ شهيدًا بالسم . ومن التشابه العجيب في سورة الرجلين أن رسول الله ﷺ لم يتزوج على خديجة أم أولاده حتى ماتت ، وكذلك عليّ لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت . وقد مات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين سنة ، وكذلك عليّ مات عن مثلها .

هذا وليس يسع مثل أن أستوعب الحديث عن الإمام كرم الله وجهه ، ولو أنني طوعت نفسي لخرجت إلى ميادين واسعة لم يحملى على الإمساك عن التجوال فيها إلا ثقتي بأن فضله كرم الله وجهه لا يكاد يطمع في تجليته للناس بيان . ذلك أن له في كل أفق مطلبًا يحتاج إلى كتاب ، ولهذا كان من الحق علينا ولمن يقرأ لنا أن نمسك عن الحديث المستوعب إلى كلمات قالها في شأنه من هر أقرب إليه نسبا ، وأبصر به علما ، وأكثر له وفاء ، فذلك حيث نأخذ بيدك حفظك الله إلى هذا العنوان الجديد لنروى لك في ظله ما يقوله الثقات من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

## الحيل الشرعية بين الحظر والإباحة

أسلفنا لك — رحمك الله — أن بعض أهل الإسلام ، كانوا يلجئون إلى الحيلة التي تميز لهم شرعا بيع أمهات الأولاد . وفي هذا الفصل من هذا الكتاب نتهمز بك فرصة نحدثك فيها عن الحيل الشرعية بين فقهاء الإسلام .  
وأول ما نبدأ به هذا الحديث تبيان حقيقة الحيلة ، إذ كان الحكم على أمر من الأمور يقتضى تصور ماهيته ليسنى الحكم له أو عليه كما هو مقتضى المعقول والمنقول .

والحيلة — فيما ذكر الإمام الشاطبى — هى تقديم عمل ظاهر الجواز لإبطال حكم شرعى وتحويله فى الظاهر إلى حكم آخر . ومثاله أن يعمد إنسان له مال تجب فيه الزكاة فيهب ماله عند رأس الحول فرارا من الزكاة . وليس يخفى عليك أن الهبة جائزة فى الشريعة على أهلها ، كما أنه لا يخفى عليك أن صاحب المال لو وضع الزكاة من غير هبة لكان أمرا ممنوعا محرما . فإذا جمع صاحب المال بين الأمرين على قصد التخلص من الزكاة فقد صار مال الهبة المنع من أداء الزكاة ، وهو مفصلة عظيمة لضمير المسلم ، وضرر بليغ للذين استهدفت مصلحتهم الآية الكريمة من سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ <sup>(١)</sup> الآية الستون . وقد زاد هذا المعنى الذى ذكره الشاطبى شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية ، حيث قال ما يؤثر أن نرويه عن كتابه أعلام الموقعين :

إن تحريم الحيل يدل عليه الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ : ( لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع ، نخشية الصدقة — معنى الزكاة ) .

فهذا الحديث نص في تحريم الحيلة المفضية إلى إسقاط الزكاة أو تنقيصها بسبب الجمع والتفريق ، فإذا باع بعض النصاب قبل تمام الحول تحيلا على إسقاط الزكاة فقد فرق بين المجتمع ، فلا تسقط الزكاة عنه بالفرار منها .  
ومما يدل على تحريم الحيل — أيضا — قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْنُنْ تُسَكِّتُ ﴾ <sup>(١)</sup> . فقد ذهب المفسرون من السلف ومن جاء بعدهم إلى أن معنى الآية : لا تعط يا محمد عطاء تطلب أكثر منه ، وهو أن تهدي ليهدي إليك أكثر من هديتك .

وهنا كله يدل على أن صور العقود غير كافية في حلها وحصول أحكامها إلا إذا لم يقصد بها قصد فاسد . وكل ما يشترط في العقد مما يؤدي إلى الفساد فقصد حرام فاسد ، واشتراطه إعلان للفساد ، وقصد ونية غش ومكر وخداع ، فقد يكون أشد فسادا من الاشتراط ظاهرا من هذه الجهة ، والاشتراط الظاهر أشد فسادا منه من جهة إعلان المحرم وإظهاره .  
ومما يدل على التحريم — أيضا — أن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعوا على تحريم هذه الحيل . ولا شك في أن إجماعهم — رضى الله عنهم — حجة قاطعة ، بل هي من أقوى الحجج وأكثرها ، ومن جعلهم بينه وبين الله فقد استوثق لدينه .

يدل على ذلك الذى نقول أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خطب الناس ذات يوم على منبر رسول الله ﷺ فقال :  
لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجعتما بالحجارة . وقد أقره على ذلك سائر الصحابة . وكذلك أثنى عثمان وعلى وابن عباس وابن عمر بأن المرأة لا تحل بنكاح التحليل ، كما روى ذلك عن غير واحد من أعيان الصحابة كأبي بن كعب وابن مسعود وعبد الله بن سلام وابن عمر وابن عباس ، أنهم

نهوا المقرض عن قبول هدية المقترض ، وجعلوا قبولها من باب الربا .  
على أن الذين ذكروا الحيل لم يقولوا إنها كلها جائزة ، ثم قد تكون طريق  
الاحتياال محرمة وقد تكون مكروهة . والحيل في جميع صورها لا يحل لمسلم  
أن يفتي بها في دين الله .

ومما يدل على بطلان الحيل وتحريمها أن الله تعالى إنما أوجب الواجبات  
وحرم المحرمات من أجل أنها تتضمن مصالح عباد الله في معاشهم ومعادهم .  
فالشريعة لقلوبهم بمنزلة الغذاء الذي لا بد لهم منه وبمنزلة الدواء الذي لا يندفع  
الداء إلا به . فإذا احتال العبد على تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرض الله  
وتعطيل ما شرع الله كان ساعيا في دين الله بالفساد .

وبيان ذلك من عدة وجوه :

أحدها : إبطاؤها ما في الأمر المحتال عليه من حكمة الشارع .

وثانيها : أن الأمر المحتال به ليس له عنده حقيقة ولا هو مقصوده .

وثالثها : نسبتها إلى الشارع الكريم وإلى شريعته ما لم يشرعه . ولو أن رجلا  
تحيل حتى قلب الغذاء والدواء إلى ضده ، فجعل العناء دواء والدواء غناء  
لأهلك الناس بهذا التصرف .

ومن أعجب العجب أن يلتصق أرباب الحيل لإسنادها من كتاب الله وسنة  
رسول الله وأقوال الصحابة وأئمة الإسلام . فتراهم يقولون : إن الله تعالى قال  
لأيوب : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاُضْرِبْ بِهِ وَلَا تُخْسِفْ ﴾ (١) . فهذا ما في  
القرآن مما يشر إلى جواز التحليل .

ولعلك تريد أن ترى وجه الحيلة فيما ساقه القائلون بها عن طريق هذه  
الآية ، فاعلم رحمك الله أن العلامة البيضاوي روى في تفسيره أن زوجة أيوب  
ذهبت لحاجة فأبطأت على زوجها المريض ، فحلف إن يرى ليضربها مائة

ضربة . فحلل الله له يمينه بذلك على أن يجمع في حزمة واحدة مائة عود ريحان ثم أن يضربها بهذه الحزمة ، فيكون كأنه ضربها مائة ضربة .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن نبيه يوسف عليه السلام ، أنه جعل صواعه في رحل أخيه لكي يتوصل بذلك إلى أخذ بنيامين من بين إخوته ، ثم أخبر تعالى أن ذلك كان برضاه وبإذنه على ما تشير إلى ذلك الآية الشريفة : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

يقول تعالى إنه علم يوسف هذا التدبير الذي حصل بسببه على أخيه ، ولم يكن يستطيع أن يأخذه على مقتضى شريعة ملك مصر لأن فيها ضراباً وتغريباً ، فهنا ما يتصل بالقرآن من تجويز الاحتياال وهو واضح لمن تدبر القرآن . وأما ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة ، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : اجهلني يا رسول الله ، فقال له النبي : ما عندي إلا ولد ناقة . فقال الرجل : ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ وأما ما يتصل بالسلف الصالح فقد رأت امرأة عبد الله بن رواحة عبد الله خارجاً من عند جارية له ، فظنت أنه كان معها ففارت وغضبت لكرامتها أن يتركها ويذهب إلى جارتها . فذهبت إليه مغضبة تقول له : لو وجدتك مع هذه الجارية التي كنت معها مرة أخرى لوجأت عنقك . فأنكر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه قد كان مع جاريته على الصورة التي كرهها زوجته . فقالت له زوجته : إن كنت صادقاً فاقرأ على شيئا من القرآن ، فقال أبياتا من الشعر تعمد أن يطلع عليها طريقة تلاوة القرآن حتى تظن الزوجة أنها من القرآن وهي ترى أن القرآن لا يقرؤه المسلم إلا وهو طاهر غير جنب . فمضى عبد الله يقول :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرين  
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمين  
وتحملة ملائكة كرام ملائكة الإله مسومين  
فلما سمعت المرأة هذا الشعر بقرؤه زوجها على طريقة تلاوته لكتاب الله  
الكريم ، قالت : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى . فبلغ ذلك رسول الله  
ﷺ فضحك ولم ينكر على عبد الله ما صنع . وهذا تحيل من عبد الله بإظهار  
القراءة يوهم بذلك أن هذا الشعر قرآن لكى يتخلص من سوء ظن زوجته به  
وعاقبة غيرتها عليه . وهذا بلا ريب احتيال لطيف المدخل يصلح أن يكون  
سنا لجواز التحيل فى شريعة الإسلام .

وأهل الورع من السلف الصالح فهموا من هذه الصور جواز التحيل ، وفى  
مقدمتهم محمد بن سيرين . فقد كان — رحمه الله — إذا جاءه بعض غرماه  
بقتضيه ديناً له عليه يقول له : أعطيتك فى أحد اليومين إن شاء الله . وهو يريد  
بذلك يوماً فى الدنيا أو يوماً فى الآخرة .

فهذا كتاب الله ، وهذه سنة رسوله ، وهذا عمل الأبرار من أصحابه ،  
وهؤلاء هم أهل الورع من سلفنا الصالح ، وفى كل هذا آية بينة على جواز  
التحيل ، فماذا أنتم قائلون ؟

وانتبه الفرصة سائغة المبطلون للحيل فقالوا :

أما قوله تعالى لنبيه أيوب : ﴿ وَخُذْ بِذِكْرِكَ خِيعَتَنَا فَاضْرِبْ بِه  
وَلَا تَحْنَطْ ﴾ (١) . فإن الجواب عن ذلك أنه ليس مما نحن فيه ، لأن من تأمل  
الآية الكريمة لا جرم أنه يعلم أن هذه الفتوى خاصة بالحكم . ويدل على  
الاحتصاص قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَخَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ . فيعلم المتدبر أن الله

سبعائه إنما أفتلهم بهذا جزاء له على صبره وتخفيفا عن امرأته ورجمة بها ، وأيضا فإنه تعالى إنما أُرشد إلى ذلك لإثلا بحث في اليمين .

وهذا يدل على أن كفارة الإيمان لم تكن مشروعة فيما أوحى الله على أيوب ، فإن تلك الشريعة لم يكن فيها حث وكفارة عنه ، وإنما كان الخالف لا وسيلة له إلا البر في يمينه .

وأما إخباره سبعائه عن يوسف عليه السلام أنه جعل صاعه في رحل أخيه ، فالأمر فيها أمون مما تظنون ، وهو لا يدل على حيلة تحرم حلالا أو تحلل حراما ، وليس هذا مما نحن فيه .

ويتدبر هذه المعاني — على ما ينبغي لها أن يكون ما أثر عن الإمام كرم الله وجهه من القضاء ببيع أمهات الأولاد مفترى عليه من مبغض له أو غال في حبه . ونهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضى فيه من ذلك الباب الفاسد كثير ، وإلا فإن مما لا يقبله ذو عقل ولا ذو دين أن يوصف الإمام بأنه يبيع الأحرار ، وأم الولد قد حررها ولدها فلا يجوز بيعها في حال .

---



## نهج البلاغة في موازين الناقدین

أما وقد بلغنا بك هذه المرحلة من القول في أدب الإمام وتاريخه وما يتعلق بسيرته الشريفة — فقد آن لنا أن نتناول في حديث غير مسهب الكتاب الذي دار حوله الحديث عن الإمام — كرم الله وجهه — . وجملة القول في ذلك أن الشريف الرضى قد جمع ما نسب إلى الإمام على من حكم وخطب وكتب في كتاب سماه نهج البلاغة . وقد تناول هذا الكتاب بالشرح والتفصيل العلامة أبو حامد بن أبي الحديد . ثم تناوله في شرح موجز بأسلوب أديب لغوى عالم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه وأرضاه .  
وأهل العلم والأدب يتشككون في أمرين .

أولهما : هل الجامع لذلك الكتاب هو الشريف الرضى ، أو أخوه العالم الشريف المرتضى ؟

وثانيهما : هل هذا الكتاب من كلام على أو هو من كلام أحد الشريفين ثم نسب إلى الإمام ؟

وهنا يقول العلامة ابن خلكان : إن الذى جمع نهج البلاغة ونسبه إلى الإمام هو الذى وضعه ، كما نص على ذلك العلامة الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال . قال الذهبي : والكتاب مكذوب على أمير المؤمنين .

وقد بقيت بعد ذلك مسألة ، لعلها أولى بالاهتمام من كل ما عناه وهى ، ما أسباب الشك في نسبة هذا الكلام إلى الإمام على ؟

ومرد ذلك في مبلغ ما نعلم عن شيوخنا يرد إلى الأسباب التالية :  
أولا : أن كتاب النهج لم يهتم بنقده ودراسته الكتب الأدبية والتاريخية التى

ظهرت قبل الشريف الرضى ، ولم تنقل شيئا مما احتواه النهج من كلمات الإمام .

ثانيا : أن ما ورد في النهج من أفكار عويصة ونظرات دقيقة مما لا تصح نسبته إلى عصر الإمام .

ثالثا : إطالة الكلام إلى الحد الذى لم يؤلف إذ ذاك ، كما يشير إلى ذلك عهد الإمام إلى الأشر النخعى .

رابعا : ما فى النهج من قول جارح وشتم صريح مما لا يصح تصويره عن سيد من سادات الصحابة ، تولى أدبه محمد رسول الله ﷺ .

خامسا : الأسلوب الصوفى والعبارات التى لم تعهد إلا فى أزمان متأخرة عن زمن الإمام قد جرت على ألسنة المتكلمين ، ومنها ما هو خطأ لغوى لا تصح نسبته إلى عهد الإمام ، ولا يتصور أن يتناوله سيد المتقين أفصح الفصحاء بعد رسول الله ﷺ ، وهو أبو الحسين كرم الله وجهه .

هنا ولم يستسلم الفريق الآخر لهذه الحجج بل فنّدها واحدة فواحدة أولئك السادة الذين يؤمنون أوثق إيمان بأن كتاب النهج يشتمل على كلمات الإمام ، ثم يردون هذه الحجج فيقولون : أما الشبهة الأولى فنقول فى شأنها : إن جمع كلام بليغ من البلغاء فى كتاب واحد لم تجر به العادة قبل عصر الشريف الرضى إلا فى كلام رسول الله ﷺ ، أما من عناء فقد كان كلام الإمام مع ذلك مذكورا معروفا بالكثرة وقوة النسيج وصلق الاستيعاب ، فقد قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » : « والذى حفظ الناس من خطبه فى سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البدئية ، تداول الناس عنه ذلك قولاً وعملاً . ثم يقول الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » وقد أورد خطبة ذكر أنها لمعاوية فى نفر من قريش تباشروا بموته . وفى هذه الخطبة دروب من العجب منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من أجله

دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس وفي الإخبار عنهم وعماهم فيه من التهر والذل ومن التقية والخوف ، إنما هو أشبه بكلام على ومعانيه وحاله منه بحال معاوية ، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم .

وهذه الخطبة ذكرها الشريف الرضي ومنها : « أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن كنود ، يعد فيه المحسن مسيئا ، ويزداد الظالم عتوا ، ولا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعة حتى نعمل بنا ، فالتاس أربعة أصناف : فمنهم من لا يمنعهم الفساد إلا مهانة نفسه ، وكلاله حله ، ونضيض وفره .

ومنهم المصلت بسيفه ، والمعلن بشره ، والمجلب بخيله ورجله ، قد أشرط نفسه وأوق دينه ، لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه ، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا ، ومما لك عند الله عوضا .

وقد مضى الشريف الرضي في استكمال الأصناف الأربعة ثم قال : وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية وهي من كلام أمير المؤمنين الذي لا يشك فيه ، وأين الذهب من الرخام ؟ وأين العذب من الأجاج ؟ وقد دل على ذلك الدليل ونقله الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ .

وأما الشبهة الثانية التي هي استكثار هذه الحكمة والنظرة الدقيقة على الإمام ، فإنها مردودة أيضا إذا تمثلنا ما كان عليه — كرم الله وجهه — من حصافة الرأي التي استمدتها من عشرته لرسول الله وهو مشرق النور الإلهي ، وليس يستبعد ذلك من عرف عشرة الإمام لرسول الله منذ الصغر ، وملازمته له حتى أنه لم يتخلف عنه في غزوة تبوك . وقد عرف على بين الصحابة بالذكاء ونفاذ البصيرة حتى كانوا يصدرون عن رأيه .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان قد استفاده من التجارب أيام خلافته ،

وما درس من طبائع الناس وأحوالهم ، حكماً بأنه جدير بأن يكون بالثابة التي أضافوها إليه من بعد النظر وقوة الفراسة . ثم كيف نستبعد على الإمام على أن يكون كما وصفنا ، وهذا عمر بن الخطاب قد دوح الممالك بسياسة التي كانت موضع عجب المؤرخين ، ثم هو يقول : « لولا على لهلك عمر » . ويقول : لا يفتن أحد في المسجد وعلى حاضر » . وقبل ذلك وفوق ذلك قول رسول الله ﷺ في علي : ( اللهم اهد قلبه وثبت لسانه ) فكيف يستكثر المستكثرون عليه كرم الله وجهه أن يكون من دقة الحس وبعد النظر وقوة الذكاء وصفاء الذهن ، بحيث يحوم في أرفع الأجواء وأبعد الآفاق يتخير منها القول الصائب والمعنى الدقيق ، في حكمة مسلمة ومثل سائر ؟ إن ذلك لغريب عجب .

وأما الشبهة الثالثة الخاصة بالطول في عهد الإمام للأشتر النخعي الذي بلغ خمسة وسبعين ومائتي سطر ، وفي خطبته المسماة بالقاصعة البالغة سبعة عشر ومائتي سطر ، وكذلك خطبة الأشباح البالغة سبعين ومائة سطر : نقول إن هذه الشبهة القائمة على الطول فليس الطول مستبعداً على فصاحة الإمام التي صارت مضرب الأمثال . والله إذا وهب المرء ملكة البيان سهل له طريق القول ، فإذا اتجهت نفسه إلى القول فبدأ به أفاض فيه . ثم إذا أضفنا — إلى ذلك — زهده وانصرافه عن زخارف الدنيا وعنايته بأمر الدين ، سهل علينا إدراك الداعي إلى هذه الكثرة في كلامه والطول فيه . وأنت لا تجهل أن الإمام يعظ نفسه حين يعظ الناس ويحرك قلبه حين يحرك القلوب ، ثم هو يرى من العبادة لله أن يهلى الناس إلى الحق بعد ما بدأ الانصراف عن الدين . فهو يرى في ذلك نوعاً من الجهاد الذي وقف حياته عليه . وشبهة الناس هذه في عهد على للأشتر أن الإمام عهد قبل ذلك إلى غير الأشتر فلم يطل ، ثم إنهم يضيفون إلى

ذلك أن الأشر كان من الملازمين له ، فكأنه كان في غنى عن هذه النصائح الطويلة .

ولكننا نقول إن العهد إلى الأشر لا يقصد إليه وحده ، بل يتناول جميع من معه من عماله وأعرانه .

ثم إن الكتاب بعد ذلك دستور للعمل في القضاء والجباية وغيرهما . ولنا نستبعد مع ذلك أن يكون الغلاة في حب على قد نسبوا له هذا العهد للدلالة على فضله ، وأن أحدا من الصحابة لا يدنو منه في هذه الطريق .

وأما الشبهة الرابعة — القائمة على سب الإمام للصحابة فنقول في شأنها : إنه قد انحصر ما ورد من سب عمرو وعثمان وبعض الصحابة في الخطبة المعروفة بالشقشقية ، كما ورد ذمه لمعاوية وعمرو في كتب أرسل بها إليهما .

والكلام في افتراء الشقشقية أو تحقيق نسبتها إليه — كرم الله وجهه — قد تحدث به المتقدمون . وقد روى ابن أبي الحديد ما يؤيد نسبتها إليه في كلام طويل يثبت أنها مروية في كتب أخرى قبل أن يولد الرضى . ولكن نفيه احتراع الشريف لها لا ينفي أنها مدسوسة على الإمام قبل ذلك .

ومن حقت علينا أن نعرض عليك المقام الذى قبلت فيه هذه الخطبة ، وقد قلنا الإمام بعد أن بايعه الناس فأقبلوا إليه مجتمعين حوله متزاحمين على بيعته حتى أرهقوا الحسين وشقوا عطفه من شدة الزحام وكثرة المتزاحمين . فلما نهض بالأمر يريد لم الشعب وإصلاح الفاسد لم يجد من القلوب ثباتا معه على الحق . فبلغ منه اليأس كل مبلغ حتى هم بخلع نفسه لولا لزوم البيعة في عقه ، فذلك حيث يقول — كرم الله وجهه — : « أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقرأوا على كفة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلا على غاربها » . فإن من الأحلق بك أن تعتبر هذه الخطبة نقشة مصدور ، وأنه

مكلوم ، طال عناؤه فيما يحلول من رد الكيد ، وخدع الحرب .  
وليس يغيب عنك أن تلك الخطبة تنبئ على معنى عام هو أن الخلافة فانت  
عليها في أول أمرها ، فلما صارت إليه كانت الأمور قد اضطربت والنفوس قد  
تدابرت ، فلم يتحقق غرضه من الإصلاح وحسن القيام على هذا التراث  
المستخلف عن رسول الله . وينبغي أن تؤمن يقينا أن طلب أولئك الصحابة  
للخلافة وحرصهم عليها لم يكن لغرض دنيوى وشهوة فى السلطان ، وإنما  
طلبوها لإقامة عمود الدين وتحقيق العدل بين الناس . وفى سيرتهم جميعا —  
رضى الله عنهم — ما يدل على أنهم بذلوا ثروتهم وأفنوا جهدهم ، وخالطوا  
الناس نهارهم وعسوا عليهم ليالهم ، التماسا لتحقيق العدالة وابتغاء لمرضاة الله  
عز وجل .

لذلك لا نستبعد أن يكون على قد أسف على حرمانه من الخلافة أيام كان  
يستطيع أن ينفع ويشر خيرا للإسلام والمسلمين . فإذا تصورت ذلك لم نجد  
بدا من أن تبيح له أن يقول فى أول هذه الخطبة : « أما والله لقد تقمصها فلان  
« أبا بكر » ، وإنه ليعلم أن على منها عمل القطب من الرضى ، ينحدر عنى  
السليل ولا يرقى إلى الطير » . وليس يخفى أن فى تأخره عن مبايعة أبى بكر  
ما يساعد على أنه — كرم الله وجهه — يستجيز أن يقول هذه الكلمة .

ثم هو يقول فى الخطبة أيضا : « حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان  
« عمر » بعده .

ومبلغ الظن بك فى حرصك على أن تؤتى كل ذى حق حقه ، نحملنا على أن  
نتق بأنك تشاركنا صادقا صريحا فى أن هذه الخطبة مفتراة على الإمام لأن مثلها  
لا يليق بمثله . وليس يتأتى على الذين نسبوا إليه خطبة تسلب عن الله تعالى  
صفات المعافى ، نقول ليس يتأتى على هؤلاء المخامرين أن ينسبوا إليه هذه  
الخطبة الشقية على ما فيها من تحريج للشيخين أبى بكر وعمر اللذين كانا

موضع حب رسول الله وتكرمه . فخير معقول ولا مقبول أن ينال على من  
رجلين كرمهما رسول الله ﷺ في أحاديث لا تقبل التوهين ولا الإنكار .  
وأما معاوية وعمرو وما كان من تعريض الإمام بهما في خطبه ، فذلك أمر  
مقبول من الإمام — كرم الله وجهه — نقبله منه ونقره عليه وليس عليه في ذلك  
حرج ، من حيث كان اجتهاده قد أداه إلى اعتبارهما شاقين لطاعة المسلمين  
مريقين للدماء في غير حق ، فكيف يستكثر منه شتم أو ذم أحدهما أو كليهما .  
ومهما يكن من أمر فإن من الحقائق التي تبلغ منطقة اليقين أن الذين أبغضوا  
الإمام غلاة في بغضه ، وأن الذين أحبه غلاة في حبه ، قد افترخوا عليه  
ما لا يسوغ قبوله دون وقفات من التأمل تنفي ما اشتمل عليه مما لا يليق  
بالإمام وأمثاله من شرفاء الناس وقادة المسلمين .. والله يقول الحق وهو يهدي  
السبيل .

## الشعر في النفس العربية فِطْرَة

لا يرتاب أهل النوق البياني في أن الشعر من الفنون الجميلة . ومهما اختلف العلماء في تعريفه فإنهم متفقون جميعا على أنه لا يكون شعرا إلا إذا كان صادرا عن الطبع ومتصلا بذلك البهاء من جمال الفن ولطف التخيل ، وإلا فهو نظم لا صلة له بالشعر من قريب أو بعيد . وإذا كان المصور البارع يعرض عليك الصورة من نقشه فتستأسر لها عينك وتطمئن إليها نفسك بما انتظمت من لطف وأناقة وجمال ، فكذلك كان الشعر العربي الذي يتحدث عن الرياض فيكاد يسطع طوبها ، ويعرض للغواني فيساقط عليك اللؤلؤ من أحاديثهن . فإذا حكى طراد الفرسان كدت تمسك جنيبك حذارا من وقع رماحها ، فالشعر هو أغنية الزمان والحلية التي تضاعف من أثر البيان .

والعربي الذي وهبه الله الفطرة السوية والحس الدقيق والبيئة النظيفة من الأوبة والأدران ، هو أشد الناس إعجابا بالجمال واستسلاما لسلطانه . ذلك أن العربي إنسان كغيره من أجناس البشر . سوى أن بين جنبيه عاطفة مشبوبة ، وقد طال إصفاؤها للأغاني الطبيعية المترددة في أسجاع الطيور وحنين الإبل وتناوح الرياح ، فما هو إلا أن حكى صلباها وشدا معها وصر وترأ آخر من أوتارها دعت تكاليف العيش في تلك البادية القاحلة إلى قطع المسافات البعيدة وهو على ظهر راحلته ، في مثل أرجوحة الطفل ترقصه تلك الإيقاعات المتواليات التي أخذ يلقي على ضروبها من ألحانه الساذجة حناء لناقته ، إلى أن هدته تلك النفس الشاعرة إلى لون من الكلام المؤلف الموزون الذي هو عند التحقيق موسيقى ذات أنغام ، لا ينقصها إلا الوتر الذي يؤلف بين كلماتها ويخترع لها صورا تجعلها متعة للأنفس ومهفي للأرواح . فكل



عربى وكل عرية يستريح إلى الشعر إذا سمعه ، ويفرح به إذا قدر على نظمه فإذا هو بين يديه وسيلة إلى سعادة الدنيا بالحصول على المال ، أو بإرواء العواطف وما إلى ذلك مما لا يكون الإنسان إنسانا إلا به ، ولا يستطيع قهر شئ من الحياة إلا عن طريقه .

ولكن كانت تلك الخصائص للشعر قائمة في نفس كل عربى وعربية ، إنها في نفس الإمام على أقوى قوة وأبين طريقا وأشبه بأن ترده الأحلاف إلى الأسلاف . وقد رأيت أبا طالب نفسه كان شاعرا ، وأنه مدح رسول الله ﷺ بشعر لا بأس به . وقانون الوراثة حق لا تناله الشكوك ولا تفض من قدره الأوهام . فلأن يكون قد أخذ عن أبيه في الحس المرهف الذى لا ندحة معه عن قول الشعر مهما قل أو كثر ، ثم هو بعد ذلك له خولة في بنى أسد ، وبنى أسد فيهم شعراء يرق شعرهم بكل من يتناوله إلى آفاق عليا من مكارم الأخلاق .

وإذ كنا قد أعطيناك صورة من شعر والد الإمام في شرف نفسه واعتزازه بآل بيته ، فإن من الحق أن نعطيك صورة من شعر بنى أسد الذين هم أحوال الإمام كرم الله وجهه . وسوف ترى أن هذه الصورة الشعرية تصلح صورة لأخلاق الإمام كرم الله وجهه ، فذلك حيث يقول العربى الجاهلى من بنى أسد :

وإني لأستغنى فما أبطر الغنى      وأبذل معروف لمن يتغنى قرضى  
وأعسر أحيانا فتشدد عسرى      وأدرك ميسور الغنى ومعى عرضى  
وما نالها حتى تجلّت وأسفرت      أخو ثقة مى بقرض ولا قرضى  
وامتقذ المولى من الأمر بعدما      يزّل كما يزّل البعير عن الدحضى  
ولست بذى وجهين فيمن عرفه

ولا البخل — فاعلم — من سماء ولا أرضى

وأنت إذا تأملت هذا المعنى القائم على أن الإمام سليل رجل شاعر هو أبوه ،  
 وأم أسدية ، فإنك لا تستبعد أن يكون الإمام كرم الله وجهه شاعرا مهما يكن  
 مقلا في هذا الباب من أبواب البيان العربى العظيم .  
 ولعلك تزداد يقينا بأن شاعرية الإمام مطاوعة لطبيعته الشريفة ، ومعلقة  
 معها في أرفع الآفاق ، وأنت تقرأ له هذين البيتين :  
 أخوك الذى إن أحوجتك مُلِمة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجبا  
 وليس أخوك الحق من إن تشعبت عليك أمور ظل يلحاك لائما  
 وقد تسأل إذا كان الإمام شاعرا ؟ فلم لم يقل شعرا يجعله خليقا بهذه الصفة ،  
 إذا كان البيت والبيتان لا ينهضان دليلا على أن الرجل شاعر بنسبتهما إليه ؟  
 وجوابنا عن سؤالك هذا أن الشعر جاء عليه حين من الدهر كان مقترنا  
 بالتكسب ومدح الملوك وإشباع الغرائز الظامئة إلى متاع الحيوان ، والإمام  
 كرم الله وجهه بعد كل البعد عن هذا السلوك المهين عند كبار المهتم والحراس  
 على مكارم الأخلاق . ثم هو بعد لم تكن له قنوة في جميع أطوار حياته إلا في  
 رسول الله ﷺ . وقد علم أهل العلم أن الله تعالى قد صان رسوله عن قول  
 الشعر وانتظامه في سلك الشعراء ، على ما تشير إلى ذلك الآية الكريمة من  
 سورة ياسين : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾  
 يُنْذِرُ مَنْ كَانَ خِيَاً وَيُحَقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ .

## المهدى الموعود ، رجاء وعزاء

إن هاتين الكلمتين : رجاء وعزاء ، تشيران في هذا الفصل من الكتاب إلى المهدى الموعود في حديث لرسول الله ﷺ ، ثم في خطبة للإمام عليّ كرم الله وجهه :

فأما الحديث فهو قوله ﷺ : ( لا تقوم الساعة حتى يخرج من أهل بيتي رجل يواطئ اسمه اسمي ، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ) .  
فهذا الحديث يتضمن معنى الرجاء الذي يلوذ به المؤمن ليدفع عن نفسه حيرة اليأس من إصلاح المجتمع ، إصلاحاً يقوم على منهاج الإسلام الحنيف بقيادة رجل من آل البيت النبوي الشريف .

ومهما اختلف علماء الحديث في مبلغ الثقة بالسند الذي ينتسب به حديث المهدى إلى رسول الله ﷺ ، فإن من الحق علينا أن نلفتك أعزك الله — إلى أن تشد الثقة به والاطمئنان إليه في حديث رواه مجمع الزوائد عن أحمد ، والبخاري عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري ، وفيه يقول رسول الله ﷺ : ( إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب .. فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتند منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد .. فأنا أبعدكم منه )<sup>(١)</sup> .

فإذا اطمأنت — إلى حديث المهدى الموعود — نفسك وانشرح له صدرك ، فلا حرج عليك أن تأخذ به وترضى عنه وتعلن إلى الناس رأيك هذا فيه ، وسندك في انتفاء الحرج عنك هذا الحديث الذي رواه مجمع الزوائد .

---

(١) هذا الحديث جاء في كتابه مشكل الحديث للعلامة الطحطاوى ، وقد ذكره رحمه الله أن رجاله رجال الصحيح .

وربما زادك استمساكا به واطمئنانا إليه أن تتمثل سيد ولد آدم محمدا رسول الله وهو يقول ما يمهّد لك السبيل إلى أن أهل البيت أمان من الفتنة ، وهناة من الضلالة ، ودعاة إلى صراط الله المستقيم ، فهم معقد الأمل ومناط الرجاء في إحقاق الحق وتمكين العدل بين العالمين . إذ كان الله تبارك وتعالى قد أذهب الرجس عن آل البيت وطهرهم من الدنس وجعل وجودهم في الأمة الإسلامية قرينا للكتاب العزيز فيها ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ودعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فذلك ما يشير إليه الحديث الذي أخرجه جامع الأصول عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : ( ... ألا وإنّي تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله الذي من اتبعه كان على الهدى ومن تركه على الضلالة . وثانيهما : عترتي وأهل بيتي ) .

ففي هذا الحديث الشريف سمى رسول الله ﷺ القرآن العزيز وأهل البيت النبوي .. ثقلين ، من حيث كان الثقل في لغة العرب يعنى الشيء النفيس المصون ، ثم من حيث كانت النفاسة فيهما تقتضى القيام بما يجب لهما إعظاما لقدرهما وقضاء لحقهما ، مهما يكن ذلك ثقيلًا شاقًا على النفوس .

هذا ما يتصل بالرجاء في عنوان هذا الفصل ، وأما ما يتصل بالعزاء فيه فليس يخفى عليك ما لقيه الإمام على كرم الله وجهه في مختلف أطوار حياته من جحود لفضله ، وإسراف في الغض من منزلته ، وإصرار على النيل منه بكل سلاح تناله يد صديق أمحق أو عدو كاشع ، حتى استشهد في محرابه أزهّد أهل الإيمان في نعيم الدنيا وترف الجاه وعز السلطان . ولم يكن لينيب عنه — في فراسته القوية وتجربته الطويلة ونظرته السوية — أن آل أبي طالب سوف يمحضون على الطريق نفسها التي مضى هو عليها ، وسوف يصيهم ما أصابه من شدة البلاء التي تقضى بأهل العزائم إلى اقتحام الأخطار طلبا للظفر بإحدى الحسينين : إقامة دولة الحق أو الشهادة في سبيل الله . فلم يكن ليتأنى على

خاطره الشريف أن يتمثل له رجل من آل بيته يطلب الأمر ليتمكن به من الانتصار للمظلوم من الظالم ، ومن الثأر للمقتول من القاتل ، في سلطان دولة تقوم مقام دولة الخلفاء الراشدين ، تحيا الرعايا في سلطانها آمنة مطمئنة من غدر غادر وتسلط متسلط لا يؤنس في سلوكه حسب كريم ولا يزعج عن طغيانه دين قويم .

ولم يكن لينيب عن الإمام كرم الله وجهه شيء من هدى رسول الله في شأن من شئون الدنيا أو أمر من أمور الدين ، وقضية المهدي الموعود ليست بالمنزلة التي تصخطاها عناية رسول الله في لجة دالة أو إشارة مفهومة أو حديث صريح على مثال الحديث الذي ذكره عليه السلام عن الثقلين من الكتاب والعتره . وذلك هو ما يحملنا على أن نفصح في صلورنا مكانا لعقيدة المهدي الموعود عن طريق الخطبة التي نسبها الرضوي إلى الإمام علي مشمرا فيها كرم الله وجهه إلى المهدي وأتباعه وصفاته ، فذلك حيث يقول كرم الله وجهه :

« أيها الناس إنه من استصح الله وفقه ، ومن اتخذ قوله دليلا هداه للتي هي أقوم ، فإن جار الله آمن ، وعلوه حائف . وليس ينبغي لمن عرف عظمة ربه أن يتعظم ، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة ربهم أن يتواضعوا له ، وإن سلامة الذين يعلمون قدرته أن يستسلموا له . فلا تنفروا من الحق أيها الناس نفار الصحيح مع الأجر ، أو نفار الباري من ذوى السقم . ثم اعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه ، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ، ولن تتمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه ، فافهموا ذلك عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل . هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم ، وصنهم عن نطقهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه ، فهو » بينهم « شاهد صادق ، وصامت ناطق » .

فهذه الخطبة تتضمن كلمات لا نجد حياها متدحا من وقفات توضح

الغامض وتفصل المجمع وتكمل ما يحتاج إلى تكميل . وأول هذه الوقفات حول ما يحبه الإمام لشيئته من التعلق بالله ومعرفة أوصاف الذين يعرفونه . وجملة القول في ذلك أن من استصح الله بإطاعة أوامره عالما بأنه يهديه إلى مصالحه ، فإن الله تعالى لا يتخلى عنه بل يرشده إلى ما فيه الفلاح والنجاح ، ويصرفه عما فيه العطب والهلاك . وقد نبى — كرم الله وجهه — عن التكبر والتعظم قائلا : إن رفعة الذين يعرفون عظمة ربهم منوعة بأن يتواضعوا لخلقهم ، ابتغاء الثواب عنده وحده لا شريك له . وقد ورد في ذم التعظم والتكبر على الناس في أدب الإسلام وسلوك أهل الصلاح والتقوى من المسلمين ما لا سبيل إلى الإحاطة به . ورأس ذلك كله حديث عن رسول الله ﷺ يؤدب به أصحابه ، فيقول لهم ولكل من يؤثر القدوة بهم : ( إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس كلهم أبناء آدم وآدم من تراب : مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، وليتبين أقبام يفخرون برجال إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من حشرات الأرض ) .

وثانيه الوقفات حول ما ينبغي للمؤمن أن يسلك السبيل إليه عالما به بصيرا بعواقبه وغاياته .

وجملة القول في ذلك أن يعلم المرء أنه لن يعرف الرشد حتى يعرف الذى تركه فيترك منه ، وليس له عذر في الإصرار على ما كان عليه بعد أن استبان له وجه الحق فيه .

وثالثة الوقفات حول معرفة الطريق إلى النجاة من الآثام . وجملة القول في ذلك أن على أهل الحق وأنصاره أن يلتصقوا عند أهلهم من آل بيت النبوة ، إذ كان حكمهم ينشأ عن علمهم ، لأن الامتحان يظهر خبيثة الإنسان ، وكذلك صحتهم ينشأ عن نطقهم لأن صمت العارف أبلغ من نطق غيره . وهؤلاء الذين أمر الإمام باتباعهم هم « آل البيت وأنصارهم » ،

لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه ، فهو بينهم شاهد صادق ، وصامت ناطق .

وخلق بك أن تذكر أن الإمام كرم الله وجهه كان شديد الأسف كلما مثل مقامه بين الناكثين من أصحاب الجمل ، والقاسطين من أنصار معاوية ، والمارقين من غلاة الخوارج ، فكان مثله بينهم كمثل الذى قال :

تمنأتى ليلقانى أبى وددت وأبنا منى ودادى  
أرى حياطة ويرى قلى عذيرك من خليلك من مراد  
ذلك أن عاقلا يحتكم إلى مروية أو دين ، لا يمكن أن يرى الإمام علياً إلا آخذاً بأوفر نصيب وأوفاه في حياة الإسلام بلسانه وبلده ، ابتغاء أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، ثم ابتغاء أن يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون .

ومن حق رجل هذا شأنه أن يعرف الناس قدره وأن يحوطوه بالتحلة والإكرام . فإن هم نازعوه جحوداً لفضله وتجهماً لسابقته ، فإنهم أهل للانصراف عنهم وتأليب أهل الرأي عليهم . وذلك هو ما يسلكه الإمام خالصاً مخلصاً في أكثر خطبه ومقالاته التي جمعها الرضى في نهج البلاغة .

وإذا كان لكل ليل فجر ، ولكل ظالم نهاية ، فإن أولئك القاسطين زائلون مهما بدت دولتهم سابعة السلطان ، منيعة الأركان . ثم إن زوال دولتهم رهن بظهور صالح مصلح يضع الأمر في نصابه ، ويرجع السيف إلى قرايه ، وذلك هو المهدي الموعود في حديث رسول الله ﷺ . وإلى هذا الموعود يشير الإمام في خطبته التي يومئ فيها إلى الملاحم فيقول كرم الله وجهه :

« لقد أخذ أولئك الضالون يمينا وشمالاً طعنا في مسالك النبی ، وتركا لمذاهب الرشد ، فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصداً ، ولا تستيطنوا ما ينجي به الغد . فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أن لم يدركه . وما أقرب اليوم من

تباشير الغد . يا قوم هذا إبان ورود الموعود ودنو طلعة مالا تعرفون . ألا وإن من أدر كها منا يسرى فيها بسراج منير ، ويعتق فيها على مثال الصالحين ، ليحل فيها ريقاً<sup>(١)</sup> ، ويعتق فيها رقا ، ويصدع شعبا ، ويشعب صدعا ، في مسترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ، ولو تابع نظره ، ثم ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل ، تحلى بالتنزيل أبصارهم ، ويرمى بالتفسير في مسامعهم ، ويفيقون<sup>(٢)</sup> كأس الحكمة بعد الصبوح<sup>(٣)</sup> .

يقول الإمام كرم الله وجهه في خطبته هذه إن قوما من فرق الضلال ضلوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج الكتاب والسنة . ثم فسر قوله أخذوا يميننا وشمالا فقال إنهم طعنوا في مسالك الفی وتركوا مذهب الرشيد . ثم نبى الإمام عن استعجال ما هو معد لا بد من كونه ووجوده ، وإنما سماه كائنا لقرب كونه . والعرب تجعل ما سيكون كائنا كما في قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> . يعنى أنك ستموت يا محمد كما أن أعدائك سيموتون .

ثم نبى الإمام أهل الإيمان عن أن يستبطئوا ما يجيء في الغد لقرب وقوعه ، كقول القائل « إن غدا للناظرين قريب » .

ثم قال الإمام : يا قوم لقد دنا وقت القيامة وظهور الفتن التي تظهر أمامها ، مشيرا إلى المهدي بقوله : « إنه هو الذى يسرى في ظلمات تلك الفتن بسراج منير من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، تابعا مثال الصالحين ومقتفيا أثرهم ليحل في تلك الفتن حبلا معقودا ، ويعتق رقا مضطهدا ، وينقذ

(١) الرقيق بكسر الراء : الحبل فيه عدة عرى يشد به إليهم وكل عروة ريقه .

(٢) الفوق شرب آخر النهار .

(٣) الصبوح شرب أول النهار .

(٤) الزمر ٣٠



مظلومين من أيدي الظالمين ، ويصدع شعبا من جماعات الضلال ويجمع ما تفرق من كلمة أهل الهدى والإيمان . كل ذلك وهو في ستره عن الناس ، إما لأنه لم يؤذن له بالظهور وإما لأنه لم يولد بعد فيكون مسترا مدة . وله دعاة يدعون إليه ويقررون أمره ، ثم يظهر هو بعد ذلك الاستار فملك الممالك ويقهر الدول ويمهد الأرض كما ورد في قوله كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : « لا يبصر القائف الذى يعرف الآثار أثره ، ولو استقصى في الطلب وتابع النظر والتأمل » .

ثم قال الإمام : « ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل » يعنى كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أن الناس سوف يحرضون في هذه الملاحم على الحرب وقتل أهل الضلال فيشحذون عزائمهم كما يشحذ الصيقل السيف ويرقق حده . ثم وصف هؤلاء القوم الذين شحذت عزائمهم فقال : إن الله يكشف الغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن عن طريق إلهامهم تأويله ومعرفة أسرارهِ ، فيشربون كأس الحكمة كما يشرب الشارب في الصباح وفي المساء وخلق هؤلاء أن يكونوا أنصارا لولى الله الذى يجنيه ويحلقه في آخر أوقات الدنيا فيكون خاتمة الأولياء .

هذا وقد وصف الإمام أتباع المهدي بعد أن ذكر العترة التى ستحدث في آخر الزمان ، فقال في وصفهم كلمات خليفه بالتأمل البصر لا يجهل منزلتها في فصيح الكلام من له من النوق العرى نصيب . فذلك حيث قال كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : « حتى إذا اخلو لوق الأجل ، واستراح قوم إلى الفتنة ، واشتاكوا عن لقاح حربهم ، لم يمنوا على الله صبرهم على الأذى ، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في نصرة الحق ، فإذا وافق وارتد القضاء انقطاع مدة البلاء ، حملوا بصائرهم على أسيافهم ، ودانوا لربهم بأمر واعظهم وقائدهم » .

يقول الإمام في هذه الكلمات : إن أولئك الضالين لهم أجل ينتهى عنده أمرهم ، فإذا قارب أمرهم الانقضاء استراح قوم من شيعتنا وأوليائنا فرفعوا

أيديهم وسيوفهم عن أن يشب الحرب بينهم وبين هذه الفئة الضالة ، مهاده ها  
وكرامية لقياسها ، فعند ذلك يكشف العارفون الذين اصطفاهم الله قلوبهم  
للناس ، ويمالئونهم بعقائدهم مع تحريدهم سيوفهم من أجفانها إحقاقا للحق ،  
 وإقامة للعدل ، وإعلاء لألوية دولة المتقين التي يكون المهدي الموعود قائما  
بأمر الله فيها .. فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملكت ظلما وجورا ، كما بشر بذلك  
رسول الله ﷺ بشارة من لا ينطق عن الهوى ، ومن ينظر إلى الغيب من وراء  
ستر رقيق .

إن مما لا ريب فيه أن ثمة ما يصلح أن يكون تواترا معنويا يحمل على اليقين  
بالمهدي ، الذي يرفع الله به خسيصة الإنسان فريد الحقوق إلى أهل الحقوق ،  
 فإذا الأرض من المشرق إلى المغرب راتمة في مراتع العدل بعد أن كانت سائمة  
في تيه من الظلم والجور . وسند هذا اليقين حديث رسول الله ﷺ الذي  
صدرنا به الحديث عن المهدي ، ثم خطبة الإمام على كرم الله وجهه ، ثم  
ما استفاض على السنة الخاصة والعامة من حديث ذلك الإمام الغائب الذي  
تعلقت به أعظم الآمال في صدور أهل الدنيا وأهل الدين .

وقد أسلفنا لك — حفظك الله — القول في الحديث النبوي الشريف ، ثم  
أتبعناه خطبة للإمام على تجري في طريق الحديث تنفيا غايته الشريفة في إحقاق  
الحق وإقرار العدل وإشاعة السلام بين العالمين .

وغير ذى حاجة إلى مزيد بيان ، أن المهدي الموعود في حديث رسول الله  
ﷺ وفي خطبة الإمام كرم الله وجهه ، كان معقد الأبصار ومهوى الأرواح  
ومفرع كل من ضاقت عليه سبل الحياة بظلم الظالمين وتسلط المتسلطين .  
ومن أجل هذا المعنى برزت في مجتمع المسلمين فكرة المهدي المنتظر في أثناء محنة  
آل البيت إبان عهد بني أمية ، ثم ازدادت وضوحا بازدياد هذه المحنة في عهد بني  
العباس الذين ظفروا بالخلافة عن طريق على وبنيه . وما زالت سنة الله ماضية

على أنه كلما اشتد البلاء ، قوى الأمل فى التخلص منه والقضاء على أسبابه ،  
مهما يكن هذا الأمل قائما فى صدور الناس على كواذب المنى ومرادات  
الأحلام .

وعلى غير هذه الطريق كانت تجرى الآمال فى مهدي آل البيت ، إذ كان  
الأمل فيه منبعثا عن الصدق الصادق فى الحديث النبوى الشريف الذى كان  
ينظر الناس إليه على أنه بشرى يسوقها رسول الله ﷺ ، تدفع عن المؤمن نار  
الأس بأيديهم من الظلمات إلى النور . وكان مما يقوى هذه البشرى فى  
الحديث خطب الإمام التى كان يتحدث بها كرم الله وجهه إلى أولائه  
وشيعته ، فيجدون فيها أعظم معين على مصابرة الآلام والثقة بكشف الغمة  
وتفريج الكرب بعد زمن يقصر أو يطول .

وما إخالك إذا أسفت هذه الكلمات — إلا متطلعا إلى معرفة طليعة  
موكب المهدي فى التاريخ الموثوق .

فإذا كان أمرك كذلك ، فإنى محدثك بمبلغ علمى عن هذه الطليعة حديثا  
لا أركب فيه متن الخيال ، بل أستقيّه من مصادر يتلقاها أهل العلم بالثقة  
والقبول ، فذلك حيث يقوّن من خبره عندنا كالبيان :

أول من ظفر بقلب المهدي فى موكب التاريخ هو محمد بن عبد الله بن  
الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ويكنى « أبا عبد الله » . وكان يقال له :  
« صريح قريش » لأنه لم تقم عنه أم ولد فى جميع آبائه وأمهاته وجيرانه ، وكان  
أهل بيته يسمونه المهدي ، ويقرّون أنه هو الذى جاءت فيه الرواية عن  
رسول الله ﷺ ، وكان علماء آل أبى طالب يرون فيه أنه هو النفس الزكية  
لنسكه وعلمه وزهده .

ومما يذكر فى تاريخه رحمه الله ما كان يحدث به أهل العلم من أن فاطمة بنت  
الحسين كانت تقوم من نساء بنينا مقام القابلة حين يضعن أولادهن . وذات

يوم قال لها بنوها : لقد خشينا أن نسمى بنى القابلة . ولكن السيدة أجابتهم في حزم وإصرار فقالت : إن لي مطلباً لو ظفرت به لتركته ما ترون من قيامي مكان القابلة لنسائكم . فلما كانت الليلة التي ولد فيها محمد بن عبد الله بن الحسن قالت : يا بني إني كنت أطلب أمراً وقد ظفرت به ، فلست بعائدة بعد اليوم إلى تقبيل نسائكم في الولادة ..

وفي حديث محمد هذا يقول سفيان بن عيينة : لقد رأيت عبد الله بن الحسن يأتي بمحمد بن عبد الله وبأخيه إبراهيم بن عبد الله إلى ابن طلوس فيقول له : حدثهما فلعل الله أن ينفعهما بحديثك . وقد كان ابن طلوس عالماً زاهداً فقيهاً نصراً لآل البيت النبوي الشريف .

فكان محمد بن عبد الله — بعد أن خالط طلوساً — يقول : إني كنت أطلب العلم في دور الأنصار فأتوسد عتبة أحدهم ، فيجئني إلى الرجل من المسلمين فيوقظني قائلاً : إن سيدي قد خرج إلى الصلاة فلا يراني إلا عبداً ينام على أعتاب الدور .

ومن غرائب الأحاديث عن محمد بن عبد الله هذا ما يرويه المدائني عن عيسى بن يزيد بن داب من قوله : لقد رأيت أبا جعفر المنصور يوماً وقد خرج محمد بن عبد الله بن الحسن من دار أبيه وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود ، وأبو جعفر ينتظره . فلما خرج وثب أبو جعفر يساعد محمدًا حتى ركب ثم سوى ثيابه على السرج . فلما مضى محمد قلت لأبي جعفر : من هذا الذي أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه وعنيت بتسوية ثيابه ؟ قال لي أبو جعفر : أو ما تعرفه ؟ هذا محمد بن عبد الله بن الحسن مهدينا أهل البيت . ثم لم يزل محمد بن عبد الله مهدي آل البيت في رأى المنصور يتوارى عن الأعين ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويتسمى بالمهدي .

ولعلك رحمتك الله لا ترتاب في أن الملك عقيم ، وفي أن السياسة لا عقل لها ولا عاطفة . فإن أردت على ذلك دليلاً فتمثل أبا جعفر المنصور وهو يأخذ

بركاب محمد بن عبد الله وينسوى عليه ثيابه ويدعوه مهدي آل البيت ، ثم تمثل أبا جعفر نفسه وقد أرسل أحد مواليه يتجسس على محمد بن عبد الله قاتل له : اجلس عند المنبر فاسمع ما يقوله محمد . فلما جاءه الغلام أنبأه أنه سمع محمد يقول : إنكم لا تشكون أني أنا المهدي . فما أن سمع أبو جعفر هذه الكلمات حتى فقد وقاره وتشيعه لآل البيت ، ثم قال : لقد كذب عدو الله ، وإنما المهدي هو ابني أنا . وما زال أبو جعفر يطارد آل البيت ويحرض عليهم الناس حتى قتل منهم من شاء الله أن يقتل ، وفي طليعة أولئك الشهداء الأبرار محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

هنا وقد كنا تلقينا عن بعض شيوخنا وقرائنا عن بعض آخر منهم ، أحاديث عن المهدي المنتظر ، والثقة بأحاديثهم في المجالس وبمقالاتهم في الصحف والمجلات تدعونا إلى أن ندون هنا ما كنا كتبناه بعنوان : « المهدي المنتظر في موكب التاريخ » فإليك — حفظك الله — هذا الذي كتبناه لا نقول فيه غير ما قلنا من قبل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل :

حق على البصراء يشعرون الاجتماع البشري أن يتناولوا في درس قضية المهدي المنتظر إلى أبعد مما ورد في شأنه من حديث عن رسول الله ، وفيه يقول عليه السلام — : ( لا تقوم الساعة حتى يخرج من أهل بيتي رجل يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً ) .

ووجه هذا الحق ، أن هذا الحديث النبوي الشريف انتظم قضية ذات نتائج خطيرة في حياة المتدينين . وهذه القضية تختلف عليها الآراء وتتصارع من حولها العصبيات بين متحهم لها ومرحب بها ، فإذا غبار المعارك بين الفريقين لا يكاد يأذن لذى نظر أن يستجلي الحق فيها أو يكشف عن وجه العبرة منها . على أن من الحق علينا أن ندع النظر في سد الحديث لمن هم أقدر عليه من رجال السنة النبوية الطهور ، وحسبنا نحن أن نحاول قضاء الحق لهذه العقيدة في

كلمات نلم فيها بموجبه المرموق ، غير معترين برأى تقع عليه ، ولا متجهمين حقا بلقنا المخلصون إليه ممن هو أوثق علما وأبعد نظرا . وما أخطأ الطريق إلى مرضاة الله من أسلس للحق قياده ، وراض على الرضا به جماعه ، والمعصوم من عصم الله .

إن أول ما ينبغي البدء به في الحديث عن المهدي المنتظر أن فيه حقا لسائر الديانات السماوية ، تهتف بنا إلى قضائه القرابة الدينية بين سائر المتدينين . ذلك أن كلا من اليهودية والمسيحية والإسلام يتطلع إلى مصلح يظهر في آخر الزمان تشمع في ظله معالم العدل ، وتحقق بدعوته أعلام السلام الذي يرضاه الله ويسعد به المؤمنون .

فاليهود لا يزالون ينتظرون المسيح الذي يجدد لهم ملكهم قبل فناء الدنيا . والنصارى يرون في المسيح عيسى بن مريم المسيح الذي بشرت به الأنبياء ، وهم يقولون يرجوعه في آخر الوقت لإبادة المسيح الدجال . والمسلمون تمش بينهم عقيدة المهدي الذي يظهر قبل قيام الساعة ، يعز الحق ويذل الباطل ويزيل الرجس ويعلي كلمات الله في العالمين .

ومع أن ظهور مهدي منتظر أمر مسلم به بين أهل الديانات السماوية الثلاث ، إلا أن المسلمين يختلفون حول شخصه الشريف : فطائفة ترى أن ذلك المهدي هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وطائفة ثانية ترى أنه علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، والشعبة الإمامية يرون أنه محمد بن الحسن العسكري الذي ينتهي نسبه إلى زين العابدين بن الإمام الحسين من إحدى بنات كسرى الثلاث الذي زوجه بها الإمام كما أسلفنا ذلك من قبل .

ثم إن الثقات من أهل العلم يتناقلون الخبر الموثوق الذي يقول إن محمد بن الحسن العسكري كان قد دخل صغيرا مع أمه سردابا بالجلّة من أرض العراق الشقيق ، جنبه الله تربص المتربصين ، ثم اختفى هنالك . فالشعبة ينتظرونه

عد باب السرداب كل يوم من غروب الشمس إلى مغيب الشفق وهم ينادون : « أيها الإمام لقد كثر الظلم وعم الجور وساءت الحال ، فأخرج إلنا لتتقننا مما نحن فيه » .

وعلى مثل هذه الحال تنصرف الشيعة الإمامية في « قاشان » من بلاد فارس ، فيركبون كل صباح إلى لقاء الإمام الغائب .

وما من شك في أن تنصرف الشيعة ومن على شاكلتهم حول قضية المهدي ، إنما مثله كمثل السالك سيلا صحراوية في يوم قاتظ كاد يهلكه حر الظمأ ويشوى وجهه لفح الهجير ، ثم لاحت في عينيه في قلب الصحراء واحة ذات أشجار عالية وأثمار شهية ، فعلى قدر ما تستبينها عيناه وتسعى به إليها قدماءه ، يغمر صدره برد الرى ، وتشيع في جنباته مشاعر السكينة والسلام .

وما دام الحديث يقود إلى الحديث والأعاجيب تهتف بالأعاجيب فإن من الحق أن يتمثل الناس — في هذا المعرض الكريم — سلوك متدينين من غير المسلمين جاوزت بهم العقيدة في المهدي المنتظر مدارك العقول . وذلك أن الثقات من أهل المعرفة يذكرون — في هذا الباب — رجلا مسيحيا إنجليزيا جاء إلى بيت المقدس ذات عام ، ثم أقام بواد هناك زعم أنه هو الوادى الذى تظهر فيه طلوع يوم القيامة من النشر والحشر بين يدي الحساب والجزاء على الأعمال . وقد كان هذا الإنجليزى المتدين مداوما على قرع الطبل كل صباح ، ينبه الناس من غفلتهم أو يوقظهم من غفوتهم حتى يكونوا على أهبة الاستعداد لمشاهدة الطلوع الأول ليوم الدين .

وأعجب من ذلك أن يتناقل الثقات خبر سيده بريطانية جاءت إلى القدس ، وكانت — كل يوم — تعد الشاى لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله .

وقد كان « لامارتين » الشاعر الفرنسى الشهير يحدث أنه زار — في رحلته

بجبل لبنان — السيدة : إستر سنانوب ، في قرية : جوبنا ، فرأى عندها فرسا مسرجا على الدوام لكي يكون ركوبة للسيد المسيح عند وصوله .

وقد استعان بقضية المهدي المنتظر بعض الخاصة من المسلمين على إرضاء عواطفهم ، أو لإنجاح دعواتهم الإصلاحية في الزيادة عن الحمى والدفاع عن المقدسات . فالدولة الفاطمية عندما ظهرت في تونس أعلنت أن عبيد الله الذي أسسها هو المهدي المنتظر ، ومحمد بن تومرت — عندما قام بمصمورة في المغرب — قام بالدعوة إلى المهدي وبها تأسست دولة الموحدين .

وفي أيام الدولة المربية في فاس قام رجل من تونس معلما أنه المهدي معتصما بهرباط حصين ، وقد اجتمع من حوله رؤساء صنهاجة حتى قتله المصامدة ، وكذلك ظهر رجل آخر يدعى العباس وقال إنه المهدي . وفي السنغال ظهر رجل ادعى أنه المهدي وأحدث ثورة سنة ١٨٢٨ ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيون مصر أيام بونايرت اشترك مع المصريين في الدفاع عن مصر رجل مغربي من ليبيا معلنا أنه هو المهدي المنتظر ، ومازال يقاتل حتى قتل .

ولما ثار أحمد عرابي لكرامة مصر والمصريين لم يكن صدره فارغا من الاعتزاز بالانتماء إلى البيت الكريم الذي يخرج منه المهدي المنتظر . وربما كان فيمن حوله من أهل العلم من يروى له الحديث الشريف : ( إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة . من يجدد لها أمر دينها ) ومقاومة ظلم الظلمة واستعمار المستعمرين أصل من أصول الدين ، وتجديد لدعوة سيد المرسلين . وما كانت ثورة أحمد عرابي إلا سالكة هذا النهج وماضية على هذه الطريق ، ولكن كيد الخيانة كان أكثر عندا وأقوى عندا ، فاستسلم الرجل ثم نفى إلى سيلان بين شماتة علو ورتاء صديق .

ولما كان شرف الثورات غاية الأحرار في كل أفق ، لم يكن بد من قيام ثورة



في السودان يقودها السيد محمد أحمد المهدي معلنا إلى الناس أنه هو المهدي المنتظر ، فاستجاب له في ثورته ، مؤمنون مجاهدون ، لا يدرك صورة إقدامهم على الموت في الدفاع عن حرماتهم إلا أولئك الذين عيأت لهم السبل إلى مشاهدة المعارك السودانية في الأفلام التي تعرضها دور العرض وأجهزة التلفزيون في مثل الفيلم العظيم الذي عرضه تلفزيون لندن في أكتوبر سنة ١٩٧٩ تحت عنوان « عاصفة على النيل » .

وربما ذكر مؤرخو ثورة السودان أن والد السيد المهدي كان يسمى « عبد الله » ، وأن المهدي كان له أخوان أسن منه وكان عملهما صناعة السفن في النيل الأبيض وقد أرسلاه لتحصيل العلم في نواحي الخرطوم ، فلما بلغ الخامسة والعشرين من سنه انتقطع إلى العبادة والزهادة في أحد الكهوف ، وقد استبان من ورعه وقوة دينه وشدة إعراضه عن الدنيا ما تحدث به الناس عنه وطار به في الأفاق صيته ، فتبعته قبيلة « البقاره » وهي قبيلة عظيمة عريقة في العروبة .

ويذكر ثقات المؤرخين هؤلاء أن والي السودان « رعوف باشا » كان قد أرسل لاعتقال المهدي مائتي جندي قتلهم أنصاره ، وانحاز هو إلى جبل في السودان وقد التف حوله السودانيون ، فجردت الحكومة المصرية المغلوبة على أمرها آنذاك جيشا تحت قيادة « جيفلر باشا البافاري » فهاجمه نحو خمسين ألفا من السودانيين الأبطال فأبادوه . ثم دخل المهدي « الأبيض » وجعل الأبيض كرسى حكمه .

وقد كان في تلك الهزيمة المسكرة رادع لحكومة مصر عن معلودة سلوكها الخاضع لكيد الاستعمار وجشع السلطان ، ولكن المغلوب على أمره لا يكاد يفكر إلا في استرضاء غالبيه والنزول على أوامر حاكميه ، ولذلك لم تلبث الحكومة المصرية أن جردت جيشا آخر تحت قيادة « هكس باشا » فأباده

السودانيون أيضا ، ثم أبادوا قوة غوردون باشا واستولوا على السودان كله . ثم لما مات الإمام المهدي خلفه التعايشي أحد زعماء قبيلة « البقارة » واستفحل أمره فأمر الإنجليز مصر أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ثم مالبتوا أن جردوا جيشا من المصريين أيضا يقوده ضابط من الإنجليز على رأسهم الجنرال « كينشر » ، فاستفتح هذا الجيش السودان بدم مصر ومال مصر ، ثم عاد الإنجليز يقولون للمصريين إن السودان مشترك بيننا وبينكم . والحق الذي لا مرية فيه أن السودان كله لا مال لك له إلا الله ، ثم الشعب الذي درج على أرضه واستظل بسمائه ، وإن مصر أولى به وأنه هو أولى بها ، نزولا على حكم الله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وبالتأمل في هذه الكلمات على ضوء التاريخ والواقع والأدب الإسلامي العريق ، لا يجد النصف ندحة عن القول بأن الإمام عليا كرم الله وجهه كان ولا يزال وسوف يظل منارة يبتدى بها المجاهدون في كل زمان ومكان ، لإحقاق الحق ودعم العدل وتأييد السلام الذي هو أخ الإسلام في الاشتقاق اللغوي ، والأمن الاجتماعي ، والعمل الدائب على تكريم الإنسان الذي كرمه وبه فسخر له مافي السموات والأرض ، وسخره في عبوديته رب السموات والأرض ، وهي العبودية التي يتناول إليها وينتهي عندها أقصى ما تبلغه حرية الأحرار .

هذا . ومن الحق علينا الله ثم لأبناء أمتنا العربية وأمتنا الإسلامية ، أن نجيب عن سؤال لا يكف عن الإلحاح في طلب الجواب عنه : من آل البيت الذين يتسبب المهدي إليهم ، ويحمل في دعوته الخيرة إلى الأمة شرف دعوتهم وسمو أخلاقهم ونبل سلوكهم ؟ .

وجواب هذا السؤال ما أخرجه الترمذى وصححه من أحاديث .  
أولها عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أحبوا الله لما يغفلونكم به من نعمه ، وأحبوا لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي ) .  
وثانيها : عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وقال : ( اللهم هؤلاء أهلى ) .

وثالثها : عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قالت : كنت جالسة على باب بيت النبى حين نزلت الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١) . وقد كان فى البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، فجعلهم رسول الله بكساء وقال : ( اللهم إن هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ) . فقلت : يا رسول الله : أأنت من أهل البيت ؟ فقال ﷺ : ( إنك إلى خير ، أنت من أزواج رسول الله ) .

وقد أخرج الإمام مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « خرج رسول الله ﷺ وعليه مرط مرجل أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٢) .

وباستصحاب هذه الأحاديث التي لا شك في صحتها ، يكون المهدي الموعود من سلالة البيت النبوي الشريف ومن أحفاد الإمام عليّ كرم الله وجهه . فمن زعم أنه المهدي وليس من أحفاد الإمام فهو دعي لا ثقة به ولا اعتبار لقوله ، فذلك هو قضاء رسول الله ﷺ . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

## لكل بداية نهاية

ماأصدق ماقال الشاعر العربي :

لا بد من صنعا وإن طال السفر      وإن نحسى كل ظهر ودبر  
وقد طال بنا السرى وأرهقا السرى فى استجلاء سيرة الإمام كرم الله وجهه  
فى مظانها الموثوقة . وعلى الرغم من ذلك كله لم نجد ما نقوله فوق ماقلنا مهما  
لجأنا فى ذلك إلى الحقيقة أو المجاز ، إذ كان قدره — كرم الله وجهه — أجل  
وأعلى من أن تفيه حقه الكلمات بالغة ما بلغت من الإحاطة والشمول ، ولهذا  
لا نرى متدحا — وقد بلغنا هذه المرحلة من الحديث — من أن نحسك عن  
الإمام والله تعالى المستول أن يجعل هذا الذى تفضل علينا به خالصا لوجهه  
الكريم ، وسيلا لنا إلى القلوة بآل البيت وأحباؤهم وذوى قرباهم . فذلك هو  
شرف الدنيا وشرف الدين ، والله سميع مجيب الدعاء ، يده الخير وهو على كل  
شىء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله على محمد وآل محمد وعلى جميع  
صحابته الأكرمين ومن اهتدى بهديهم وتأدب بأدبهم إلى يوم الدين .  
أحمد حسن الباقورى

مصر الجديدة — القاهرة

لى يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب الفرد ١٤٠٤هـ

موافقا الثامن والعشرين من شهر نيسان ( أبريل ) سنة ١٩٨٤ م

## المراجع

- ★ القرآن الكريم
- ★ السنة الشريفة
- ★ تاريخ الطبرى
- ★ إعلام الموقعين عن رب العالمين لشيخ الإسلام ابن القيم
- ★ البداية والنهاية لابن كثير
- ★ السيرة النبوية لابن إسحاق
- ★ الروض الأنف للسيوطي
- ★ نهج البلاغة لابن أبي الحديد
- ★ شرح نهج البلاغة — للأستاذ الإمام محمد عبده
- ★ عقيدة الإمام — للأستاذ العقاد
- ★ عيون الأخبار — لابن قتيبة
- ★ العقد الفريد لابن عبد ربه
- ★ النجوم الزاهرة
- ★ حياة الحيوان الكبرى — لكمال الدين الدميرى
- ★ تاج العروس من جواهر القاموس للإمام الزبيدى
- ★ لسان العرب لابن منظور المصرى
- ★ المصباح المنير — للعلامة المقرئ الفيومى
- ★ أسد الغابة في معرفة الصحابة
- ★ ديوان الشاعر الجهنى عبد المطلب
- ★ المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية المصرى
- ★ تاريخ الأدب العربى — للأستاذ العلامة محمود مصطفى
- ★ شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون

- \* حاضِر العالم الإسلامي — للعالم الأمريكي لوثر روب استودرد
- \* مقاتِل الطالبيين — لأبي الفرج
- \* تاريخ الإمام زيد — للشيخ محمد أبو زهرة
- \* قصص الأنبياء — للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
- \* قضاء أمير المؤمنين — للشيخ التستري
- \* الكامل للميرد
- \* رغبة الأمل — للأستاذ العلامة المرحمى
- \* أبو طالب — للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل
- \* تاريخ الجمعيات السرية — للأستاذ محمد عبد الله عنان
- \* الإمام على نيراس ومتراس — للأستاذ سليمان كنانى

نـ: ١/٢٣/١٤٠٦ تاريخ التوقيع: ٢٦/٢/٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٦٨٦ -

الترقيم المولى : ٣ - ١٤٦ - ١١ - ٩٧٧





الدين جعلهم يحاربون الحسن ميتا وينشون قبر الحسين دفينا ، ثم يجمعون إلى هاتين الرذيلتين رذيلة ثالثة تأباها العروبة ويرفضها الإسلام ، وهى أن يقتل غير المقاتلة من نساء ورجال . فقد روى الثقات عن الإمام على زين العابدين ابن الإمام الحسين أنه كان دائم الحزن شديد البكاء ، وذات يوم قال له قائل : إنك شديد الحزن كثير البكاء فهلا هونت على نفسك ؟ فقال رضى الله عنه : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف . ولم يكن علم أنه قد مات . ولقد رأيت أنا بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون فى غداة يوم واحد . أفترى حزنهم يذهب من قلبى ؟

هذا بعض ما يتعلق بالذين استشهدوا من آل البيت النبوى الشريف . وأما ما يتعلق بالذين اختفوا فى البيوت أو شردوا فى الآفاق خشية ظلم بنى العباس ، فأليك ما يشير إلى ذلك دون استيعاب أو إطناب :

وأولى ما يؤثر من ذلك عن القاضى التتوخسى ، هو أن الشاعر المتصوف أبا العتاهية قال : لما امتعت من قول الشعر وتركته ، أمر المهدي بحبسى فى السجن مع المجرمين ، فأخرجنى من بين يديه إلى الحبس . فلما دخلته استوحشت ودهشت وطار عقلى لأنى رأيت منظرا هائلا ، ثم رميت بطرفى أطلب موضعا آوى إليه أو رجلا آنس بمجالسته ، فإذا أنا بكهل حسن السمت نظيف الثياب تبدو عليه سيما الخير فقصدته وجلست إليه من غير أن أسلم أو أسأله عن شئ من أمره ، لشدة ما كنت فيه من الجزع والحيرة . فمكثت على ذلك مليا وأنا مطرق مفكر فى حالى فإذا الرجل الكهل ينشد شعرا يقول فيه :

تعودت من الضر حتى ألفتـه	وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس وانقسا	يحسن صنع الله من حيث لا أدرى
إذا أنا لم أقنع من الدهر بالذى	تكرهت منه ، طال عتبي على الدهر